

المكائن النبوية

الدكتور زكي مبارك



كُلُّ الْقُلُوبِ إِلَى الْحَبِيبِ نَمِيلُ وَمَعَى بَهْدِ شَهَادَةٍ وَدَلِيلِ
أَمَّا الدَّلِيلُ إِذَا ذُكِرَتْ مُحَمَّدٌ صَارَتْ دُمُوعُ الْعَارِفِينَ تَسِيلُ
هَذَا رَسُولُ اللَّهِ نَبِيُّرَأْسُ الْهَدَى
هَذَا لِكُلِّ الْعَالَمِينَ رَسُولُ

دارُ المَحْجَةِ الْبَيْضَاءِ



مكتبة مؤمن قريش

لو وضع إيمان اليـس طائب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
(الإمام الصادق ع)

moamenquraish.blogspot.com

المذكر النبوي

في الأدب العربي

تأليف

زكي مبارك

دكتور في الآداب من الجامعة المصرية

ومن جامعة باريس

وحائز دبلوم الدراسات العليا في الآداب

اللغات الشرقية في باريس

دار المحجة البيضاء

كتب جديدة للمؤلف تحت الطبع

١ - كتاب الأسماء والأحاديث

٢ - أكواف الشهد والعلم

٣ - سرائر الروح الحزين

فهرس

صحيفة

- ٥ الاهداء
- ٨ غاتمة الكتاب
- ١٧ نشأة المدائح النبوية
- ٥٣ مدح أهل البيت
- ٦٧ حياة الكميت بن زيد
- ٨٣ هاشميات الكميت
- ١٠٢ تائية دعبل في أهل البيت
- ١١٧ قصائد الشريف الرضى في صريع كربلاء
- ١٣٢ قصائد مهيار في أهل البيت
- ١٤١ حياة البوصيرى
- ١٥١ عناصر البردة
- ١٦١ أثر البردة في اللغة العربية
- ١٧١ بديعة ابن حجة الحموى
- ١٨٨ مدائح ابن نباتة المصرى
- ٢٠٠ قصة المولد النبوى

مقدمة

تتعطر أحياء القاهرة منذ مئات السنين بمدائح شعرية تلقى مدحاً للنبي الكريم ﷺ ولاهل بيته ﷺ ففي المولد النبوي من كل عام تتوهج المشاعر أزاء هذه الارومة الكريمة في مدن مصر كالقاهرة وغيرها من المدن الأخرى بما يلقيه الشعراء والمنشدون من قصائد واناشيد وينقلها الرواة وعامة الناس وتنشدها القلوب قبل الحناجر، وتتكرر هذه الممارسة العاطفية المعبرة عن ولاء عرفه المصريون قديماً في شهر رمضان وعيدي الفطر والاضحى ورأس السنة الهجرية وتقام هذه الطقوس قرب المساجد مثل مسجد الحسين ﷺ وجامع الازهر ومسجد السيدة زينب ﷺ والسيدة نفيسة وجامع الإمام الشافعي.

ولم يتقص الكثير من الباحثين تاريخ هذه المدائح وتطورها مثلما تقصاها المفكر والناقد الراحل د. زكي مبارك في كتابه (المدائح النبوية في الادب العربي) واقفاً بمهارة عند اعلامها في قصائدهم الخالدة، جاعلاً إياها باباً من أبواب الأدب الرفيع، لأنها صادرة عن صدق وإخلاص عميق، وقد لاحظ الدكتور مبارك ان ما يقال عن الرجل بعد موته يسمى رثاء الا ما كان في حق رسول الله وأهل بيته صلوات الله عليهم فانه يُسمى مديحاً وكأنهم لاحظوا انهم موصولو الحياة ويخاطبون كما تخاطب الاحياء، وبمثل هذه الالتفاتات الذكية تعقبها مبارك بالرصد والتحليل والشرح وغرر النصوص النقدية من قصيدة كعب (بانث سعاد) حتى قصيدة أحمد شوقي (ولد الهدى) وأخواتها مثل (ريم على القاع) و(سلوا قلبي) وقصيدة الشاعر محمد التهامي.

لقد قدّم د. زكي مبارك تحليلاً ممتازاً للسمة الابداعية لهذه المدائح، وأوصل خيوطها النورانية بماضي الادب العربي، وحدد خصائص هذا اللون الادبي وما ينفرد به تحديداً ينم عن موهبة نقدية رفيعة، ولعل من المستحسن قبل عرض التحليل الادبي ان نتعرف على ترجمة هذا الناقد البارِع.

انه محمد زكي عبد السلام مبارك ولد في مصر عام ١٨٩٢ واصبح قامة أدبية ونقدية معروفة ومن كبار الكتاب الذين امتازوا بأسلوب جذاب.

لقد ولد هذا الناقد في قرية سنتريس بالمنوفية (بمصر) وتعلم بالازهر التعليم الاساسي وحصل على شهادة دبلوم الدراسات العليا في الادب من مدرسة اللغات الشرقية عام ١٩٣١ ثم نال من الجامعة المصرية درجة الدكتوراه بأطروحته (الاخلاق عند الغزالي) وكان قد نقده بشدة فاتهم بالكفر والزندقة، وحينما أجيّزت الرسالة قالت اللجنة انها غير مسؤولة عما فيها من آراء، وحصل على دكتوراه ثانية كانت حول (النثر الفني في القرن الرابع الهجري) وكان قد قدمها بالفرنسية للسوربون عام ١٩٣٧ وبعد حصوله على الدكتوراه من السوربون عاد إلى مصر، واختلف مع د. طه حسين فعمل مفتشاً في وزارة المعارف المصرية، ثم استأذاً بالجامعة لفترة وجيزة وعمل بالصحافة حتى انه قال لقد كتبت قرابة الف مقال في جريدة البلاغ في موضوعات متنوعة تحت عنوان (شؤون وشجون) فلما توقفت قال (غزلت لهم غزلاً رقيقاً فلم أجد لغزلي نساجاً فكسرت مغزلي) ثم انتدب عام ١٩٣٧ بعد حصوله على الدكتوراه من السوربون للعمل بالعراق مدرّساً في دار المعلمين العالية (بغداد).

وقد عرف عن مبارك انه كان يصرح مراراً ان المجتمع العراقي شعب يتميز بالكرم والسخاء وإكرام الضيف وقد جاء ذلك في كتابه (ملامح عن المجتمع العراقي) الذي نشر عام ١٩٤٢.

وكانت له حلقات واحاديث تبث من إذاعة بغداد استمرت عدة شهور، نال فيها شغف أهالي بغداد آنذاك وكان معجباً بلبالي بغداد فقد قال عن هدوء ليل بغداد (الآن عرفت كيف استطاع علماء العراق ان يملأوا الدنيا علماً وادباً) وان (ليل بغداد هو الذي سيخلق زكي مبارك من جديد)، ومن المعلوم أن المدن العراقية قد احتفت به وأقامت له حفلات تكريم كالنجف الاشرف والبصرة والموصل، وقد جمع ما القى فيها من قصائد وكلمات الاستاذ عبد الرزاق الهلالي في كتاب اسماء (زكي مبارك في العراق) وبسبب هذا الانفتاح

على ادباء العراق فقد توطدت له علاقات مع رموز ادبية عراقية بارزة فقد كان من اصدقائه الشيخ محمد رضا الشيبلي، وعباس العزاوي وابراهيم الزهاوي ومحمد القبانجي صاحب المقام العراقي المشهور.

ويقال ان زكي مبارك زار الفلوجة ليلتقي بالرصافي ويسجل عنه اخر ما قال من الشعر:

قد كان لي وطن بالأمس اندبه واليوم لا وطن عندي ولاسكن
ولم أجد من بلاد كنت اخدمها الا حشالة قوم قاءها الزمن

لقد اثرى زكي مبارك المكتبة الادبية بأكثر من (٤٥) كتاباً اثنان منها بالفرنسية، ومن كتبه النشر الفني في القرن الرابع، وعبقرية الشريف الرضي، والاسماء والاحاديث، والتصوف الإسلامي في الادب والاخلاق، وكتاب الاخلاق عند الغزالي، والموازنة بين الشعراء، ووحى بغداد، وكثير من العنوانات الأخرى واخيراً اصدر مذكراته بعنوان (الحديث ذو شجون) ومازالت كتبه يتداولها الادباء والنقاد حتى اليوم ومن كتبه النادرة (المدائح النبوية في الادب العربي) هذا الكتاب الذي سنعرض لفصوله.

وفي مساء يوم الثامن والعشرين من شهر كانون الثاني ١٩٥٢ وكان زكي مبارك يسير في شارع عماد الدين بالقاهرة فأصابه إغماء سقط بسببه على الأرض فجرح رأسه ثم نقل إلى المستشفى وتوفى فيها وعمره ستون عاماً.

وكان قد قال رحمه الله (اخشى ان لا اظفر بكلمة رثاء يوم يشيعني الناس إلى قبري فذاكرة بني آدم ضعيفة جداً فهم لا يذكرون الا من يؤذيهم اما الذي يخدمهم ويشقى في سبيلهم فلا يذكره أحد منهم بالخير).

كتابه المدائح النبوية في الادب العربي:

خرج هذا الكتاب إلى النور عام ١٩٣٥ وقد أهده لإستاذه الشيخ

مصطفى عبد الرزاق وهو أحد أبرز علماء الأزهر مطلع القرن الماضي وهو في الأصل جزء من كتاب كبير عن أثر التصوف في الأدب وقد أشار عليه الشيخ عبد الرزاق ان يقرء هذا الجزء مستقلاً بكتاب فامثل لأستاذه فحقق سبقاً في انه من اوائل من يرسم خصائص المدائح النبوية في الأدب العربي كغرض من أبرز أغراض الشعر العربي.

لقد عرض بالفصل الاول إلى دالية الاعشى، ولا مية كعب، وقصائد حسان وتكلم عن خطب الإمام امير المؤمنين عليه السلام والمدائح التي اثنى فيها على النبي الاكرم صلى الله عليه وآله في خطب نهج البلاغة وحللها بلاغياً وفكرياً فابدى في تحليلها متخبطاً شراح نهج البلاغة.

ثم بين ظروف نشأة مديح اهل البيت عليهم السلام وخصّ الكميته بن زيد الاسدي بدراسة وافية، وأتبعه بفصل عن دعلب الذي ترك لنا تائيه عظيمه قل نظيرها في أداب الأمم.

ومضى إلى شعر الشريف الرضي لاسيما الذي في واقعة الطف، ثم تناول قصائد مهيار الديلمي في اهل البيت عليهم السلام وتوقف عند برده البوصيري وقفه ناقدة ماهر، وعند شعر ابن نباته، وختم كتابه بقصة المولد النبوي ونشأته وتطوره والموقف منه.

ومن خلال قراءة الكتاب تظهر لك أن هذا الكتاب ينطوي على ميزات خاصة فإن من ميزات الكتاب انه يتضمن نقداً موضوعياً لقصيدة الاعشى وكعب وفي نقده ايضاحات مسهبة لألفاظ الشعر واسماء الاماكن بحيث يزود الباحثين في التاريخ معرفة بالاماكن فهو يقول:

«تقع لامية كعب في ثمانية وخمسين بيتاً من الشعر المحكم وان خلت من الروح، ويقصد نبض المشاعر الجياشة والدفق» ويقول انها قصيدة على موازين القصيدة الجاهلية في الخصائص الفنية وتغلب عليها قوة السبك لكنها تخلو من الروح، وبالرغم من ذلك فلم يقل بها أحد ما قال مبارك فيها بل إهتموا بها فشطروها وخمّسوها وترجموها ولم يتناولوها بالنقد العلمي.

اما نشر الإمام على عليه السلام الذي يستشهد به زكي مبارك وهي أول بادرة

تدخل النثر بالمدائح النبوية، فانه يقول فيه رغم أن بعض خطب نهج البلاغة من المشكوك في صحتها إلا أن زكي مبارك يورد عدة أمور في وصف مدائح النهج فيرى:

- ١ - إنه نص يعكس صورة الأدب في تلك الايام.
- ٢ - ويرجح مبارك صحة ما نسب له في التحميدات والعظات في خطب النهج ويرى أن ما طعن في خطبه ليس الا غمطاً لحقه وانتصاراً لمعاوية، وهذا تعليل جميل تدان به ذمنا.
- ٣ - ان مدائح علي عليه السلام الثرية لا يظهر فيها تكلف فهو في مطلع كل خطبة يحمد الله ويشني على رسول الله صلى الله عليه وآله بأحسن الثناء استرسالاً وسياًفاً ولكن في نوع التحميد والمدح للنبي تجد معجزة نهج البلاغة.
- ٤ - ان علياً عليه السلام ينتقل من مدح الرسول إلى مدح ال البيت الكرام بوصفهم يحملون ذات الصفات.

ثم ينقل المازني حادثة قصيدة الفرزدق في موسم الحج وفي الكعبة الشريفة امام أحد ملوك بني امية والتي مطالعها (هذا الذي تعرف البطحاء وطأته) ويصفها مبارك أنها نفحة من نفحات التصوف لما فيها من مدح الله ومدح اوليائه وهو عين التصوف، وقد أشاد مبارك بما أسماها الشجاعة الصوفية عند الفرزدق، ويتابع د. مبارك أزمئة المدائح النبوية عبر قرون الحضارة والأدب فيقول وقد بلغ هذا الفن من الشعر اشده في القرن الرابع (قرى ذروة الحضارة الاسلامية) كما يحدده ادم منر في كتابه الشهير (الحضارة الاسلامية في القرن الرابع).

وفي الفصل الثاني: تتوهج عبارات زكي مبارك فتثير في النفس الكثير من الاعجاب ومن تلك الأمور الآتية:

- ١ - يقول مبارك لقد ولد التعاطف مع اهل البيت منذ اليوم الذي خُذل فيه الإمام علي عليه السلام حينما كان يرى نفسه صاحب الحق، وبلغ العطف اشده يوم قتل في مسجد الكوفة، وتأصلت جذور هذا العطف في افئدة المسلمين بعد مقتل الحسين عليه السلام وما تلاه من احزان على اهل البيت.

٢ - ان مقتل الحسين عليه السلام من الحوادث التي شغلت خواطر المسلمين اجيالاً طوال، ولو كان التصوير من الفنون التي شجعها الإسلام لمألت صورة الحسين أقطار الأرض، كالذي وقع لصورة المسيح التي تزدان بها كنائس العالم اجمع ومتاحفه وساحاته، وصالونات اللوحات التاريخية النادرة والنفيسة.

وينقل مبارك من اساطير اليونان ان آلهة الجمال كان لها ابن قتله خنزير فدفن في أرض خالية فنبتت من دمه شقائق النعمان فاحيا اليونان ذكراه في كل ربيع وصار لهم تقليداً سنوياً ومنذ الاف السنين ثم يقول (وكذلك يفعل المسلمون في ذكرى الحسين) في عاشوراء من كل عام.

٣ - ان الامويين قاوموا تلك العواطف لكنهم لم يفلحوا، على الرغم من ان دسائسهم ضد الحسن عليه السلام قد ظفرت بعض النجاح لانهم حاربوه بلباقة سياسية منقطعة النظر لكنها لم تنجح مع الحسين عليه السلام ومن العجب ان الهاشمين لم يقاوموا هذه الدسائس بل عدّوها من مفاخر الإمام الحسن عليه السلام ويؤكد ان الامويين لم ينجحوا في تشويه سمعة الحسين عليه السلام وبذلك يكشف واحدة مما اغفله التاريخ واغفله العقل الشيعي.

٤ - يشيد زكي مبارك بالمواقف الشجاعة لأتباع آل البيت أمام معاوية ويفسرهما على ثلاثة افتراضات :

أ - ان تكون الروايات صحيحة وهي شاهد تاريخي على شجاعة التصوف في حب علي وآله عليهم السلام.

ب - ان تكون تلك الروايات من وضع العلويين لتقوية روح الانتماء (وهي صورة متخيلة من المحبة الصوفية).

ت - ان تكون من وضع الامويين حتى يوصفوا برجاجة العقل عندما يتسامحون مع أتباع علي عليه السلام.

٥ - يؤكد مبارك انباء حديثة عن الكميت ان المستشرقين أحبوا شعره وطبعوا هاشمياته في ليدن ١٩٠٤، وكتب لها احدهم مقدمة وتصحيح

باللغة الالمانية. رغم أن الكميت، كان يصرح ان الامويين - ملوك عصره قد انتهبوا الخلافة بغير حق وهي ميراث الرسول إلى آلہ ﷺ وليست الخلافة ولاية للحكم انما هي ميزان العدل، وخزان العلم، ورجبة السداد، وميراث النبوة، وأحد الثقلين.

٦ - ينتقد المازني من يرى ان بائية الكميت من أفضل قصائده وهو القول الراجح عند القدماء اما عنده فانه يرى ان اللامية أضخم وأفحل ويدلل على رأيه بعرض نقدي رائع في الصفحات ٩٣ وما بعدها من الكتاب.

٧ - لقد دافع زكي مبارك عن دعلب دفاعاً باسلاً، وتناول (اشهر قصائده واجدرها بالخلود وهي التائية ذات المطلع المفجع) فقد قال فلطالما كان اهل البيت يطربون لها ويرون فيها العزاء عما اصابهم، فلقد حدث دعلب الناس ان اخبارها طارت إلى الجن.

٨ - وعن البردة للبوصيري المتوفي (٦٩٦ هـ) يقول زكي مبارك ان المزامنة بين مولد النبي ﷺ وانصداع ابوان كسرى، وانخماد نار المجوس وانحسار بحيرة ساوه التي غاضت والشهب التي انقضت فوق الاصنام (لم يعرف لها من التاريخ سند صحيح) ويعقب بانه لا يعرف متى نشأت هذه الاخبار، ويرى انها من وضع القصاصيين ويورد مبارك انه لم تلق قصيدة تقبل عوام الناس والحفظ بقدر ما لقيت البردة للبوصيري حتى لقد اضحت ورداً من الاوراد، نالت من اهتمام الناس وشروح الشراح ما فاق الوصف ووضعت لها الحواشي وخمست وشطرت وسجعت وعورضت كما حصل عند شوقي في (نهج البردة) وغيرها ممن جاراها.

ويتعرض زكي مبارك لبقية المدائح المتأخرة عن القرن الثامن الهجري بالعرض والنقد والتحليل ليصل إلى اخر فصول الكتاب المعنون قصة المولد النبوي الذي يقول فيه:

١ - أغلب الظن ان الاحتفال بالمولد نشأ في بلاد فارس فقد جاء في نفح الطيب عن ابن دحيه انه مر باربيل سنة ٦٠٤ هـ ورأى احتفال الناس بالمولد النبوي احتفالاً عاماً وبهياً وتلقى فيه المدائح.

٢ - ان وضع القصص الخيالية عن المولد من عمل الصوفية وأقدم من عرفه من أهل الذكر وقد ذكر زكي مبارك أن ممن الف في الموالد ابن الجوزي (٥٩٧).

٣ - «لا بد من الإشارة إلى أن روح التشيع سرت إلى بعض من يقرأون قصة المولد النبوي بدون ان ينتبهوا إلى ذلك، فقد سمعت منهم قصائد في التفجع على الحسين» ويعقب بالقول «أن التصوف والتشيع يرجعان عند المسلمين إلى اصل واحد».

واخيراً اقول ان قراءة هذا الكتاب ليست فقط فرصة ممتعة غاية الامتاع، بل هي كاشفة عن الجذر العقائدي للكتاب المصريين الذين ما نزع عن قلوبهم حب عترة النبي ﷺ رغم تقادم الأيام على انتهاء حكم الفاطميين وان ما فيه من إشارات ونقود وآراء وحفريات تاريخية فهي تثرى ثقافة المطلع عليه اضافة إلى انه يصقل الذوق الادبي ويعمق الذائقة الشعرية الهادفة والمسؤولة.

اسأل الله ان يجعل إعادة طباعة هذا الكتاب في سجل حسنات صاحب هذا المشروع الجميل، وان تتوفر الفرصة لعشاق الثقافة وطالبي المعرفة للتعرف على الامتاع والمؤانسة والثقيف والمثاقفة لسيدنا: صاحب اعادة نشر الكتاب كل الدعوات الصالحات، ولذوقه الرفيع وعمق فكره الخلاق اعجاب ابنائه وتلاميذه ورواده وعشاقه اطال الله عمره بصحة وعافيه، لكي يختار لنا كتاباً اخر لأعادة تشكيل العقل الإسلامي الحر المتنور الذي ينطلق من حب التراث مع الاصرار على أن نقده للتراث ليس الا تجسيدهم لذلك الحب.

الاهداء

إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ
مصطفى عبد الرازق

أهدى هذا الكتاب ، تحيةً لمودّةٍ غاليةٍ دامت
عشرين عامًا ، فلم يزدها تقادُمُ العهدِ إلا قُوَّةً إلى
قُوَّةٍ وصفاءٍ إلى صفاءٍ ما

الخلاص
زكى مبارك

مصر الجديدة في { ٢٧ رجب سنة ١٣٥٤ هـ
٢٥ أكتوبر سنة ١٩٣٥ م

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا
إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ. فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ
فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة الكتاب

باسمك اللهم أفتح هذا الكتاب ، ومنك وحدك أنتظر
حسن الجزاء .

أما بعد : فهذا كتاب لم يكن ظهوره في الحسبان ، فهو في الأصل
باب من كتاب قدّمته إلى الجامعة المصرية عن « أثر التصوف في
الأدب والأخلاق » وألفت لدرسه لجنة مكونة من الدكتور منصور
فهمي ، والأستاذ مصطفى عبد الرازق ، والدكتور عبد الوهاب
عزام ، ورأت هذه اللجنة أن الباب الخاص بالمدائح النبوية خليق بأن
يظهر مستقلا عن الأصل بعض الاستقلال ، وكان هذا الاقتراح
فرصة تلتقيها في نشوة الجدلان ، لأنني كنت أشعر أن المدائح النبوية
في الأدب العربي تستأهل الظهور في كتاب خاص .

ومن الخير أن أصرح القارئ بأن هذه الفصول نسخت
نسخاً من الكتاب الأصيل ، فلم يحذف منها شيء ، ولم يضاف إليها
شيء ، لأنني قدمتها إلى المطبعة في أيام كانت كلها شواغل ، ولأنني
آثرت أن تظهر كما فاض بها القلب ، فلا يفسدها تأنيق ، ولا
يزورها تنميق .

والحق أنى لا أستطيع أبداً أن أكتب البحث الواحد مرتين ،
لأنى أنتزع أدبى من ثورة العقل والقلب ، وقد درست نفسى
مرات كثيرة : فرأيت السهم الأول أنفذ فى جميع الأحيان ،
ورأيت معاودة الصقل والتهديب ضرباً من الزخرف لا تسيفه
طبيعة فطرت على الثورة والافتحام .

وإنى لأعترف بأنى مأخوذ بنشوة النصر وأنا أقدم هذا
الكتاب إلى القراء ، فإ كنت أحسب أن الزمان سينصفنى هذا
الانصاف : فأكون أول من يرسم خصائص المدائح النبوية فى
الأدب العربى ، وهو موضوع كان يجب أن تعين رسومه
وحدوده منذ أزمان .

وقد تلقيت جزائى سلفاً على تحبير هذه الفصول ، فلن أنسى
ما حيت تلك التحيات الطيبات التى تلقيتها من الدكتور منصور
فهيمى ، والأستاذ مصطفى عبد الرازق ، والدكتور عبد الوهاب
عزام ، ومن قبل هذا أنست بموضوع البحث ، فكان ذلك
الأنس أفضل جزاء .

وأى أنس أعظم من شغل النفس بتلك الأقباس الروحانية
التي بثها نبي الإسلام فى أرجاء الوجود ؟

إن ذلك الروح القهار، روح الرجل الذى اتهمه معاصروه
بالشعر والسحر والجنون ، إن ذلك الروح هو شعلة أبدية ستظل
ما بقيت الأرض والسماء فتنة للعقول والقلوب ، وسيأتى زمان
يرتاب فيه الناس فى مكانة محمد بن عبد الله من التاريخ ، وسيقول
قوم إن شمائل ذلك الرجل أقوى وأخطر من أن يسمح بمثلها
الوجود ، وسيقولون إنه لم يكن إلا رمزا تمثل به الناس كيف
تكون مكارم الأخلاق .

إى والله ، سيقولون ذلك ، فلنسبqهم نحن بهذا القول مع
الاعتراف بأنه عرف هذه الدنيا وشهد هذا الوجود ، وأى
غرامة فى أن يخلق الله رجالا يمثلون العظمة الروحانية ، ويظلون
على الدهر مضرب الأمثال ؟

وقد كان حظ النبي محمد أوفى الحظوظ بين الرسل والأنبياء ،
فكل نبى قامت من حوله الأساطير ، وصُوِّرت شمائله بألوان
صينغ أكثرها من الخيال ، أما النبي محمد فحجته الباقية هى القرآن ،
وهو كتاب لم يضاف إليه سطر واحد بعد موت ذلك الرسول ،
فهو من الوثائق التاريخية التى ينذر أن يكون لها مثيل .

وإلى من نوجّه هذا القول ؟

أثرونا ندافع عن ذلك الكتاب المجيد ؟

ومن عسى أن يكون أعداء ذلك الكتاب ؟

وهل كان الملحدون إلا ناسا سخفاء طاشت حلومهم ، وظنوا

الزيف من البراقع التي تستر الغباوة والجهل ؟

ومن العجب أن نرى بين أعداء القرآن من يُعجَب بشعر

أبي نواس ، ويراه صالحا لأن يوضع في الميزان مع أكبر

شعراء اليونان .

فأين شعر أبي نواس كله من آية واحدة ستظل أعجوبة

البيان ، في جميع الأزمان ؟

وما أدري والله كيف يعقل من يهذى بمثل هذا القول ،

إلا أن يكون السخف صار من علائم التفوّق في هذا الزمن الرقيق !

إن أعداء القرآن لا يعادونه عن عقل ، وكيف يعقل من

يعادى البدر المشرق ، والجبل الركين ؟ إنها نزوات تطوف

برؤوس المعرورين الجبناء الذين توهموا أنه لم يبق للإسلام أوس

ولا خزرج ، وأن الوادي خلا من الأسد الفضاب ، ألا ساء

ما يتوهمون .

ومع ذلك سيذهب الملحدون مع الذاهيين ، وإن بقيت لهم
ذكرى فستكون صورة من صور إبليس ، فإن تعللوا بأن
الشهرة مغنم عظيم فليذكروا أن إبليس سيظل أشهر منهم ،
وإن قضوا طوال الأعمار في خدمة الإفك والضلال .

سيقول السفهاء من الناس : وما دخل هذا الكلام في
مقدمة كتاب المدائح النبوية ؟

ونجيب بأننا نصور حالة من أحوال هذا الزمان ، فنحن
لم نخلق أعداء نحاربهم ، وإنما نحارب أعداء نراهم رأى العين ،
وهم - والله - أحقر من أن نعرض لهم بنقد أو ملام ، ولكن
حقارتهم لاتمنع المؤمن من وخز صدورهم بلواذع الهجاء ، فقديما
كان الشيطان الرجيم ملعونا باللسنة المؤمنين .

وما الذى يمنع من حرب الزور والبهتان ؟

إن التورع عن لحوم الآثمين ليس إلا ضربا من الجبن ،
وبفضله استنسر البغاث ، وصار للآثمين أشياع وأحزاب .

ومن العجب فى مصر بلد العجائب : أن تحيا النيرة على
الأطلال ، وتموت النيرة على الحقائق ، فلواتهب حجر من

أحجار الكرنك لكان انتهابه نكبة وطنية ، وكان الصراخ لضياعه
عملا يثاب عليه من يحسن البكاء والعويل .

أما زعزعة الايمان في هذا البلد ، فهي أقلّ خطراً من
سقوط حجر أثريّ تحرسه وزارة الأشغال ، لأن رعاية الآثار
بدعة عصربة يعرفها الأوربيون ، والامريكان ، أما رعاية العقائد
فسنة قديمة سحب عليها الدهر ذيل النسيان .

وما أقول هذا تعصبا للدين - وهو تعصب شريف - وإنما
أقوله تعصبا لحقيقة أدبية تغار عليها الأذواق ، فليست الثقافة أن
نعرف أوهام المشرق والمغرب ، وإنما الثقافة أن نعرف ما يجب
أن يعرف ، وقد آن أن يفهم الغافلون أن الأمة التي يحفظ
أطفالها القرآن : هي أهدى من أمثال الأمة التي يحفظ أطفالها
أقاصيص لافونتين .

وما أقول هذه الحقيقة وحدي ، وإنما يعرفها خلق كثير
لا يصددهم عن الجهر بها إلا الخوف من الاتهام بالتعصب والرجعية ،
وهو اتهام لا أقيم له أيّ وزن ، لأن حزب الشيطان أضعف من
أن يحسب له حساب

وقرائى من غير المسلمين لايسيئهم هذا القول ، فليس القرآن ملكا للمسلمين ، وإنما هو ملك للإنسانية جمعاء ، وكذلك كانت التوراة وكان الانجيل ، وهل كانت الشرائع إلا موارد يفرع إليها الظماء فى عالم العقول ، والقلوب ، والأذواق ؟

ونعود إلى موضوع الكتاب ، فنقول :

كانت المدائح النبوية أول الأمر نوعاً من المدائح التى تجرى على الطرائق الجاهلية . وقد فصلنا ذلك فى الفصل الأول من الكتاب ، فعرضنا لدالية الأعشى ، ولامية كعب ، وقصائد حسان ، ثم تكلمنا عما وقع فى خطب على بن أبى طالب من المدائح ، وبيّنا كيف نشأ مدح أهل البيت ، وكيف ترعرع هذا الفن فى البيئات الإسلامية ، ثم خصصنا الكمية بدراسة وافية ، وهو شاعر خلّ شرع للشيعة مذاهب القول ، وعلمهم أساليب الجدل والحجاج ، وأتبعنا ذلك بفصل عن دعبل ، وهو شاعر خبيث اللسان ، ولكنه ترك لنا تائفة قليلة النظائر والأمثال ، ومضينا إلى قصائد الشريف الرضى فى صريع كربلاء ، وقصائد مهبّار فى أهل البيت ، فأعطينا القارئ فرصة يتعرف

فيها إلى طوائف من النوازع الروحية ، قلّ من اهتم بها
من الباحثين .

فلما وصلنا إلى البوصيرى ، وقفنا على آثاره وقفة طويلة ،
وحدثنا القارئ عما عنده من ضروب السحر والفتون ، ثم
تكلّمنا عن أثر البردة في اللغة العربية ، وأرينا القارئ كيف
انتهى فن المدائح النبوية إلى فن أدبي رفيع ، هو فن البديعيات ،
الذى أذاع في الناس ألواناً من الثقافة الأدبية ، وساقنا ذلك إلى
التحدث عن رجل شهير بين أصحاب البديعيات : هو ابن حجة
الحموى الذى أذاع أدب مصر والشام في القرن الثامن .

ثم تكلّمنا عن المدائح النبوية : في شعر ابن نباتة المصرى ،
وختمنا الكتاب بالكلام عن قصة المولد النبوى .

ذلك موضوع الكتاب الذى تقدمه إلى القراء فرحين
مغتبطين ، وليس فيه بحمد الله مانعذر عنه إلا الإيجاز ، وهو
عذر يقبله القارئ حين يتذكر أنه كان فى الأصل باباً
من كتاب .

ولنسارع فنحدث القارئ بأننا لم نرد الاستقصاء ، وإنما

اكتفينا بالكلام عن آثار الشعراء الفحول ، ولو أردنا التحدث
عن هذا الفن من جميع نواحيه لساقنا البحث إلى الكلام عن
ناس لم يكن لهم من الذوق الأدبي خلاق .

والله نسأل أن يتقبل هذا البحث الذي لم نرد به حين أنشأناه

غير وجهه الكريم

محمد زكي عبد السلام مبارك

الفصل الأول

نَسَاءُ المَدَائِحِ النبوية

الفرق بين المدح والرثاء — دالية الأعننى — لامية كعب
ابن زهير — مدائح حسان — مدائح على بن أبي طالب —
ميمية الفرزدق — مدح أهل البيت — النسيب في صدور
المدائح النبوية .

١ — المدائح النبوية من فنون الشعر التي أذاعها التصوف ، فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية ، وباب من الأدب الرفيع : لأنها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والاخلاص .

وأكثر المدائح النبوية قيل بعد وفاة الرسول . وما يقال بعد الوفاة يسمى رثاءً ، ولكنه في الرسول يسمى مدحاً ، كأنهم لحظوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم موصول الحياة ، وأنهم يخاطبونه كما يخاطبون الأحياء . وقد يمكن القول بأن الثناء على الميت لا يسمى رثاءً إلا إذا قيل في أعقاب الموت ، ولذلك نراهم يقولون : (قال حسان يرثي النبي صلى الله عليه وسلم) ليفرقوا بين حالين من الثناء : ما كان في حياة الرسول ، وما كان بعد موت الرسول ، بخلاف ما يقع من شاعر ولد بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم . فإن ثناءه عليه مديح لا رثاء ، لأنه لا موجب للتفرقة بين حال وحال ، ولأن الرثاء يُقصد به إعلان التحزن والتفجع ، على حين لا يراد بالمدائح النبوية إلا التقرب الى الله بنشر محاسن الدين ، والثناء على شمائل الرسول .

٢ - ولم يُمنَّ أحد من القدماء أو المحدثين بتاريخ هذا الفن في اللغة العربية ، لأن الذين أجادوه لم يكونوا في الأغلب من خول الشعراء ، ولأنه لم يطرّد في التاريخ ، ولم يكن فناً ظاهراً بين الفنون الشعرية ، كالرثاء ، والوصف ، والنسيب ، وإنما هو فنّ نشأ في البيئات الصوفية ، ولم يهتم به من غير المتصوفة إلا القليل ، غير أنه مع ذلك جدير بالدرس ، لأن فيه بدائع من القصائد والمقطوعات ، ولأن له شمائل غير شمائل المديح ، ولأن لأصحابه غايات دينية وأدبية خليقة بأن تدرس ، وبأن يرفع عنها إصر الحمول .

وسنحاول في هذا الكتاب تأريخ هذا الفن من بدء ظهوره إلى اليوم ، والاشادة بالشخصيات القوية التي نشرت أعلامه في تاريخ اللغة العربية ، وتحليل القصائد التي أثرت في البيئات الشعبية ، والكشف عما في آثار هذا الفن من الألفاظ والتعابير والمصطلحات . ولسنا نزعم أننا سنستقصى كل ما يتصل بهذا الفن ، فذلك يحتاج إلى مجلدات . وإنما نرجو أن نشعر القارئ بأننا كشفنا النقاب عن فن مجهول كان خليقاً بأن يشغل الباحثين في تاريخ الأدب ، ولكنهم انصرفوا عنه ، كما انصرفوا عن درس البلاغة الدينية ، مع أنه في جملة أبعاد من بعض ما شغلوا به كتشبيهات ابن المعتز ومدائح البحتري وخمريات أبي نواس .

٣ - من أقدم ما مدح به الرسول صلى الله عليه وسلم قصيدة الأعشى التي يقول في مطلعها :

أَلَمْ تَقْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةً أَرَمَدَا وَعَادَكَ مَا عَادَ السَّلِيمَ الْمُسَهَّدَا^(١)
وَمَا ذَاكَ مِنْ عِشْقِ النِّسَاءِ وَإِنَّمَا تَنَاسَيْتَ قَبْلَ الْيَوْمِ خُلَّةَ مَهْدَا^(٢)

(١) السليم : هو الملدوغ ، وإنما سمى بذلك تفاؤلاً له بالسلامة كما سميت الصحراء مفازة .

(٢) مهّد : من أسماء النساء ، والحلة بالضم : المودة والحب .

وَلَكِنْ أَرَى الدَّهْرَ الَّذِي هُوَ خَائِنٌ إِذَا أَصْلَحْتَ كَفَّاهُ عَادَ فَأَفْسَدَا
كُهُولًا وَشُبَّانًا فَقَدْتُ وَثَرَوْهَ فَلِلَّهِ هَذَا الدَّهْرُ كَيْفَ تَرَدَّدَا
وَمَا زِلْتُ أَبْنِي الْمَالَ مُذْ أَنَا يَابِغٌ وَلِيدًا وَكَهْلًا حِينَ شَبْتُ وَأُنْرِدَا
وفيها يقول لناقته :

قَالَيْتُ لَا أَرِثِي لَهَا مِنْ كِلَالَةٍ وَلَا مِنْ حَقِّي حَتَّى تَزُورَ مُحَمَّدًا
نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَذِكْرُهُ أَغَارَ لَعَمْرِي فِي الْبِلَادِ وَأُنْجَدَا
لَهُ صَدَقَاتٌ مَا نَغِبُ وَنَائِلٌ وَلَيْسَ عَطَاءُ الْيَوْمِ مَانِعُهُ غَدَا
مَتَى مَا تُنَاجِحِي عِنْدَ بَابِ ابْنِ هَاشِمٍ تُرَاجِحِي وَتَلْقِي مِنْ فَوَاضِلِهِ نَدَى
ولكن هذا ليس من المدائح النبوية : أى ليس من الفن الذى ندرسه فى هذا
الكتاب ، لأن الأعشى لم يقل هذا الشعر وهو صادق النية فى مدح الرسول ،
ولأنما كانت محاولة أراد بها التقرب من نبي الاسلام ، وآية ذلك أنه انصرف
حين صرفه قريش ، ولو كان صادقاً ما تحول : فقد حدثوا أن قريشاً رصدوه
على طريقه حين بلغهم خبره وسألوه أين يريد ؟ فأخبرهم أنه يريد محمداً ليسلم ،
فأفهموه أنه ينهائهم عن الزنا والقمار والربا والحمر ، فقال : لقد تركنى الزنا وما
تركته ، وأبدى زهادته فى القمار ، رجاء أن يصيب من النبي عوضاً منه ، وقال
عن الربا : ما دنت ولا اددت .

وأبدى جزعه عند ذكر الحمر وقال : أَوْه ! أرجع إلى صُبابة قد بقيت لى
فى المهراس فأشربها .

فقال له أبو سفيان : هل لك فى خير مما هممت به ؟ قال : وما هو ؟ قال :
نحن الآن فى هدنة فتأخذ مائة من الابل وترجع إلى بلدك سنتك هذه ، وتنظر

ما يصير إليه أمرنا ، فإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت خلفاً ، وإن ظهر علينا أتيتته ، فقال : ما أكره ذلك !

وجمع له أبو سفيان من قریش مائة ناقة ، فأخذها وانطلق إلى بلده ، فلما كان بقاع منفوخة ^(١) رمى به بيده فقتله ^(٢) .

وهذه القصة تدل على أن مدحه للرسول لم يكن إلا محاولة كسائر محاولات الشعراء الذين يتكسبون بالمديح ، وليست قصيدته أثراً لعاطفة دينية قوية حتى تلحق بالمدايح النبوية .

٤ — وكذلك الحال في قصيدة (بانت سعاد) التي قالها كعب بن زهير في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، فانها لم تنظم إلا في سبيل النجاة من القتل . وحديث ذلك أن كعباً خرج هو وأخوه بجير إلى رسول الله حتى بلغا أبرق العزاف ^(٣) ، فقال كعب لبجير : الحق الرجل ، وأنا مقيم ههنا ، فانظر ما يقول لك ؟ فقدم بجير على رسول الله فسمع منه وأسلم ، وبلغ ذلك كعباً فقال :

مَنْ مُبْلَغٌ عَنِّي بُجَيْرًا رِسَالَةً فَهَلْ لَكَ فِيمَا قُلْتَ بِالْخَيْفِ هَلْ لَكَ
شَرِبْتَ مَعَ الْمَأْمُونِ كَأْسًا رَوِيَّةً فَأَنْتَ لَكَ الْمَأْمُونُ مِنْهَا وَعَلَّكَ
وَخَالَفْتَ أَسْبَابَ الْهُدَى وَاتَّبَعْتَهُ عَلَى أَىِّ شَيْءٍ وَيَبْ غَيْرِكَ ذَلِكَ

- (١) قرية باليمامة . (٢) راجع مذهب الأغا ج ١ ص ١٦٣ .
(٣) أبرق العزاف : ماء لبنى أسد بن خزيمة ، وهو في طريق القاصد إلى المدينة من البصرة . قالوا : ولما سمى العزاف لأنهم يسمعون فيه عزيف الجن .
(٤) المأْمُون هو النبي . والشاعر يتهم ، والنهل بالتحريك : الشرب الأول ، والعلل : الشرب الثاني
(٥) ويب كويل . قول : وبك ويب لك ، ويب لزيد ، وويباً له ، ويب غيره . ومعنى السكل : ألزمه الله ويلاً (القاموس المحيط) .

عَلَى خُلُقٍ لَمْ تُلَفِ أُمًّا وَلَا أَبَا عَلَيْهِ وَلَمْ تُذَرِكْ عَلَيْهِ أَحًا لَكَا
فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَقْمَلْ فَلَسْتُ بِأَسِفٍ وَلَا قَائِلٍ إِمَّا عَثَرْتَ لَمَّا لَكَا^(١)
وبعث بها إلى بجير ، فكره أن يكتبها رسول الله ، فأنشده إياها ، ثم قال بجير
لكعب :

مَنْ مَبْلُغٌ كَعْبًا فَهَلْ لَكَ فِي الْتِي تَلُومُ عَلَيْهَا بَاطِلًا وَهِيَ أَحْزَمُ
إِلَى اللَّهِ لَا الْمَرْءِ وَلَا اللَّاتِ وَحْدَهُ فَتَنْجُو إِذَا كَانَ النَّجَاءُ وَتَسْلَمُ
لَدَيْ يَوْمٍ لَا يَنْجُو وَلَيْسَ بِمُفْلِتٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا طَاهِرُ الْقَلْبِ مُسْلِمُ
فَدَيْنُ زُهَيْرٍ وَهُوَ لَا شَيْءَ دِينُهُ وَدَيْنُ أَبِي سُلَيْمٍ عَلَى مُحَرَّمُ

فلما بلغ كعباً الكتاب ضاقت به الأرض ، وأشفق على نفسه ، وأرجف به من
كان في حاضره من عدوه ، فقالوا : هو مقتول . فلما لم يجد من شيء بدا قال
قصيدته التي يمدح فيها الرسول ، ثم خرج حتى قدم المدينة ، فنزل على رجل من
جهينة ، فغدا به إلى رسول الله حين صلى الصبح ، فصلى معه ، ثم أشار له إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هذا رسول الله ، قم إليه فاستأمنه . فقام
حتى جلس إليه فوضع يده في يده ، وكان رسول الله لا يعرفه ، فقال : يا رسول
الله ! إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً ، فهل أنت قابل منه
إن أنا جئت بك به ؟ فقال رسول الله : نعم ! فقال : أنا ، يا رسول الله ، كعب بن
زهير ! ثم أنشده القصيدة^(٢) .

(١) لَمَّا لَكَ : دعاء بالانتعاش ، قال الأعشى :

بذات لوث عفناة إذا عثرت فالتص أدنى لها من أن أقول لَمَّا

(٢) انظر مذهب الأغاني ج ١ ص ١٦٤ .

وهذه الظروف ترىنا أن كعب بن زهير لم يقل لاميته وهو مأخوذ بماطفة دينية قوية ، تسمو به إلى روح التصوف ، إنما هي قصيدة من قصائد المديح ، يقولها الرجل حين يرجو أو يخاف ، وليست من المدائح النبوية في شيء .

٥ - تقع لامية كعب في ثمانية وخمسين بيتاً ، وهي من الشعر المحكم الرصين - وإن خلت من قوة الروح - وتجرى على التقاليد الأدبية لشعراء الجاهلية ، فيبدوها الشاعر بهذا النسب :

بَانَتْ سُمَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَقْبُولٌ	مُتَيَّمٌ لِإِثْرَهَا لَمْ يَفْدَ مَقْبُولٌ
وَمَا سُمَادُ غَدَاةَ الْيَمِينِ إِذْ رَحَلُوا	إِلَّا أَعْنُ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولٌ
هَيْفَاءُ مُقْبِلَةٍ نَجْزَاءُ مُدْبِرَةٍ	لَا يُشْكِي قَصْرُ مِنْهَا وَلَا طَوْلُ
تَجْلُو عَوَارِضَ ذِي ظَلَمٍ إِذَا بَنَسَمَتْ	كَأَنَّهُ مُنْهَلٌ بِالرَّاحِ مَقْبُولٌ ^(١)
أَكْرَمَ بِهَا خَلَّةٌ لَوْ أَنَّهَا صَدَقَتْ	مَوْعُودَهَا أَوْ لَوْ أَنَّ النُّصْحَ مَقْبُولُ
لَكِنَّهَا خَلَّةٌ قَدْ سَيِّطَ مِنْ دَهَا	نَجْمٌ وَوَلَعٌ وَإِخْلَافٌ وَتَبْدِيلٌ ^(٢)
فَمَا تَدُومُ عَلَى حَالٍ تَكُونُ بِهَا	كَمَا تَلَوْنُ فِي أَثْوَابِهَا النُّوْلُ
وَلَا تَمْسِكُ بِالْعَهْدِ الَّذِي زَعَمْتَ	إِلَّا كَمَا يُمَسِّكُ الْمَاءُ الْفَرَائِلُ
فَلَا يَفْرُكُ مَا مَنَنْتَ وَمَا وَعَدْتَ	إِنَّ الْأَمَانِيَّ وَالْأَخْلَامَ تَضْلِيلُ
كَأَنْتَ مَوَاعِيدُ عُرُوبٍ لَهَا مَثَلًا	وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا الْأَبَاطِيلُ
أَرْجُو وَأَمُلُ أَنْ تَذْنُو مَوَدَّتِهَا	وَمَا إِخَالُ لَدَيْنَا مِنْكَ تَنْوِيلُ

(١) الظلم كأنه ظلمة تركب متون الأسنان من شدة الصفاء ، والنهل بالتحريك : الشرب الأول والعلل الشرب الثاني .

(٢) سيط : مزج .

أَمْسَتْ سَعَادُ بِأَرْضٍ لَا يَمْلِكُهَا إِلَّا الْعِتَاقُ النَّجِيبَاتُ الْمَرَّاسِيلُ^(١)

وهنا ينتقل فيصف الناقة وصفاً مفصلاً يذكر بدالية طرفة بن العبد ، وهو في ذلك يتابع ما كان معروفاً لذلك العهد من التقاليد الشعرية ، إلى أن يقول في مدح الرسول :

وَقَالَ كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ أَمْلُهُ لَا أَهْيَيْتُكَ إِنِّي عَنْكَ مَشْفُوعُ
فَقُلْتُ خَلَوْا سَبِيلِي لَا أَبَا لَكُمْ فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولُ^(٢)
كُلُّ ابْنِ أُنْفَى وَإِنْ طَلَّاتِ سَلَامَتُهُ يَوْمًا عَلَى آلَةٍ حَدْبَاءَ مَحْمُولُ
أُنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْفَقْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ
مَهْلًا هَذَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الْقُرْآنِ فِيهَا مَوَاعِظٌ وَتَفْصِيلُ
لَا تَأْخُذَنِّي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ أَذْنِبْ وَإِنْ كَثُرَتْ فِي الْأَقَاوِيلُ

ويقول بعد أبيات :

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ وَصَارِمٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ مَسْلُوعُ
فِي عُضْبَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَاتِلُهُمْ بَيْطُنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُولُوا
زَالُوا فَازَالَ أَنْكَاسُهُ وَلَا كُشِفَتْ عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مِيلٌ مَعَاذِيلُ^(٣)
شُمُّ الْعَرَانِينَ أَبْطَالٌ لِبُؤْسِهِمْ مِنْ نَسَجِ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا سَرَائِيلُ^(٤)

(١) العتاق : النوق النجبية ، والمراسيل جمع مرسال ، وهي الناقة السهلة السير .

(٢) لا أبأ لك ، ولا أبأ نغيرك ، ولا أبأ لشائك ، يقولونه في الحث ، حتى أمر بعضهم لجفائه بقوله :

* أمطر علينا الغيث لا أبأ لك * ويقال : لعمر أبيك ، ولعمر أبي سواك (راجع أساس البلاغة)

(٣) الميل : جمع أميل ، وهو من يميل على السرج والجان ، والمعازيل جمع معزال ، وهو من لارمح معه .

(٤) العرايين : جمع عرين ، وهو الأنثى .

لَا يَفْرَحُونَ إِذَا نَالَتْ رِمَاحُهُمْ قَوْمًا وَلَيْسُوا بِمَجَازِيعًا إِذَا نَبِلُوا
يَعْمُشُونَ مَشَى الْجِمَالِ الزُّهْرِ بَعَصِيهِمْ ضَرْبُ إِذَا عَرَدَ السُّودُ التَّنَائِيلُ^(١)
لَا يَقَعُ الطَّمَنُ إِلَّا فِي مُحُورِهِمْ وَمَا لَهُمْ عَنْ حِيَاضِ الْمَوْتِ تَهْلِيلُ

وقد نظرت طويلا في هذه القصيدة فلم أر غير ما قررت ، فهي قصيدة جاهلية تغلب عليها قوة السبك ، ولكنها تكاد تخلو من روح الدين ، ولا غرابة في ذلك ، فان كعب بن زهير لم يمدح الرسول إلا لينجو من الموت ، ومن كان في مثل حاله لا ينتظر منه صدق الثناء

٦ - والذي نقول به في هذه القصيدة لم يقل به أحد من المتقدمين ، فقد اهتموا بها اهتماماً عظيماً ، وعدوها من أجل ما قيل في مدح الرسول ، وعُني بها الشعراء فشطروها وخمسوها وعارضوها ، وأولع بشرحها فريق من كبار الرجال :

فمن الذين شطروها عبد القادر سعيد الرافعي ، وأول تشطيره :

بَانَ سَعَادُ قَفْلِي الْيَوْمَ مَتَبُولُ وَالنَّوْمُ وَالشَّهْدُ مَقْطُوعٌ وَمَوْصُولُ
وَالْجَنَمُ بَعْدَ سَعَادٍ مُدْنَفٌ وَصِيبُ مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفَدَ مَكْبُولُ

ومن الذين خمسوها شعبان بن محمد بن داود المصري المتوفى سنة ٨٢٨ وله ثلاثة تخاميس ، مطلع التخميس الثاني :

(١) التعريد : الهرب . قال الزنجبني في الأساس (وسمعت في طريق مكة صيا من العرب يقول وقد اتحنى عليه بعير : ضربته فرعد عني ، وعرد النجم : غار ، قال حاتم .
وناذلة هبت بليس تلومني وقد غاب عيوق السماء وعردا
وعرد الماء : تلمس . قال رؤبة : * ومنهل معرد الجلام *

قل للعواذل مهما شئتمو قولوا فليس لى بعد من أهواء معقول
ناديت يوم النوى والدمع مسبول

بانت سعاد . . .

وأحمد بن محمد الجرجاوى . ومطلع قصيدته :

قَلْبِي عَلَى حُبِّ مَنْ أَهْوَاهُ مَجْبُولٌ وَنَقْلُ شَوْقِي لَدَى الْعُشَّاقِ مَقْبُولٌ^(١)

ومن الذين شرحوها مسعود بن حسن بكرى القنائى ، واسم شرحه (الاسعاد ،
حل نظم بانت سعاد) ومحمد صالح السباعى ، واسم شرحه (بلوغ المراد ، على بانت
سعاد) وأحمد بن محمد البينى ، واسم شرحه (الجوهر الوقاد ، فى شرح بانت سعاد)
وابن هشام الأنصارى ، وقد رأينا شرحه يدرس فى الأزهر غير مرة ، فقد صيّر
(بانت سعاد) مادة صالحة للفوائد اللغوية والنحوية . واعتمد الناصرى على
هذا الشرح . وشرحها عطاء الله بن أحمد مرتين ، اسم الشرح الأول (حسن
السير ، بقصيدة كعب بن زهير) واسم الثانى (طريق الرشاد ، إلى تحقيق
بانت سعاد) وعلى بن سلطان الهروى ، واسم شرحه (فتح باب الاسعاد ، فى
شرح بانت سعاد) ومحمد حسن المرصنى واسم شرحه (القول المراد ، من بانت
سعاد) وجمال الدين السيوطى ، واسم شرحه (كنه المراد ، فى شرح بانت سعاد)
ومن الذين عارضوها ابن نباتة المصرى ، ومطلع قصيدته :

مَا الظَّرْفُ بِمَدِّكُمْ بِالنَّوْمِ مَكْحُولٌ هَذَا وَكُمْ يَدْنَتَانِ مِنْ رَبِّكُمْ مِيلٌ^٢

وابن سيد الناس اليعمرى ، واسم قصيدته (عدة المعاد ، فى عروض بانت سعاد)
والمطلع :

(١) وفى دار الكتب المصرية : تخميس مشروح لم يعرف مؤلفه (رقم ١٥٦٥ أدب) .

قُلِّي بِكُمْ يَا أَهْلَ الْحَيِّ مَأْهُولُ وَحَبْلُهُ بِأَمَانِي الْوَصْلِ مَوْصُولُ
وعارضها أبو حيان الأندلسي بقصيدة سماها (المورد العذب ، في معارضة قصيدة
كعب) والمطلع :

لَا تَعْدُلَاهُ فَادُّوهُ الْحُبُّ مَعْدُولُ الْعَقْلُ مُخْتَبَلُ وَالْقَلْبُ مَسْبُولُ

وعارضها أيضاً القاضي محي الدين بن عبد الظاهر ، ثم قال :

لَقَدْ قَالَ كَعْبٌ فِي النَّبِيِّ قَصِيدَةً وَقُلْنَا عَمَى فِي مَدْحِهِ نَتَشَارَكُ
فَإِنْ شَمِلْتَنَا بِالْجَوَائِزِ رَحْمَةً كَرَّمَتْ كَعْبٍ فَهُوَ كَعْبٌ مُبَارَكُ

وتوارث المسلمون احترام قصيدة كعب ، حتى قال أبو جعفر الألبرى « حدثني
بعض أسيادنا بالاسكندرية بإسناده أن بعض العلماء كان لا يفتح مجلسه إلا
بقصيدة كعب ، ف قيل له في ذلك ، فقال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فقلت : يا رسول الله قصيدة كعب انشدها بين يديك ؟ فقال : نعم ، وأنا أحبها
وأحب من أحبها . قال : فعاهدت الله أني لا أدخل من قراءتها كل يوم » .

قال أبو جعفر : « ولم تزل الشعراء من ذلك الوقت إلى الآن ينسجون على
منوالها ، ويقتدون بأقوالها ، تبركا بمن أنشدت بين يديه ، ونسب مدحها إليه ^(١) » .
واهتم بها المستشرقون ، فترجمها رنيه باسيه إلى الفرنسية ، واهتم الدكتور
ر . و بترجمة حاشية الباجوري إلى الفرنسية . وكذلك شغلت الشراح
والناسخين والطابعين في الشرق والغرب .

ويمكن الحكم بأن شهرتها في البيئات الأدبية والدينية تقشت اسمها في
ذهن كل من شدا في الأدب والدين .

ومن الواضح أن تلك الرؤيا النبوية لا تدل على شيء أكثر من اهتمام المتصوفين بتلك القصيدة، وإيمانهم بأنها ظفرت من الرسول بأحسن القبول .
وجملة ما كتب في شرح قصيدة كعب ، وما قيل في تشطيرها وتخييسها ، يبين أثرها في اللغة والأدب ، ولولا ما في ألفاظها من الوعورة لشاعت في البيئات الصوفية ، وأصبحت من جملة الأوراد ، وكان لها ما صار للبردة من السيرة بين العوام والخواص .

ومن أسباب وقوفها عند الدوائر الأدبية واللغوية ما جاء فيها من الوصف المطول للناقة ، فانه من المعاني « المحلية » التي لا يتذوقها غير الأعراب .

٧ - ويأتي بعد شعر الأعشى وشعر كعب شعر حسان بن ثابت ، وهذا الرجل كان أكبر شعراء الرسول ، ويمتاز بالصدق والاخلاص ، ولكن شعره على قوة روحه لا يكاد يضاف إلى المدائح النبوية التي ندرسها في هذا الكتاب ، فقد كان يمدح الرسول ويقارع خصومه على الطرائق الجاهلية ، وكان الرسول أوصاه أن يتعلم الأنساب من أبي بكر ليكون شعره أوجع في الهجاء ، وكذلك استطاع بفضل ما عرف من أنساب قريش أن يهجوهم هجاء موجعا كان النبي يراه أشد عليهم من وقع النبل .

وأقوى قصيدة في مدائح حسان هي العينية ، والظرف الذي قيلت فيه يمين مذهب الشاعر : فهو يقارع الخصوم ويلاحهم ، ويتخذ مدح الرسول ومدح أهله سناداً لما عمد إليه من المقارعة والملاحاة . ومن حديث هذه العينية أن وفد تميم لما قدموا على النبي قالوا: جئنا لنفاخرك ، وقد جئنا بشاعرنا وخطيبنا ، فقام خطيبهم عطار بن حاجب فتكلم ، وقام خطيب الرسول ثابت بن قيس فأجاب ، ثم قام شاعرهم الزبرقان بن بدر فقال :

نَحْنُ السَّكِرَامُ فَلَا حَيَّ يُعَادِلُنَا
وَكَمْ قَسَرْنَا مِنَ الْأَحْيَاءِ كُلَّهُمْ
وَنَحْنُ نَطْعِمُ عِنْدَ الْقَحْطِ مَطْعَمَنَا
ثُمَّ تَرَى النَّاسَ تَأْتِينَا سَرَائِهِمْ
فَنَنْحَرُ السُّكُومَ عَبْطًا فِي أُرُومَتِنَا
فَلَا تَرَانَا إِلَى حَيٍّ تُفَاخِرُهُمْ
إِنَّا أَيْنُنَا وَلَا يَأْنِي لَنَا أَحَدٌ
فَنَنْقَادِرُنَا فِي ذَاكَ يَعْرِفُنَا

فقام حسان فقال :

إِنَّ الدُّوَائِبَ مِنْ فِيهِ وَإِخْوَتِهِمْ
يَرْضَى بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ
قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمْ
سَجِيَّةٌ تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحَدَّثَةٍ
لَا يَرْفَعُ النَّاسُ مَا أَوْهَتْ أَكْفُهُمْ
إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ سَبَاقُونَ بَعْدَهُمْ
وَلَا يَضُنُّونَ عَنْ مَوْلَى بِفَضْلِهِمْ

قَدْ يَبْنُونَ سُنَّةً لِلنَّاسِ تُبْنَعُ
تَقْوَى الْإِلَهِ وَالْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ شَرَعُوا
أَوْ حَاوَلُوا النِّفْعَ فِي أَشْيَاءِهِمْ نَفَعُوا
إِنَّ الْخَلَائِقَ قَاعِلَمَ شَرُّهَا الْبِدْعُ
عِنْدَ الدَّفَاعِ وَلَا يُوهُونَ مَا رَقَعُوا
فَكُلُّ سَبَقٍ لِأَذْنَى سَبَقِهِمْ تَبَعُ
وَلَا يُصِيبُهُمْ فِي مَطْمَعٍ طَبَعُ

(١) الرِّبع : ويقال أيضاً الرباع . يراد به ربع الغنيمة ، وهو نصيب الرئيس دون أصحابه ممن يَكْسِبُونَ الحرب .

(٢) قَسَرْنَا : قهرنا ، والتهاب جمع نهب ، وهو النخبة .

(٣) القزع : النجم .

(٤) السُّكُوم : جمع كوما ، وهي الناقة الضخمة السنام ، والنحر عبطا هو النحر من غير علة ، والأرومة : الأصل .

(٥) استقادوا : أعطوا مقاديرهم وخضعوا .

لَا يَجْهَلُونَ وَإِنْ خَافُوا جَهَنَّمَ
أَعْفَتْ ذُكْرَتِ فِي الْوَحْيِ عَفْوَهُمْ
كَمْ مِنْ صَدِيقٍ لَهُمْ نَالُوا كَرَامَتَهُ
أَعْطَوْا نَبِيَّ الْهُدَى وَالْبِرِّ طَاعَتَهُمْ
إِنْ قَالَ سِيرُوا أَجِدُوا السَّيْرَ جَهَنَّمَ
مَا زَالَ سَيْرُهُمْ حَتَّى اسْتَقَادَ لَهُمْ
خُذْ مِنْهُمْ مَا أَتَى عَفْوًا إِذَا غَضِبُوا
فَإِنْ فِي حَزَبِهِمْ - فَأَتْرُكْ عَدَاوَتَهُمْ -
نَسْمُوا إِذَا الْحَرْبُ نَالَتْهَا تَحَالِيهَا
لَا تَخَفْ إِنْ هُمْ أَصَابُوا مِنْ عَدُوِّهِمْ
كَأَنَّهُمْ فِي الْوَعْيِ وَالْمَوْتِ مُكْتَسِعٌ
إِذَا نَصَبْنَا لِقَوْمٍ لَا نَدْبُ لَهُمْ
أَكْرِمَ بِقَوْمٍ رَسُولِ اللَّهِ شَيْعَتَهُمْ
أَهْدَى لَهُمْ مَدْحَى قَلْبٍ يُؤَازِرُهُ
فَإِنَّهُمْ أَفْضَلُ الْأَحْيَاءِ كُلِّهِمْ

فِي فَضْلِ أَخْلَامِهِمْ عَنْ ذَلِكَ مُتَّسِعٌ
لَا يَطْبَعُونَ وَلَا يُزْدِيهِمُ الطَّمَعُ (١)
وَمِنْ عَدُوٍّ عَلَيْهِمْ جَاهِدِ جَدَّعُوا (٢)
فَمَا وَنَى نَصْرُهُمْ عَنْهُ وَمَا نَزَعُوا
أَوْ قَالَ عُوْجُوا عَلَيْنَا سَاعَةً رَبَّعُوا (٣)
أَهْلُ الصَّلِيبِ وَمَنْ كَانَتْ لَهُ الْبَيْعُ
وَلَا يَكُنْ هَمَّكَ الْأَمْرُ الَّذِي مَنَعُوا
شَرًّا يُخَاضُ عَلَيْهِ الصَّابُ وَالسَّلْعُ (٤)
إِذَا الزَّمَانُ مِنْ أَظْفَارِهَا خَشَعُوا
وَإِنْ أَصِيبُوا فَلَا خَوْرٌ وَلَا جُرْعُ
أُسْدُ بَيْشَةٍ فِي أَرْسَائِهَا فَدَعَّ (٥)
كَمَا يَدْبُ إِلَى الْوَحْشِيَّةِ الدَّرْعُ (٦)
إِذَا تَفَرَّقَتِ الْأَهْوَاءُ وَالشَّيْبُ
فِيَا يُحِبُّ لِسَانُ حَائِكُ صَنَعُ
إِنْ جَدَّ بِالنَّاسِ جِدُّ الْقَوْلِ أَوْ شَمَعُوا (٧)

وهذه القصيدة تمجيد لأتباع الرسول ، والشاعر مدفوع إليها بقوة العصبية ،
وليس فيها من روح الدين إلا إشارته إلى وحي القلب ، إذ يقول :

(١) لا يطبعون : من الطبع بالتحريك . وهو دنس الأخلاق . (٢) من الجدع : وهو القطع .

(٣) ربعوا : أقاموا . (٤) الصاب والسلع من الأشجار المرة مذاق .

(٥) مكنت : قريب ، والفتح بالتحريك : الليل .

(٦) الدرع : ولد البقرة الوحشية . (٧) شمعوا : مزحوا .

أَهْدَى لَهُمْ مَدْحِي قَلْبٌ يُؤَازِرُهُ فِيمَا يُحِبُّ لِسَانٌ حَائِكٌ صَنَعُ

٨ - ومن جيد شعر حسان قصيدته الحمزية في مدح الرسول وهجاء أبي سفيان ، وهي كذلك تجرى على الطرائق الجاهلية ، يبدوها الشاعر بذكرى الديار الخالية ، فيقول :

عَفَتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجَوَاءُ إِلَى عَذْرَاءَ مَنْزِلِهَا خَلَاءُ^(١)

دِيَارُ مِنْ بَنَى الْحَسْحَاسِ قَفْرُ تَمَفِّمِهَا الرِّوَامِسُ وَالسَّمَاءُ^(٢)

وَكَاثَتْ لَا يَزَالُ بِهَا أَنْيْسُ خِلَالَ مُرُوجِهَا نَعْمٌ وَشَاءُ

وينتقل إلى الحديث عن طيف محبوبته ، فيقول :

فَدَعُ هَذَا وَلَكِنْ مَنْ لَطِيفِ يُورِّقُنِي إِذَا ذَهَبَ الْعِشَاءُ

لِشَعْمَاءِ الَّتِي قَدْ تَبَمَّتْهُ فَلَيْسَ لِقَلْبِهِ مِنْهَا شِفَاءُ

كَأَنَّ سَبِيحَةَ مِنْ بَيْتِ رَأْسِ يَكُونُ زِاجِهَا عَسَلٌ وَمَاءُ^(٣)

عَلَى أَنْيَابِهَا أَوْ طَعْمٌ غَضٍّ مِنْ الثَّفَاحِ هَصْرُهُ أَجْنَاءُ

إِذَا مَا الْأَثَرِ بَاتُ ذُكْرَنْ يَوْمًا فَهَنْ لَطِيبِ الرَّاحِ الْفِدَاءُ

نُؤْلِيهَا الْمَلَامَةَ إِنْ أَلَمْنَا إِذَا مَا كَانَ مَقْتُ أَوْ لِحَاءُ^(٤)

وَنَشْرِبُهَا فَتَتْرَكُنَا مُلُوكًا وَأَسَدًا مَا يُتَنَهَّنُهَا اللَّقَاءُ^(٥)

(١) ذات الأصابع ، والجواء : وعذراء ، أسماء مواضع بالشام .

(٢) الروامس : الرياح التي تثير التراب فتطمس به الآثار .

(٣) السبيحة : الخمر ، وبيت رأس : موضع بالأردن مشهور بالخمر .

(٤) ألام الرجل : فعل ما يلام عليه ، والمقت : القتال ، واللحاء : السباب .

(٥) تنهه اللقاء : أخانه ، والتنهية في الأصل : الزجر .

وهذا الاستطراد من النسب إلى الخمريات كان معروفاً في الجاهلية ، وقد وقع مثله في لامية كعب التي مدح بها الرسول ، ولنا أن نلاحظ أن هذين الشاعرين لم يغيّرا شيئاً من المذاهب الشعرية حين خاطبا النبي صلى الله عليه وسلم ولم يتورعا عن ذكر الخمر والنساء ، والتحسر على ملاعب الشباب .

وليس هذا بغريب ، فإن المذاهب الأدبية لا تتغير في عام أو عامين ، ومن الاسراف أن نتظر ذلك ، فسرى حين يمتد بنا البحث أن الكلام عن الخمر والنساء سيصير من المؤلف في المدائح النبوية ، غير أنه كان عند هذين الشاعرين من الحقائق ، وسيصير عند المتأخرين من الرمزيات ، فشعنا وسعاد في همزية حسان ولامية كعب - سناوان كان لهما وجود ، والخمر كانت مما عرف هذان الشاعران ، ولو في الجاهلية ، أما عند المتأخرين من شعراء الصوفية فليلى أو شعنا أو سعاد ، والصهباء أو الشمول ، كل أولئك من الأسماء الرمزية ، وأثر الحقيقة هنا ليس أقوى من أثر الخيال هناك .

وانتقل حسان إلى تهديد أعداء النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال :

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِن لَمْ تَرَوْهَا	تُثِيرُ النَّقَمَ مَوْعِدُهَا كُدَاهُ ^(١)
يُبَارِينَ الْأَعْنَةَ مُضْمِدَاتٍ	عَلَى أَكْتَاْفَهَا الْأَسْلُ الظَّمَاءُ ^(٢)
تَنْظُلُ جِيَادُنَا مُتَمَطَّرَاتٍ	تُلَطِّمُهُنَّ بِالْخُمْرِ النَّسَاءُ ^(٣)
فَإِمَّا تُعْرِضُوا عَنَّا أَعْتَمَرْنَا	وَكَانَ الْفَتْحُ وَأُنْكَشَفَ الْغِطَاءُ
وَالْأَفْأَصِبْرُوا لِلْجِلَادِ يَوْمَ	يُعِزُّ اللَّهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ ^(٤)

(١) كداه : النية العليا بمكة . (٢) الأسل : الرماح .

(٣) متطرات : مسرعات . الخمر : جمع خمار . (٤) الجلاذ : القتال .

وَجِبْرِيلُ رَسُولُ اللَّهِ فِيْنَا وَرُوحُ الْقُدُسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ
وَقَالَ اللَّهُ قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدًا يَقُولُ الْحَقَّ إِنْ نَفَعَ الْبَلَاءُ
شَهِدْتُ بِهِ فَقُومُوا صَدِّقُوهُ فَقُلْتُمْ لَا نَقُومُ وَلَا نَشَاءُ
وَقَالَ اللَّهُ قَدْ سَيَّرْتُ جُنْدًا هُمْ الْأَنْصَارُ عُرَضَتْهَا الْفَقَاءُ^(١)
لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ سِبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءُ
فَنُحْكِمُ بِالْقَوَافِي مَنْ هَجَانَا وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدَّمَاءُ^(٢)
أَلَا أُبْلِغُ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي مُغْلَغَلَةً فَقَدْ بَرَحَ الْخَفَاءُ^(٣)
بِأَنَّ سُيُوفَنَا تَرَكْنَكَ عَبْدًا وَعَبْدُ الدَّارِ سَادَتُهَا الْإِمَاءُ^(٤)
هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ
أَتَهْجُوهُ وَلَسْتُ لَهُ بِكَفٍّ فَشَرُّكُمْ أَلْحَيْرُكُمْ الْفِدَاءُ
هَجَوْتَ مُبَارَكًا بَرًّا حَنِيفًا أَمِينُ اللَّهِ شَيْمَتُهُ الْوَفَاءُ
فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ
فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ

وهنا تظهر بوادر التصوف ، فالشاعر كان ينتظر الجزاء من الله حين أجاب عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويجعل أباه وجدّه وعرضه وقاء لعرض النبي من خصومه الألداء ، وكذلك يمكن عدّ هذه القصيدة من بذور المدائح النبوية .

(١) عرضتها الفقاء : أى همتها وغازيتها مقاتلة الأعداء .

(٢) نَحْكِمُ : من الإحكام ، وهو النع ، قال جرير :

أبى حنيفة أحكموا سفهاءكم إني أخاف عليكم أن أغضبوا

(٣) المغلغلة : الرسالة تحمل من بلد إلى بلد ، وبرح الخفاء : أى ظهر الأمر وانكشف .

(٤) عبد الدار : بطن من قريش .

٩ - وفي ديوان حسان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة هو وأبو بكر، ومولى أبي بكر عامر بن فهيرة، ودليلهم الليثي عبد الله بن الأريقط مروا على خيمتي أم معبد الخزاعية، وكانت امرأة بَرْزَة^(١) تحبني بفناء قبتها، ثم تسقى وتطعم فسألوها تمراً ولحماً ليشتروا منها فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك، وكان القوم مرملين مستنين^(٢) فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاة في كسر الخيمة فقال: ماهذه الشاة يا أم معبد؟ قالت شاة خلفها الجهد عن النعم. قال: هل لها من لبن؟ قالت هي أجهد من ذلك. قال: أتأذنين لي أن أحلبها؟ قالت: نعم، بأبي أنت وأمي إن رأيت بها حلباً فاحلبها، فدعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومسح يده ضرعها وسمى الله تعالى، ودعا لها في شأنها فتفاجأت^(٣) عليه، ودرت واجترت، ودعا باناء رُبض الرهط فحلب فيه حتى علاه البهاء^(٤) ثم سقاها حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا، وشرب آخرهم، ثم أراضوا^(٥)، ثم حلب فيه ثانياً بعد بدء حتى امتلأ الاناء ثم غادره عندها، وارتحلوا عنها، فمالبت حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق أعزاً عجافاً، تساوك^(٦) هزالاً، يخاخهن قليل، فلما رأى أبو معبد اللبن عجب! وقال: من أين لك هذا اللبن يا أم معبد، والشاء عازب حيال^(٧)، ولا حلوب

(١) البرزة: المرأة السكحلة التي تبرز للناس ولا تحتجب احتجاب الشواب.

(٢) الرمل: الفقير الذي نقد زاده، والمست: الذي أصابته السنة: أي الفحط والجذب، ومنه قول ابن الزبيري:

عمرو الملا هضم الزيد لقوه ورجال مكة مستنون عجاف

(٣) تفاجت: أفرجت ما بين رجلها وسكنت. (٤) البهاء: بريق الرغبة.

(٥) أراضوا: كروا الشرب حتى رووا. (٦) تساوك: تمشى مشياً ضعيفاً.

(٧) الحيال جمع حائل، وهي التي لم تحمل، والعازب: البعيدة المرمى.

فى البيت ؟ قالت : لا والله ، إلا أنه مرَّ بنا رجل مبارك ، من حاله كذا وكذا قال : صفه لى يا أم معبد . قالت : رأيت رجلاً ظاهر الوضاعة ، أبلج الوجه ، حسن الخلق ، لم تعبهُ ثُجْلَةٌ ^(١) ، ولم تزر به صِلَةٌ ^(٢) ، وسياً قسيماً ، فى عينيه دعبج وفى أشفاره وطف ^(٣) ، وفى عنقه سَطَعٌ ^(٤) ، وفى صوته صل ^(٥) وفى لحيته كثائة ، أزجٌ ^(٦) ، أقرن ^(٦) ، إن صمت فعليه الوقار ، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء ، فهو أجمل الناس وأبهام من بعيد ، وأحسنهم وأملحهم من قريب ، حلو المنطق فصل ، لا نزر ولا هزر ، كأن منطقهُ خرزات نظم يتحدرن ، زبمة : لا بأن من طول ، ولا تقتحمه عين من قصر ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظرأً وأحسنهم قدراً ، له رفقاء يحفون به ، إن قال أنصتوا لقوله ، وإن أمر تبادروا إلى أمره ، محفود محشود ، لا عباس ولا مُفند ^(٧) .

قال أبو معبد : هو والله صاحب قریش الذى ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكة ، ولقد هممت بأن أصعبه ، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً . فأصبح صوت بمكة عالياً يسمعون الصوت ، ولا يدرون من صاحبه ، وهو يقول :

جَزَى اللَّهُ رَبُّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ رَفِيقَيْنِ قَالَا خَيْمَتَى أُمُّ مَعْبِدٍ
هُمَا نَزَلَاها بِالْهُدَى وَاهْتَدَتْ بِهِ فَقَدْ فَازَ مَنْ أُمْسَى رَفِيقَ مُحَمَّدٍ
فَيَا لِقْصَى مَا زَوَى اللَّهُ عَنْكُمْ بِهِ مِنْ نَخَارٍ لَا يُبَارَى وَسُودِدِ
لِيَهْنِ بَنِي كَنْبٍ مَقَامُ فَتَاتِهِمْ وَمَقْعَدُهَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَرْصَدِ

(١) الثجلة : عظم البطن واسترخاؤه . (٢) الصلة : صفر الرأس .

(٣) الوطف : طول أشفار العين . (٤) السطع : الطول .

(٥) الصحل : رقة الصوت . (٦) الزجج دقة شعر الحاجبين ، والقرن وصل ما بينهما .

(٧) المفند : الذى تقل الفائدة فى كلامه .

سَلُوا أُخْتَكُمْ عَنْ شَاتِهَا وَإِنَّا هَا
فَإِنَّكُمْ إِن تَسْأَلُوا الشَّاةَ تَشْهَدُ
دَعَاهَا بِشَاةٍ حَائِلٍ فَتَحَلَّبَتْ لَهُ بِصِرِيحٍ دَرَّةُ الشَّاةِ مُزِيدٌ^(١)
فَنَادَرَهَا رَهْنًا لَدَيْهَا لِحَالِبٍ يُرَدِّدُهَا فِي مَصْدَرٍ ثُمَّ مُورِدٍ

فما سمع بذلك حسان قال يجاوب الهاتف :

لَقَدْ خَابَ قَوْمٌ غَابَ عَنْهُمْ نَبِيُّهُمْ وَقُدْسٌ مِّنْ بَسْرِي إِلَيْهِمْ وَيَعْتَدِي
تَرْحَلُ عَنْ قَوْمٍ فَضَلَّتْ عَقُولُهُمْ وَحَلَّ عَلَى قَوْمٍ بِنُورٍ مُّجَدِّدٍ
هَدَاهُمْ بِهِ بَعْدَ الضَّلَالَةِ رَبُّهُمْ وَأَرْشَدَهُمْ مِّنْ يَنْبَغِ الْحَقَّ يَرْشِدُ
وَهَلْ يَسْتَوِي ضَلَالُ قَوْمٍ تَسْفَهُوا عَمَى وَهْدَاةٌ يَهْتَدُونَ بِمُهْتَدٍ
لَقَدْ نَزَلَتْ مِنْهُ عَلَى أَهْلِ يَثْرِبٍ رِكَابٌ هُدَى حَلَّتْ عَلَيْهِمْ بِأَسْعُدٍ
نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا يَرَى النَّاسُ حَوْلَهُ وَيَتَنَوَّعُ كِتَابُ اللَّهِ فِي كُلِّ مَسْجِدٍ
وَإِنْ قَالَ فِي يَوْمٍ مَقَالَةٌ غَائِبٍ فَتَصْدِيقُهَا فِي الْيَوْمِ أَوْ فِي صُحَى النَّدَى
لِيَهْنَأَ أَبَا بَكْرٍ سَعَادَةٌ جَدُّهُ بِمُحِبَّتِهِ مَن يُسْعِدِ اللَّهُ يُسْعِدِ

وقد نقلنا قصة أم معبد ، وشعر حسان ، وشعر الهاتف : لأن لهذه القطع الثلاث أثراً في تلوين المدائح النبوية ، وحديث أم معبد معروف ، وقد أشار إليه القاضي عياض في الشفاء^(٢) ، وهو - إن صحت نسبته إلى ذلك العهد - أساس لأكثر ما جاء في المدائح النبوية من الأوصاف الحسية ، فسرى في « الموالد » كيف يوصف الرسول بأنه أبلغ الوجه ، أدعج العينين ، أزج الحاجبين ،

إلى آخر ما قيل فيه من شائق الصفات . وحسان بن ثابت نفسه يصفه بالحسن والجمال فيقول :

وَأَحْسَنَ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِي وَأَجْمَلَ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النِّسَاءُ

والاشادة بجمال النبي وحسنه ليست من الفضول ، كما يتوهم بعض الناس ، فان فن المديح يوجب هذا اللون من الوصف ، وقد عرض الصفدي في شرح لامية العجم إلى هذه المسألة فقال : « وما زال الشعراء يصفون المدوح بالحسن والصباحة والطلاقة ، ويشبهونه بالشمس والبدر والصبح ، وذلك مشهور لا يحتاج إلى شاهد يؤيده » ^(١) .

يضاف إلى ذلك أن أصحاب رسول الله درجوا على وصف ملاحه الجسمية ، ولذلك مواطن في كتب الحديث ، وهو نفسه كان جميلا ، والأنبياء في الغالب كانوا من أهل الجمال ، لأن الدعوة إلى الحق تحتاج إلى شفيع من الوجه المقبول .

وما نحب أن يغلب علينا التزمّت فيفوتنا النص على أثر الصنعة في حديث أم معبد ، فالقصة تبدو لنا كالمصنوعة ، وهي على كل حال شاهد على ما كان يحب القدماء أن يوصف به الرسول ، وشعر الهاتف كذلك مصنوع ، وهو مع آيات حسان من طلائع المدائح النبوية .

١٠ - ويظهر الروح الديني في مدائح حسان لمن يقرأ مراثيه للرسول ، وهي مراثٍ مصبوغة بالصبغة الدينية ، يتكلم فيها الشاعر عن المنبر والمصلّي والمسجد والوحى ، ويذكر بكاء الأرض والسموات ، ويتشوق إلى لقاء النبي

صلى الله عليه وسلم في الفردوس ، ويشير إلى ماورث عنه المسلمون من الرشد والهدى . وله في ذلك قصائد ثلاث دالية تفيض بالمعاني الرقيقة السمحة ، وتمّ عن روح ديني مصقول ، وهى قصائد لينة من حيث السجع ، بحيث نخشى أن تكون من الشعر المنحول : فانها لو أضيفت إلى رجل كالבוصرى لقبلت ، لما يغلب عليها من الرقة واللين ، ويكفى أن تقدم أولى هذه القصائد :

بِطَيْبَةِ رَسْمٍ لِلرَّسُولِ وَمَهْدُ	مُنِيرٌ وَقَدْ تَمَقَّوْا الرُّسُومَ وَتَهَمَّدُ ^(١)
وَلَا تَنْمُجِ الْآيَاتُ مِنْ دَارِ حُرْمَةٍ	بِهَا مَنِيرُ الْهَادِي الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ
وَوَاضِحُ آيَاتٍ وَبَاقِي مَعَالِمِ	وَرَبْعٌ لَهُ فِيهِ مُصَلَّى وَمَسْجِدُ
بِهِ حُجَرَاتٌ كَانَ يَنْزِلُ وَسَطُهَا	مِنْ اللَّهِ نُورٌ يُسْتَضَاءُ وَيُوقَدُ ^(٢)
مَعَالِمٌ لَمْ تَطْمَسْ عَلَى الْعَهْدِ آيَهَا	أَتَاهَا الْبَلَى فَاَلَايُ مِنْهَا تَجَدَّدُ
عَرَفْتُ بِهَا رَسْمَ الرَّسُولِ وَعَهْدُهُ	وَقَبْرًا بِهِ وَارَاهُ فِي التُّرْبِ مُلْجِدُ
ظَلَلْتُ بِهَا أَبْكَى الرَّسُولَ فَأَسْعَدْتُ	عَيُونٌ وَمِثْلَاهَا مِنْ الْجَفْنِ تُسْعِدُ ^(٣)
تَذَكَّرُ آلَاءَ الرَّسُولِ - وَمَا أَرَى	لَهَا مُحْصِيًا - نَفْسِي فَنَفْسِي تَبْلُدُ ^(٤)
مُفْجَعَةٌ قَدْ شَفَّهَا فَقَدْ أَحْمَدُ	فَظَلْتُ لِآلَاءِ الرَّسُولِ تُمَدِّدُ ^(٥)
أَطَالَتُ وَقُوفًا تَذَرِفُ الْعَيْنُ جُهِدَهَا	عَلَى طَمَلِ الْقَبْرِ الَّذِي فِيهِ أَحْمَدُ
فَبُورَكَتْ يَا قَبْرَ الرَّسُولِ وَبُورَكَتْ	بِلَادُ ثَوَى فِيهَا الرَّشِيدُ الْمُسَدَّدُ ^(٦)

(١) تهمد : تبلى وتبيد . (٢) الحجرات مساكن الرسول ، مفردها حجرة .

(٣) أسعدت العيون : أعانت على البكاء . (٤) التبلد : الخيرة .

(٥) شفها : أضعفها . (٦) المسدد : الموفق .

وَبُورِكَ لَحْدُهُ مِنْكَ ضَمْنٌ طَيِّبًا
تَهْبِيلُ عَلَيْهِ التُّرْبَ أَيْدٍ وَأَعْيُنُ
لَقَدْ غَيَّبُوا حِلْمًا وَعِلْمًا وَرَحْمَةً
وَرَأَحُوا بِحُزْنٍ لَيْسَ فِيهِمْ نَبِيَّهُمْ
يُبْكُونَ مَنْ تَبَكَّى السَّمَوَاتُ يَوْمَهُ
وَهَلْ غَدَاتُ يَوْمًا رَزِيَّةٌ هَالِكٍ
تَقْطَعُ فِيهِ مُنْزَلُ الْوَحْيِ عَنْهُمْ
يَذُكُّ عَلَى الرَّحْمَنِ مَنْ يَفْتَدِي بِهِ
إِمَامٌ لَهُمْ يَهْدِيهِمْ الْحَقَّ جَاهِدًا
عَفْوٌ عَنِ الزَّلَّاتِ يَقْبَلُ عُذْرَهُمْ
فَبَيْنَاهُمْ فِي نِعْمَةِ اللَّهِ بَيْنَهُمْ
عَزِيزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَحِيدُوا عَنِ الْهُدَى
عُطُوفٌ عَلَيْهِمْ لَا يُدْنِي جَنَاحَهُ
فَبَيْنَاهُمْ فِي ذَلِكَ النُّورِ إِذْ غَدَا
فَأَصْبَحَ نَحْمُودًا إِلَى اللَّهِ رَاجِعًا

عَلَيْهِ بَنَاهُ مِنْ صَفِيحٍ مُنْضَدٍّ^(١)
عَلَيْهِ وَقَدْ غَارَتْ بِذَلِكَ أَسْمَدُ^(٢)
عَشِيَّةَ عَلَوُهُ التَّرَى لَا يُوسَّدُ
وَقَدْ وَهَنْتَ مِنْهُمْ ظُهُورٌ وَأَعْضُدُ
وَمَنْ قَدْ بَكَتَهُ الْأَرْضُ فَالنَّاسُ أَكْمَدُ^(٣)
رَزِيَّةٌ يَوْمَ مَاتَ فِيهِ مُحَمَّدٌ؟
وَقَدْ كَانَ ذَا نُورٍ يَغُورُ وَيُنْجِدُ^(٤)
وَيُنْقِذُ مِنْ هَوْلِ الْخَزَايَا وَيُرْشِدُ
مُعَلِّمٌ صِدْقٍ إِنْ يُطِيعُوهُ يَسْمَدُوا
وَإِنْ يُحْسِنُوا قَالَهُ بِالْخَيْرِ أَجُودُ
دَلِيلٌ بِهِ نَهَجُ الطَّرِيقَةِ يُقْصَدُ
حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يَسْتَقِيمُوا وَيَهْتَدُوا
إِلَى كَنْفٍ يَحْنُو عَلَيْهِمْ وَيَهْتَدُ^(٥)
إِلَى نُورِهِمْ سَهْمٌ مِنَ الْمَوْتِ مُقْصِدُ^(٦)
يُبْكِيهِ جَفْنُ الْمُرْسَلَاتِ وَيَحْمَدُ^(٧)

- (١) الصفيح الحجر الرقيق العريض ، والمنضد الذي رصف بعضه فوق بعض .
(٢) الأسمد جمع سعد وهي النجوم . (٣) أكمد : من الكمد وهو الحزن .
(٤) يغور : يبلغ الغور ، وهو انخفض من الأرض وضده النجد .
(٥) يمهّد : يهيئ المكان الوثير ، والمهد المرقد اللين .
(٦) مقصد : معيب ، يقال رماه فأقصده . (٧) المرسلات هي هنا : الملائكة .

إلى أن يقول :

فَبَكَى رَسُولَ اللَّهِ يَا عَيْنُ عَذْرَاءَ
وَمَالِكَ لَا تَبْكِينَ ذَا النِّعْمَةِ الَّتِي
وَمَا فَنَدَ الْمَاضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ
أَعَفَّ وَأَوْفَى ذِمَّةَ بَعْدَ ذِمَّةٍ
وَأَبْذَلَ مِنْهُ لِلطَّرِيفِ وَتَالِدٍ
وَأَكْرَمَ حَيًّا فِي الْبُيُوتِ إِذَا انْتَمَى
رَبَاهُ وَلَيْدًا فَأَسْتَمَّ تَمَامَهُ
تَنَاهَتْ وَصَاةُ الْمُسْلِمِينَ بِكَفِّهِ
أَقُولُ وَلَا يُلْفَى لِقَائِي عَائِبٌ
وَلَيْسَ هَوَاؤِي نَارِعًا عَنْ ثَنَائِهِ
مَعَ الْمُصْطَفَى أَرْجُو بِذَاكَ جَوَارَهُ
وَلَا أَعْرِفُكَ اللَّهَرَ دَمْعُكَ يَحْمَدُ^(١)
عَلَى النَّاسِ مِنْهَا سَابِغٌ يَتَغَمَّدُ^(٢)
وَلَا مِثْلُهُ حَتَّى الْقِيَامَةِ يُفْقَدُ
وَأَقْرَبَ مِنْهُ نَائِلًا لَا يَنْكَدُ
إِذَا ضَنَّ مِعْطَاهُ بِمَا كَانَ يُثْلِدُ^(٣)
وَأَكْرَمَ جَدًّا أَبْطَحِيًّا يُسَوِّدُ^(٤)
عَلَى أَكْرَمِ الْخَيْرَاتِ رَبُّهُ مُجَدِّدُ
فَلَا الْعِلْمُ مَحْبُوسٌ وَلَا الرَّأْيُ يُهْنَدُ
مِنْ النَّاسِ إِلَّا عَازِبُ الْعَقْلِ مُبْعَدُ^(٥)
لَعَلِّي بِهِ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ أَخْلُدُ
وَفِي نَيْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَسْمَى وَأَجْهَدُ

وهذه القصيدة ضعيفة من الوجهة الشعرية ، ولكنها من خير الشواهد لما نحن بسبيله من تأريخ المدائح النبوية ، والقارئ يلاحظ أن هذه المراثية لم تقل عقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإنما قيلت بعد موته بزمان ، بدليل قوله :

معالم لم تطمس على العهد آيها أتاها البلى فالآي منها تجدد

(١) جد الدمع سكن . (٢) يتغمد : يغطي ويستر .

(٣) التالذ المال القديم ومثله التليد ، والطريف : هو المال المكتسب .

(٤) الأبطحى نسبة إلى الأبطح بمكة . (٥) العقل العازب : هو الذاهب .

عرفت بهارسم الرسول وعهدَه وقبراً به واره في التراب ملحد
ورثاء النبي بعد موته بمدة فيه نزعة صوفية ، ويؤيد هذا ماجاء في ختام القصيدة
من رغبة الشاعر في أن يشبه الله على مدحه بالخلد في جنة الخلد ، ورجائه أن
يكون من جيران المصطفى في الدار الباقية وهو يعلن أنه في نيل ذلك اليوم
يسعى ويجهد ، فبكاء الرسول في هذه المرثية ليس إلا ثناء عليه ، وعلى دينه
القويم ، وليس من الرثاء المألوف الذي يقع من الشاعر حين يفجع في رئيس
أو صديق .

ومن الألفاظ التي تجب الإشارة إليها بين ألفاظ هذه القصيدة كلمة :
« طيبة » وسيكثر ذكرها في المدائح النبوية ، وكذلك وصف الرسول صلى الله
عليه وسلم بأنه « الهادي » أما كلمة « الطريقة » في قوله :

فبيناهم في نعمة الله ينهم دليل به نهج الطريقة يقصد
فستصير كلمة اصطلاحية عند الصوفية ، وسنراه يقولون : « كل شيخ له
طريقة » وسيقولون : « الطريقة الشاذلية » و « الطريقة الخلوتية » إلى آخر
ما ابتدعوا من الطرائق .

وفي قصيدة أخرى يقول :

يَا بَكْرَ آمَنَةَ الْمُبَارَكِ بِكْرُهَا وَلَدَتْهُ مُحَمَّصَةً بِسَمْدِ الْأَسْمَدِ

ووصف الرسول بأنه ابن آمنة من كلمات التمجيد التي أذاعها حسان ، وستكثر
في المدائح النبوية ، وقوله في ختام إحدى القصائد :

صلى الإله ومن يحف بعرشه والطيون على المبارك أحمد

سيصير من التعابير المألوفة في كلام من يمدحون الرسول .
وعبارة « صلى الإله » جملة دعائية ، كان حسان يقولها في الرسول ،
وفي أصحابه ، كقوله يرثي أصحاب الرجيع :

صَلَّى الْإِلَهُ عَلَى الَّذِينَ تَتَابَعُوا يَوْمَ الرَّجِيعِ فَأُكْرِمُوا وَأُثْبِتُوا
ونجد مويلك المزموم يرثي امرأته فيقول :

صَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ مِنْ مَفْقُودَةٍ إِذْ لَا يَلَأُكَ الْمَكَانُ الْبَلَقُ
ونرى آخر يقول :

صلى الإله على صفبى مدرك يوم الحساب ومجمع الأَشهاد
ولكن هذه العبارة ستقتصر فيما بعد على الرسول ، وستحل محلها في الرثاء عبارة
« يرحمه الله » كقول أحد الشعراء :

يرحمك الله من أخى ثقة لم يك في صفو وده كدر

١١ — وبعد مدائح حسان ومراثيه تجيء الفقرات المنسوبة إلى علي بن
أبي طالب ، وثر على من المشكوك في صحته ولكننا نستشهد به لأمرين :
الأول : تصويره لما كان يفهم القدماء من حال عليّ الروحية ، فهو على فرض
وضعه صورة للأدب الذي كانوا يتمثلون ذبوعه في تلك الأيام في خطب أصحاب
الرسول .

الثاني : أننا نرجح صحة ما نسب إلى علي في التحميدات والمعطات ، فإن
الذين طعنوا في صحة ثره وقفوا عند المصاومات التي وقعت بينه وبين معاوية
ابن أبي سفيان .

يضاف إلى هذين الأمرين : أن المدائح النبوية التي وقعت في خطب عليّ لا يظهر فيها تكلف ، فهي فقرات افتتحت بها بعض الخطب ، وليس فيها قصد إلى مدح الرسول .

ولهذا المنهج أهمية ، فسرى الثناء على النبي يطرد في أكثر الخطب المنبرية ، ونكاد نجزم بأن حمد الله والثناء على نبيه صحب الخطب منذ ازدهر هذا الفن على المنابر الاسلامية ، بدليل أنهم دهشوا خلّو خطبة زياد من الحمد فسموها البتراء .

والمدائح النبوية في كلام عليّ ذات أفانين ، فتارة يثني على النبي ، وعلى كتابه ، ويبين ما كان عليه الناس قبل البعثة ، فيقول :

« أرسله بالدين المشهور ، والعلم المأثور ، والكتاب المسطور ، والنور الساطع ، والضياء اللامع ، والأمر الصادع ، إزاحة للشبهات ، واحتجاجاً بالبينات ، وتحذيراً بالآيات ، وتخويفاً بالمثلثات ^(١) ، والناس في فتن انجذم ^(٢) فيها جبل الدين ، وترعزعت سوارى ^(٣) اليقين ، واختلف النجر ^(٤) ، وتشدت الأمر ، وضاق المخرج ، وعمى المصدر ، فالهدى خامل ، والعمى شامل ، إذ عُصِيَ الرحمن ، وأُصِرَ الشيطان ، وَخُذِلَ الإيمان ... الخ ^(٥) » .

وفي هذا المعنى يقول في خطبة ثانية :

« أرسله على حين فترة من الرسل ، وطول هجعة من الأمم ، واعتزام ^(٦) من الفتن ، وانتشار ^(٧) من الأمور ، وتلظ من الحروب ، والدنيا كاسفة النور

(١) المثلث بفتح فضم : العقوبات . (٢) انجذم : انقطع .

(٣) السوارى جمع سارية ، وهي العمود والدعامة .

(٤) النجر : الأصل : والمراد به المرجع . (٥) نهج البلاغة ج ١ ص ٣١ ، ٣٢ .

(٦) اعتزام : شدة . (٧) الانتشار : التفريق .

ظاهرة الغرور ، على حين اصفرار من ورقها ، وإياس من ثمرها ، واغورار من مائها ، قد درست منار الهدى ، وظهرت أعلام الردى ، فهي متجهمه ^(١) لأهلها عابسة في وجه طالبها ، ثمرها الفتنة ، وطعامها الجيفة ، وشعارها الخوف ، ودثارها السيف ^(٢) .

وفي هذه القطعة يصف على كيف كانت الحياة قبل بعثة الرسول ، ويغلب عليه الفن ، فيلون كلامه بفنون من الخيال ، ويذكر أن الدنيا كانت كاسفة النور ، وأنها كانت مصفرة الورق ، وأن ثمرها كان ميئوساً منه ، وأنها كانت غائرة الماء ، ثم يعزى فيذكر تجهمها وعبوسها ، ويجعل من ثمرها الفتنة ، ومن طعامها الجيفة ، ويقضى بأن شعارها الخوف ، ودثارها السيف .

والافتتان في وصف ما كانت عليه الجاهلية من الظلمات سيصير أساساً لأكثر ما يكتب في بيان فضل الرسول ، وهذه معان لم يخلقها على بن أبي طالب ، وإنما وضعت أصولها الأولى في القرآن .

وفي مكان آخر يذكر أن النبوة قديمة ، تنقلت من صلب إلى صلب حتى وصلت إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ويقول في وصف الأنبياء :

« استودعهم في أفضل مستودع ، وأقرهم في خير مستقر ، تناسخهم كرائم الأصلاب ، إلى مطهرات الأرحام ، كلما مضى منهم سلف ، قام منهم بدين الله خلف ، حتى أفضت كرامة الله سبحانه إلى محمد صلى الله عليه وآله ، فأخرجه من أفضل المعادن منبتاً ، وأعز الأرومات ^(٣) مفرساً : من الشجرة

(١) التجهيم : الاستقبال بوجه كره . (٢) نهج البلاغة ص ١٧١ ج ١ .

(٣) الأرومات : الأصول .

التي صدع منها أنبياءه ، وانتخب منها أمناءه ، عِترته خير العتر ، وأسرته خير الأسر ، وشجرته خير الشجر ، نبتت في حرم ، وبسقت في كرم ، لها فروع طوال ، وثمرات لاتنال ، فهو إمام من اتقى ، وبصيرة من اهتدى ، سراج لمع ضوؤه ، وشهاب سطع نوره ، وزند برق لمعه ، سيرته القصد ، وسنته الرشد ، وكلامه الفصل ، وحكمه العدل ^(١) .

وهذا المعنى سيعتمد عليه مؤلفو « الموالد » وسيدكرون أن نور النبوة تنقل من صلب إلى صلب حتى وصل إلى نبي الإسلام . والاهتمام بطهارة نسب الرسول يرجع إلى العقلية العربية التي تعول كثيراً على طهارة الأنساب ، وفي بعض الآثار تنزيه لنسب الرسول عن سفاح الجاهلية ، ولهذا معناه في تقدير شرف الأصل .

وعلى بن أبي طالب قد يفتن ببعض المعاني فيعود إليها من خطبة إلى خطبة ، ومن حديث إلى حديث ، ولننظر كيف يعود فيصف ما كان عليه الجاهليون :

« بعثه والناس ضلّالاً في حيرة ، وخابطون في فتنة ، قد استهوتهم الأهواء ، واستزلتهم الكبرياء ، واستخفهم الجاهلية الجهلاء ، حيارى في زلال من الأمر وبلاء من الجهل ، فبالغ صلى الله عليه وآله في النصيحة ، ومضى على الطريقة ، ودعا إلى الحكمة ، والموعظة الحسنة ^(٢) » .

وكلمة « الطريقة » مرت بنا في شعر حسان ، وعادت إلينا في كلام عليّ ، وقد أشرنا إلى أنها ستصير كلمة اصطلاحية عند الصوفية .

(١) س ٢٠١ ، ٢٠٢ ج ١ نيج البلاغة . (٢) س ٢٠٢ ج ١ منه أيضاً .

ولننظر أيضاً كيف يعود فيتحدث عن أرومة الرسول :

« مستقره خير مستقر ، ومنبته أشرف منبت ، في معادن الكرامة ، ومماهد السلامة ، قد صُرفتْ نحوه أفئدة الأبرار ، وثُنيتْ إليه أزيمة الأبصار ^(١) » .

ويصور هذا المعنى بصورة أخرى فيقول :

« اختاره من شجرة الأنبياء ، ومشكاة الضياء ، وذؤابة العلياء ، وسرة البطحاء ، ومصاييح الظلمة ، وينايع الحكمة ^(٢) » .

ويمدح النبي صلى الله عليه وسلم بالزهد فيقول :

« قد حقر الدنيا وصغرها ، وأهونها وهونها ، وعلم أن الله زواها عنه اختياراً ، وبسطها لغيره احتقاراً ، فأعرض عنها بقلبه ، وأمات ذكرها عن نفسه ، وأحب أن تغيب زينتها عن عينه ، لكيلا يتخذ منها ريشاً ، أو يرجو فيها مقاما ^(٣) » .

وهذه النزعة ستكون كذلك أصلاً لكثير من المدائح النبوية .

ومما تجب الإشارة إليه الجمع بين الثناء على الرسول والدعاء له ولدينه في قول عليّ :

« أوري قبساً لقابس ، وأنار علماً لحابس ، فهو أمينك المأمون ، وشهيدك يوم الدين ، وبعيثك نعمة ، ورسولك بالحق رحمة . اللهم اقسم له مقسماً من عدلك ، واجزه مضاعفات الخير من فضلك ! اللهم أعل على بناء البانين بناءه ، وأكرم لديك نُزله ، وشرف لديك منزلته ، وآتة الوسيلة ، وأعطه السناء والفضيلة ! واحشُرنا في زمرة غير خزايا ولا نادمين ، ولا نا كثرين ولا ضالين ولا مضلين ! ^(٤) » .

وكلمة « الوسيلة » سيكثر ورودها في كلام الصوفية ، وهذه القطعة ستكون نغماً لكثير من الأدعية والصلوات .

ولو مضينا نستقرى ما في كلام عليّ من أمثال هذه الفقرات لطال بنا القول ، فلنكتف بما أسلفنا من كلامه ، فما نريد الاستقصاء ، وإنما الغرض أن ندل على ما في خطبه من أصول المدايح النبوية .

١٢ - والذي يتأمل كلام عليّ يجده ينتقل من مدح النبي صلى الله عليه وسلم إلى مدح آل البيت ، وكذلك يفعل الكميّ بن زيد الأسدي في قصائده الهاشميات ، وسنعود إليها بدرس خاص وندرس معها تائيد دعبل ، ونشير الآن إلى أن الفرزدق اتفق له أن يقف موقفاً يمدح فيه الرسول وعترته فقد حدثوا أنه حج بعد ما كبر وقدأت له سبعون سنة وكان هشام بن عبد الملك قد حج في ذلك العام فرأى علي بن الحسين رضى الله عنهما في غمار الناس في الطواف فقال : من هذا الشاب الذي تبرق أسرة وجهه كأنه مرآة صينية تراءى فيها عذارى الحى وجوهها ؟ فقالوا : هذا علي بن الحسين ^(١) .

فقال الفرزدق :

هَذَا الَّذِي تَمَرِّفُ الْبَطْحَاءُ وَطَائِفُهُ وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحِلُّ وَالْحَرَمُ
هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمْ هَذَا النَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ
هَذَا ابْنُ فَاطِمَةٍ إِنْ كُنْتَ جَاهِلَهُ يَجِدُهُ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ قَدْ خُتِمُوا

(١) مذهب الأغاني ج ٥ ص ١٤٩ . وفي وفيات الأعيان ج ٣ ص ١٤٢ أنه لما حج هشام في أيام أبيه طاف وجهد أن يصل إلى الحجر ليستلمه فلم يقدر عليه لكثرة الزحام فنصب له منبر فجلس عليه ينظر إلى الناس ومعه جماعة من أعيان الشام . فبينما هو كذلك إذ أقبل زين العابدين على بن الحسين ، وكان من أحسن الناس وجها وأطيبهم أرجاً ، فطاف بالبيت . فلما انتهى إلى الحجر تنحى له الناس حتى استلم . فقال رجل من أهل الشام : من هذا الذي قد هابه الناس هذه الهية ؟ فقال هشام لا أعرفه ، مخافة أن يرغب فيه أهل الشام فيما يكونه ، وكان الفرزدق حاضراً ، فقال : أنا أعرفه ، فقال : من هو يا أبا فراس ؟ فقال قصيدته .

وَلَيْسَ قَوْلُكَ مِنْ هَذَا بِضَائِرِهِ
 إِذَا رَأَتْهُ قُرَيْشٌ قَالَ قَائِلُهَا
 يُنْفِى حَيَاءً وَيُنْفِى مِنْ مَهَابَتِهِ
 بِكْفِهِ خَيْرُ رَأْيٍ رِيحُهَا عَبِقُ
 يَكَادُ يُنْسِكُهُ عِرْفَانُ رَاحَتِهِ
 اللَّهُ شَرُّهُ قَدَمًا وَعَظْمَةً
 أَيْ الْخَلَائِقِ لَيْسَتْ فِي رِقَابِهِمْ
 مَنْ يَشْكُرُ اللَّهَ يَشْكُرْ أَوَّلِيَّةَ ذَا
 كِلْتَا يَدَيْهِ غِيَاثُ عَمِّ نَفْعُهُمَا
 سَهْلُ الْخَلِيقَةِ لَا تُخْفَى بَوَادِرُهُ
 حَمَالُ أَتَقَالُ أَقْوَامٍ إِذَا فُذِحُوا
 مَا قَالَ لَا قَطُّ إِلَّا فِي تَشْهِيدِهِ
 لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ مَأْمُونٌ تَقِيَّتُهُ
 عَمَّ الْبَرِيَّةَ بِالْإِحْسَانِ فَأَنْقَشَعَتْ
 يُنْمِي إِلَى ذِرْوَةِ الدِّينِ الَّتِي قَصُرَتْ
 مَنْ جَدُّهُ دَانَ فَضْلُ الْأَنْبِيَاءِ لَهُ
 مُشْتَقَّةٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ نَبْعَتُهُ
 يَنْشَقُّ ثَوْبُ الدُّجَى عَنْ نُورِ غُرَّتِهِ
 مِنْ مَمَشَرِ حُبِّهِمْ دِينَ وَبَعْضُهُمْ

الْعُرْبُ تُتَرَفُّ مَنْ أَنْكَرَتْ وَالْعَجَمُ
 إِلَى مَكَارِمِ هَذَا يَنْتَهَى الْكَرَمُ
 فَا يُكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَبْتَسِمُ
 مِنْ كَيْفِ أَرْوَعَ فِي عَرْنِينِهِ شَمَمُ
 رُكْنُ الْحَاطِمِ إِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ
 جَرَى بِذَلِكَ لَهُ فِي لَوْحِهِ الْقَلَمُ
 لِأَوَّلِيَّةٍ هَذَا أَوَّلُهُ نَعَمْ
 قَالِدِينَ مِنْ يَنْتِ هَذَا نَالَهُ الْأَنْتَمُ
 تُسَوِّوْ كَفَانٍ وَلَا يَعْرِوهُمَا عُدْمُ
 يَرِيْنُهُ اثْنَانِ حُسْنُ الْخَلْقِ وَالشَّيْمُ
 حُلُوُ السَّمَائِلِ تَحْلُو عِنْدَهُ نَعَمْ
 لَوْلَا التَّشْهيدُ كَانَتْ لَأَوْدُهُ نَعَمْ
 رَحْبُ الْفَنَاءِ أَرِيْبُ حِينَ يَعْتَزِمُ
 عَنْهَا الْغِيَابَةُ وَالْإِمْلَاقُ وَالْعُدْمُ
 عَنْهَا الْأَكْفُوعُ عَنْ إِذْرَا كِهَاءِ الْقَدَمُ
 وَفَضْلُ أُمَّتِهِ دَانَتْ لَهُ الْأُتَمُ
 طَابَتْ مَخَارِسُهُ وَالْحَيِّمُ وَالشَّيْمُ
 كَالشَّمْسِ تَنْجَابُ عَنْ إِشْرَافِهَا الظُّلُمُ
 كُفْرُهُ وَقُرْبُهُمْ مَنْجَبِي وَمُهْتَصِمُ

مُقَدَّمٌ بَعْدَ ذِكْرِ اللَّهِ ذِكْرُهُمْ فِي كُلِّ بَدْءٍ وَخَتْمٍ بِهِ الْكَلِمُ
 إِنَّ عُدَّةَ أَهْلِ التَّقَى كَانُوا أَتَمَّهُمْ أَوْ قِيلَ مَنْ خَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ قِيلَ لَهُمْ
 لَا يَسْتَطِيعُ جَوَادُ بَعْدِ جُودِهِمْ وَلَا يُدَانِيهِمْ قَوْمٌ وَإِنْ كَرُمُوا
 يُسْتَدْفَعُ الشَّرُّ وَالْبَلْوَى بِحَبِّهِمْ وَيُسْتَرْبُ بِهِ الْإِحْسَانُ وَالنِّعَمُ
 لَا يَنْقُصُ الْمُسْرُ بَسْطًا مِنْ أَكْفِهِمْ سَيِّانَ ذَلِكَ إِنْ أَثَرُوا وَإِنْ عَدِمُوا
 يَا بُنَى لَهُمْ أَنْ يَحُلَّ الذَّمُّ سَاحَتَهُمْ خِيمٌ كَرِيمٌ وَأَيْدٍ بِاللَّذَى دِيمٌ

وفي هذه القصيدة الجيدة نفحات من التصوف ، فالشاعر يقرن شكر الله بشكر آل الرسول ويرى أن حبهم دين وبغضهم كفر ، وتلك أقصى غايات الصدق في الحب . ويؤيد هذا ما وقع للشاعر بعد إنشاد هذه القصيدة : فقد غضب هشام وجبسه ، وأقذله زين العابدين وهو في الحبس اثني عشر ألف درهم فردها وقال : « مدحته لله تعالى لا للمطاء » .

والمدح لله هو عين التصوف ، ولا يغض من هذا قبوله العطية بعد ذلك فقد تلطف زين العابدين وقال « إنا أهل بيت إذا وهبنا شيئاً لا نستعيده ^(١) » . وكذلك يكون قبول هذه العطية باباً من الأدب في رعاية أسباط الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقد يمكن القول بأن مدح الفرزدق للنبي وأهله هو بداية الصدق في المدائح النبوية ، ذلك بأن مدائح حسان وقعت في أيام كان مدح النبي فيها ينفع الشاعر ولا يضره . أما مدح النبي وأهله في أيام الفرزدق فكان باباً من الشر

يفتح للمادحين: لأن تلك المدائح ما كانت تروق خلفاء بني أمية، وكيف تروقهم
وهي تركية لخصوم أولئك الخلفاء؟ إن أقوى حجة عند خصوم بني أمية كانت
قرابتهم من الرسول ، فلا بدع أن يكون مدح الرسول تنويهاً بشأن أولئك
المعارضين ، ألم تر كيف غضب هشام وسجن الفرزدق ؟

ومعنى هذا أن السياسة كانت بدأت تستقل عن الدين بعض الاستقلال
فمدح الرسول وأبنائه في نظر خلفاء بني أمية كان ضرباً من التمرد
والشغب والخروج على الدولة . وتعليل ذلك سهل : فموقف علي بن الحسين
من بني أمية شبيه بموقف خلفه الشريف الرضى من بني العباس ، والشريف هو
الذى يقول :

ردوا تراث محمد ردوا ليس القضيبي لكم ولا البرد
وتراث محمد كان أثم ما فيه ولاية أمر المسامين ، وقد انتزعت من آل البيت
انتزعها بنو أمية ثم بنو العباس .

نقول هذا لنبين أثر الشجاعة الصوفية عند الفرزدق حين مدح علي بن
الحسين في حضرة هشام بن عبد الملك وقوله حين رفض العطية : « مدحته لله
تعالى لا للعطاء » يذكر بالكميت ، وقد دخل عليه جعفر بن محمد بعطاء
وكسوة فقال « والله ما أحببتكم للدنيا . ولو أردت الدنيا لأتيت من هي في يديه
ولكني أحببتكم للآخرة ، فأما الثياب التي أصابت أجسامكم فأنا أقبلها لبركاتهما ،
وأما المال فلا أقبله » .

فان لم يكن مثل هذا الحب تصوفاً وروحانية ، فما منزلته بين نوازع الود والوفاء ؟

١٣ — رأينا كيف نشأت المدائح النبوية وكيف تطورت : رأينا كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم يُمدح كما يمدح الرؤساء المسيطرون ، في شعر الأعشى وكعب بن زهير ، وكيف مُدح بشيء من روح العطف والحنان في شعر حسان ، وكيف مدح تديناً في خطب علي بن أبي طالب ، وكيف درج الشعراء بعد ذلك على الجمع بين مدحه ومدح آل البيت . فلنذكر الآن أن هذا الفن بلغ أشده في القرن الرابع ، وسندرس ما وقع منه في شعر الكميت ودعبل والشريف الرضى ومهيار الديلمي ، ونسارع فنقرر أن من أهم الشواهد على نضج هذا الفن في ذلك العصر أن الثعالبي جمع منه شذرات في كتابه (سحر البلاغة) وهو كتاب يمثل النزعات الفنية في عصر المؤلف ، ومادة ذلك الكتاب لم تؤخذ عن كاتب واحد ، ولا شاعر واحد ، وإنما هي فقرات أخرجها من ألفاظ عدد كبير من الكتاب والشعراء .

وإلى القارئ طائفة من تلك التعابير :

— سليل أكرم نبعة ، وقريع أشرف بقعة — جاء بأمته من الظلمات إلى النور ، وأفاء عليهم الظل بعد الحرور — محمد نبي الله وصفوته ، وخيرته من بريته — خيرة الله من خلقه ، وحجته في أرضه ، والهادى إلى حقه ، والمنبه على حكمه ، والداعى إلى رشده — مبارك مولده ، سعيد مورده — ساطع صباحه ، متوقد مصباحه — مظفرة حروبه ، ميسرة خطوبه — آخر الأنبياء

في الدنيا عصراً ، وأولهم يوم الدين ذكراً ، وأرجحهم عند الله ميزاناً ، وأوضحهم حجة وبرهاناً .

وإليك طائفة أخرى في الصلوات :

صلى الله على محمد خير من افتتحت بذكره الدعوات ، واستنجحت بالصلاة عليه الطلبات — صلى الله على محمد خير نبي مبعوث ، وأفضل وارث وموروث — صلى الله على كاشف الغمة عن الأمة ، الناطق فيهم بالحكمة الصادع بالحق ، الداعي إلى الصدق — صلى الله على بشير الرحمة والثواب ، ونذير السطوة والعقاب : محمد الذي أدى الأمانة مخلصاً ، وصدع بالرسالة مبلغاً مُخَصَّصاً — صلى الله على أتم بريته خيراً وفضلاً ، وأطيبهم فرعاً وأصلاً ، وأكرمهم عوداً ونجراً ، وأعلامهم منصباً ونجراً .

وبعد هذين اللونين من مدح الرسول والصلاة عليه نقل الثعالبي فقرات في الشاء على آل البيت ، وهذا دليل آخر على الجمع بين مدح النبي ومدح عترته ، وأغلب الظن أن هذه الطريقة كانت مما سنّ الشيعة في مختلف الأمصار الإسلامية . وسنرى كيف يعود المادحون فيفردون النبي صلى الله عليه وسلم بالثناء حين يسامون من النزعات الحزبية ، والتشيع تحزب ، وإن غلب على كثير من أهله صدق اليقين .

١٤ — هذا وقد رأى القارئ أن أقدم قصيدة قيلت في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم بدئت بالنسيب ، وسيرى ذلك سنة في أكثر المدائح النبوية فلنقيد هنا أنهم نصوا على « أن الغزل الذي يُصدّر به المديح النبوى يتعين على الناظم أن يحنثم فيه ويتأدب ويتضاءل ، ويتشبيب مطرباً بذكر سلع ورامة

وسفح العقيق والمذيب والغوير ولعلع وأكناف حاجر ، ويطرح ذكر محاسن المرد والتغزل في ثقل الردف ، ودقة الخصر ، وبياض الساق ، وحمرة الخد وخضرة العذار ، وما أشبه ذلك ^(١) .

وهذا الأدب يلحظ ألبناً في مدح أهل البيت ، وقد عاب ابن حجة على السرى الرفاء أن تغزل في صدر قصيدة مدح بها الفاطميين ، وجاهد الرسول صلى الله عليه وسلم بمثل هذا التشبيب :

نَطْوِي اللَّيَالِي عِلْمًا أَنْ سَمَطُونَا فَشَعَشَعِيهَا بِمَاءِ الْمَزْنِ وَأُسْقِينَا ^(٢)
وَتَوَجَّيْ بِكُؤُوسِ الرَّاحِ رَاحَتَنَا فَإِنَّمَا خُلِقَتْ لِلرَّاحِ أَيْدِينَا
قَامَتْ تَهْزُ قَوَامًا نَاعِمًا سَرَقَتْ شَمَائِلُ الْبَانِ مِنْ أَعْطَافِ الْإِينَا
تُدِيرُ سَمَرًا تَلْقَاهَا الزَّجَاجُ كَمَا أَلْقَيْتَ فَوْقَ جَنَى الْوَرْدِ نَسْرِينَا
فَلَسْتُ أَذْرِي أَسْقِينَا وَقَدْ نَفَحَتْ رَوَاحُ الْمِسْكِ مِنْهَا أَمْ تُحْيِينَا

والمواطن التي أشار إليها ابن حجة مواطن عربية متصلة من قرب أو من بُعد بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والقول بالوقوف عندها في التغزل فيه تعسف ، فن حق الشاعر إن تغزل أن يصدق ، وقد حنّ البوصيري مثلاً إلى أحبائه بنى سلم وكان أولى لو تشوق إلى أحبائه في بليس أو فاقوس . وعذر ابن حجة أن مثل ذلك النسب هو في الأغلب تمهيد للمديح ، والكلام عن تلك المواطن بالذات يقع في المدائح النبوية وكأنه براعة استهلال .

(١) خزائن الأدب للحموي ص ١٢ . (٢) المزن : السحاب .

الفصل الثانى

مصرع أهل البيت

نشأة العطف على أهل البيت — مقتل الحسين — النوح في
يوم عاشوراء — الصلاة على الحسن والحسين في بعض الخطب
النبرية — مصرع ابن السكيت — دسائس الأمويين ضد الحسن
ابن عليّ — المبالغة في بكاء الحسين — أشياخ عليّ في حضرة
معاوية وغيره من الخلفاء — مدح شعراء الفاطميين لأهل البيت
ليس من التصوف .

١ — ولد العطف على أهل البيت منذ اليوم الذى خُذِلَ فيه عليّ وكان يرى
نفسه صاحب الحق في الخلافة الاسلامية، وبلغ العطف أشده يوم قتل ، وأُتيحت
بقتله الفرصة لقيام الخلافة الأموية ، ثم تأصلت جذور ذلك العطف في أفئدة
المسلمين بعد قتل الحسين رضى الله عنه وما تلاه من أحزان أهل البيت .

والواقع أن دماء أهل البيت كانت هزت قلوب المسلمين ، ويكفى أن
تصور ما حدث به الفيروزابادى فى مادة (سور) من القاموس المحيط إذ قال :
« وسورين : نهر بالرى وأهلها يتطيرون منه لأن السيف الذى قتل به
يحيى بن زيد بن علي بن الحسين غسل فيه » .

والتطير من نهر غسل فيه سيف قتل به رجل من أهل البيت يمثل أقصى
معانى التصوف فى حب أسباط الرسول .

٢ — ومقتل الحسين خاصة من الحوادث التى شغلت خواطر المسلمين
أجيالا طوالا . ولو كان التصوير من الفنون التى شجعها الاسلام لملاّت صورة

الحسين أقطار الأرض . كالذى وقع في صورة المسيح التي تردان بها الكنائس الصغيرة والكبيرة والمنازل في مختلف البقاع النصرانية .

ولكن الحماسة التي عدت مكانها في مجال التصوير انتقلت إلى الخطب والرسائل والقصائد . ومن ملاحظات المسيو بلانشو Blanchot في كتاب

Les Etapes de la Peinture

أن الحسين عند المسلمين يذكر بأدونيس عند اليونان . وتتلخص هذه القصة في أن أفروdit إلهة الجمال كان لها ابن وسيم الطلعة نضير الشباب اسمه أدونيس ، فخرج يوما يتصيد فهاجمه خنزير برى فقتله . ونبئت من دمه شقائق النعمان . ثم مضى اليونان يحيون ذكراه في كل ربيع : فيكون ويندبون ، وأمامهم تابوت يمثل نعش أدونيس^(١) .

وكذلك فعل المسلمون في ذكرى الحسين : فكانوا يحيون ذكراه يوم عاشوراء حتى لنجد صاحب كتاب النجوم الزاهرة يقول في أخبار سنة ثمان وتسعين وثلثمائة :

« في يوم عاشوراء عمل أهل الكرخ ماجرت به العادة من النوح وغيره واتفق يوم عاشوراء يوم المهرجان فأخره عميد الجيوش إلى اليوم الثاني مراعاة للرافضة . هذا ما كان ينعقد ، فأما مصرفانه كان يفعل بها في يوم عاشوراء من النوح والبكاء والصراخ وتعليق المسوح أضعاف ذلك » .

(١) ليس معنى هذا أن المسلمين تقلوا عن اليونان فكرة المآتم الموسمية . ولكن هذه المشابهة بين ذكرى أدونيس و ذكرى الحسين تدل على أن الناس ياتقون في كثير من الأخيلة الفطرية وإن تباعدت بهم الديار ، و فرقت بينهم المذاهب ، ومن العجيب أن هناك نعمة روحية في الفكرتين : فأدونيس قدس ذكراه لأنه ابن أفروdit وهي إلهة الجمال ، والحسين يعبد ذكره لأنه ابن فاطمة ، وهي بنت الرسول .

وقد كانت عادة النوح على الحسين في يوم عاشوراء تجرى في القاهرة إلى زمن قريب . وكنت أسمع بأخبار ذلك وأنا طالب في الأزهر فلا أصدق لأني كنت أقضى يوم عاشوراء بين أهلى في الريف فبقيت في القاهرة عمداً في أحد الأعوام ، ورأيت الموكب بعينى ، وكان الشيعة يطوفون حول مسجد الحسين رضى الله عنه ، وأجسامهم مخضبة بالدماء . وقد اختفى هذا المنظر منذ غلبت المدينة الحديثة ولكنى شهدت منذ أعوام قلائل حفلة في حى الحمزاوى : فرأيت الناس ييكون ويصرخون وهم يسمعون سيرة الحسين في ليلة عاشوراء .

٣ - وقد أضيفت الصلاة على عليّ وإبنيه الحسن والحسين إلى الصلاة على رسول الله في طائفة من الخطب المنبرية : فقد خطب أبو المنيع قرواش بن المقلد خطبة الجمعة بالقاهرة رابع المحرم سنة إحدى وأربعمئة بحضرة الحاكم فقال :

« وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ... اصطفاه واختاره لهداية الخلق ، وإقامة الحق ، فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وهدى من الضلالة ... صلى الله عليه وعلى أول مستحبيب له عليّ أمير المؤمنين ، وسيد الوصيين » .

وقال في الخطبة الثانية بعد حمد الله والثناء على نبيه :

« اللهم وصلّ على وليك الأزهر ، وصفيك الأكبر ، على بن أبى طالب أبى الخلفاء الراشدين المهديين . اللهم وصل على السبطين الطاهرين الحسن والحسين » .

وحدثنى السيد فوزان السابق وكيل حكومة الحجاز بالقاهرة أنه وجد في أحد مساجد المغرب وثيقة زواج ذكرت فيها الصلاة على الحسن والحسين ،

وأنه رشا خازن تلك الوثيقة وأخذها منه. جرى هذا الحديث منذ ثلاثة عشر عاما
بمنزله في عين شمس وبحضرة المرحوم الشيخ عبد الباقي سرور نعيم، وقد ما زحته
يومئذ فقلت: أترى الوهايين يحيزون الرشوة؟ .

٤ - ولو مضينا إلى المكاتب الموثقة في حي الأزهر واشترينا طائفة من
الخطب المنبرية لرأينا في أكثرها خطبة ثابتة ليوم عاشوراء ، ورأينا مؤلفي
تلك الخطب يزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى بأن يوسع الرجل على
أطفاله في يوم عاشوراء ، وأكاد أجزم بأن أهل الريف في مصر يحتفلون بذلك
اليوم احتفالهم بعيد الأضحى من حيث التوسع في المطاعم . وفي مصر نوع من
الحلوى اسمه «عاشوراء» يؤكل في ذلك اليوم . ويتخيره ناس للفظور في
رمضان حتى الأرمن واليونان يقدمونه لزبائنهم في القهوات !

٥ - وسنرى كيف يكون مدح أهل البيت مما يتبارى فيه الكتاب
والشعراء ، وسنرى كيف يحرص الشريف الرضى على إحياء يوم عاشوراء من
كل عام بقصيدة يبكى فيها الحسين ^(١) .

وسنرى طوائف من المآسى تقع لبعض العلماء بسبب التعصب للحسن
والحسين ، فقد حدثنا ياقوت ^(٢) أن ابن السكيت كان خرج إلى سُرٍّ رأى
فديرة عبد الله بن يحيى بن خاقان إلى المتوكل ، فضم إليه ولده يؤدبهم ، وأسنى
له الرزق ، ثم دعاه إلى منادته ، فنهاه عبد الله بن عبد العزيز عن ذلك ، فظن
أنه حسده ، وأجاب إلى ما دعى إليه . فبينما هو مع المتوكل يوما جاء المعتز
والمؤيد ، فقال له المتوكل :

(١) كان يوم عاشوراء ملحوظا في أذهان الناس حتى صح لهم أن يقولوا: ولد فلان يوم عاشوراء . انظر

تاريخ بغداد ج ١ ص ٣٣٤ . (٢) في معجم الأدباء ج ٧ ص ٣٠١

يايعقوب : أيمّا أحب إليك : ابنى هذان أم الحسن والحسين ؟ فذكر
الحسن والحسين رضى الله عنهما بما هما أهله ، وسكت عن ابنه ، وقيل إنه
قال له : إن قبر خادم علىّ أحب إلى من ابنك . فأمر المتوكل الأتراك فسلّوا
لسانه ، وداسوا بطنه ، وحمل إلى يته ، فعاش يوما وبعض آخر ومات ،
ووجه المتوكل من الغد عشرة آلاف درهم ديته إلى أهله ، ولما بلغ عبد الله
ابن عبد العزيز الذى نهى عن المنادمة خبر قتله أنشد :

نَهَيْتُكَ يَا يَمْعُوبُ عَنْ قُرْبِ شَاكِرٍ إِذَا مَا سَدَلَا أَرْبَى عَلَى كُلِّ ضَيْمٍ
فَذُقْ وَأَحْسُ إِنِّى لَأَقُولُ الْمَدَاةَ إِذْ عَثَرْتُ لَمَّا بَلَ لِلْيَدَيْنِ وَلِلْفَمِ

ولهذا الخبر دلالة على ما كان تمكن فى صدور الناس من حب أهل البيت
والتصوف فى ذلك الحب : فابن السكيت كان يخفى التشيع إخفاء شديداً ،
بحيث خُدع فيه المتوكل ، وعهد إليه بتأديب ولديه ، ولكن الشراب يفضح
المكتوم من أخبار السرائر والنفوس ، فلما أخذت منه الكأس أعلن ما كتم
وصرح بأن قبر خادم علىّ أحب إليه من ابنى المتوكل ، فاستهدف للقتل .

٦ - ولا ينبغي أن ننسى أن الشعراء والخطباء والقصاص لو ترا قتل
الحسين رضى الله عنه بألوان شعرية . ألم يقل قائلهم : إن الدم كان يجرى من ذلك
الفم الذى طالما قبله الرسول ؟

إن هذه اللوحة هى وحدها صورة شعرية تهبج ما غفا من المشاعر
والأحاسيس .

٧ - ولتذكر أن بنى أمية قاموا بهذه الصور الشعرية ، ولكنهم لم

يفلحوا ، فقد ظل الناس يحبون الحسين . أما دسائس الأمويين ضد الحسن فقد ظفرت ببعض النجاح ، ألم يستطيعوا أن يشيعوا في المشرق والمغرب أن الحسن لم يكن صالحاً للملك ، وأنه كان رجلاً مفتوناً بحب النساء ؟

ومن العجيب أن بنى أمية حاربوا الحسن بلباقة سياسية منقطعة النظير ، فقد كانوا يودون اتهامه بضعف الأخلاق ، وحب الاثم والفسوق ، فلما عزن عليهم ذلك قالوا : إنه لم يكن يتمتع بالنساء إلا عن طريق الحلال ، فكان يتزوج المرأة ليلهو بها يوماً أو بعض يوم ، ثم يطلقها لبحث عن امرأة أفقن وجهاً ، وأنصر شباباً .

ومن العجيب أيضاً أن الهاشمين لم يقاوموا هذه الدسيسة ، وأعجب من ذلك أن يعدوها من مفاخر ذلك السيد المزواج !

ومن طريف الفكاهات أنى كنت نشرت كلمة في جريدة البلاغ عن شواطئ الاسكندرية قلت فيها : « إن أجسام الملاح في تلك الشواطئ تغرس الشوق إلى الاعتزاز بالقومية المصرية » فعاتبني الشيخ محمد الحكيم المصحح بجريدة البلاغ ، وقال : هذه دعوة إلى المجون .

وكنت أعرف أن العمامة الخضراء التي تزين رأسه ستغنيني في إقناعه ، فالتفت إليه وقلت : حتى أنت ياسليل الحسن بن علي ، تنكر الدعوة إلى تقديس الجمال ؟ فابتسم ، وطابت نفسه ، وانشرح صدره ، وترحم على جده ، وانطلق يتحدث عن نواادره مع النساء .

وقليل من التنبه كاف لتعريفنا بخطر هذه الدسيسة في عالم السياسة ، فان الرجل الذي يشغل نفسه بسياسة المرأة يعسر عليه أن يتفرغ لسياسة الدولة .

وهذا المغمز لا يزال معروفاً في ميادين النضال السياسى ، ولو شئنا لضربنا لذلك الأمثال ^(١) .

٨ - نبح الأمويون في تشويه سمعة الحسن من الوجهة السياسية ، ولكنهم لم ينجحوا في تشويه سمعة الحسين ، ولذلك رأينا الشعراء يبدئون ويميدون في الثناء على هذا الشهيد ، ورأينا منهم من يتمثل مصرعه في الأحلام روى الثعالبي عن أحد معاصريه قال : أخبرنى على بن بشر أنه كان له جَدٌّ لأم يُعرف بكولان ، وكان هو من أهل الأدب والكتابة ، وحسن الشعر والخطابة قال لى : حجبت سنة من السنين ، وجاورت بمكة حرسها الله ، فاعتلت علة تطاولت بى ، وضاق معها خلقي ، ثم صلحت منها بعض الصلاح ، ففكرت فى أئى عملت فى أهل البيت تسعاً وأربعين قصيدة مدحاً ، فقلت : أكلها خمسين ، ثم ابتدأت فقلت :

* بنى أحمد يا بنى أحمد *

ثم أرتج على فلم أقدر على زيادة ، فعظم ذلك علىّ ، واجتهدت فى أن أكمل البيت فلم أقدر ، فحدث لى من النعم بهذه الحالة ما زاد على غمى بإضافتى وعلىّ ، فنمت اهتماماً بالحال ، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فجئت إليه ، فشكوت ما أنا

(١) صنع الأمويون مع على بن أبى طالب أشنع مما صنعوا مع ابنه الحسن : فقد اتهموه بالبطنة وضعف الرأى ، وأكثروا من وصف معاوية بالسياسة والدهاء ، ومضى الناس على هذه الآراء ، ويقابل هذا ما وقع من العلويين فى حق يزيد بن معاوية ، فقد رموه بالسفه والطيش ، ومضى الناس أيضاً على هذا الرأى ، فعلى فى الهاشمين رجل ساذج ، ويزيد فى الأمويين لإنسان أحمق ، وكذلك أفسد الحزبان آراء الناس فلم يصح لأحد فى علمهم أديم .

وأغلب الظن أن ساسة العصر الحاضر سيكون حظهم فى التاريخ كخط الساسة فى العصور الماضية : فإن صور النضال السياسى تتشابه فى أكثر الأجيال ، وكذلك تتشابه حظوظ السياسيين فى التاريخ .

فيه من الاضافة ، وما أجده من العلة ، وأخرى من القلة ، فقال لى : تصدّق
يوسع الله عليك ، وصمّ يصحّ جسمك ، فقلت له : يا رسول الله ، وأعظم مما
شكوته إليك أننى رجل شاعر أتشیع ، وأخص بالحبّة ولدك الحسين ، وتداخلى
له رحمة لما جرى عليه من القتل ، وكنت قد عملت فى أهل بيتك تسعاً
وأربعين قصيدة ، فلما خاوت بنفسى فى هذا الموضع حاولت أن أكملها خمسين
فبدأت قصيدة قلت فيها مصراعاً وأرتج على إجازته ، ونفر عنى كل ما كنت
أعرفه ، فما أقدر على قول حرف . قال : فقال لى قولاً نحا فيه إلى أنه ليس هذا
إلى ، لقول الله تعالى : وما علمناه الشعر وما ينبغي له ، ثم قال لى : اذهب إلى
صاحبك ، وأوماً بيده الشريفة إلى ناحية من نواحي المسجد ، وأمر رسولا أن
يمضى بى إلى حيث أوماً ، فمضى بى الرسول إلى ناس معهم على بن أبى طالب
رضى الله عنه ، فقال له الرسول : أخوك وجّه إليك بهذا الرجل فاسمع ما يقوله
قال : فسلمت عليه ، وقصصت عليه قصتى كما قصصت على النبی صلى الله عليه
وسلم ، فقال لى : فما المصراع ؟ فقلت : « بنى أحمد يا بنى أحمد » فقال للوقت قل :

❖ بكت لكمو عمد المسجد ❖

يَبْثُرَبَ وَأَهْزَرَ قَبْرُ النَّبِيِّ	أَبِى الْقَاسِمِ السَّيِّدِ الْأَصِيدِ
وَأَظْلَمَتِ الْأَفْقُ الْأَفْقُ الْبِلَادِ	وَذُرَّ عَلَى الْأَرْضِ كَالْأَغْدِ
وَمَكَّةُ مَادَتْ بِبَطْحَاهَا	لِأَعْظَامِ فِعْلِ بَنِي الْأَعْبُدِ
وَمَالَ الْحَطِيمُ بِأَرْكَانِهِ	وَمَا بِالْبَنِيَّةِ مِنْ جَلْمِدِ
وَكَانَ وَلِيكُمْ خَاذِلًا	وَلَوْ شَاءَ كَانَ طَوِيلَ الْيَدِ

قال : و ردها على ثلاث مرات ، فانتبهت وقد حفظتها ^(١) .

٩ - ومن أقوى مظاهر التصوف في حب أهل البيت ما كان يقع من أنصارهم في حضرة معاوية . ومن شواهد ما وقع من أبي الطفيل ، وكان معاوية يتشهى أن يراه فلم يزل يكتبه ويلطف له حتى قدم عليه ، فجعل يسأله عن أمر الجاهلية ، ودخل عليه عمرو بن العاص ونقر معه ، فقال لهم معاوية : أما تعرفون هذا ؟ هذا خليل أبي الحسن ! ثم قال : يا أبا الطفيل ، ما بلغ من حبك لعلي ؟ قال : حب أم موسى موسى ، قال : فما بلغ من بكائك عليه ؟ قال : بكاء المعجوز الشكلي والشيخ الرقوب ، وإلى الله أشكو التقصير !

قال معاوية : إن أصحابي هؤلاء لو كانوا سئلوا عنى ما قالوا فى ما قلت فى صاحبك !

قالوا : إذن والله لا نقول الباطل .

فقال لهم معاوية : لا والله ، ولا الحق تقولون ! ^(٢)

وحدثوا أن معاوية كان يسمر مع جماعة من بنى أمية ، فذكر اسم الزرقاء ابنة عدى بن قيس الهمدانية ، وكانت شهدت مع قومها بصفين ، فقال جلسائه أياكم يحفظ كلامها ؟ قال بعضهم : نحن نحفظه يا أمير المؤمنين . قال : أشيروا على فى أمرها ، فقال بعضهم : نشير عليك بقتلها . قال : بئس الرأى أشرت به على . أيحسن بمثل أن يتحدث عنه أنه قتل امرأة بعد ما ظفر بها ؟ وكتب إلى عامله بالكوفة ، فأوفدها إليه ، ثم قال لها بعد الترحيب : أتدرين فيم بعثت إليك ؟ قالت : أتنى لى بعلم ما لم أعلم ! قال : ألتست الراكبة الجمل الأحمر ،

(١) انظر بتيمة الدهر ج ١ ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ . (٢) مذهب الأغا ج ٦ ص ٣٦ .

والواقفة بين الصّفين تحضين على القتال ، وتوقدين الحرب ، فما حملك على ذلك ؟
قالت : يا أمير المؤمنين ! مات الرأس ، وُتِرَ الذّنب ، ولم يعد ماذهب ، والدهر
ذو غير . ومن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعده الأمر . قال لها معاوية :
أتحفظين كلامك يومئذ ؟ قالت : لا والله لا أحفظه ، ولقد أنسيته . قال : لكني
أحفظه ، لله أبوك حين تقولين :

« أيها الناس ! ارجعوا وارجعوا . إنكم قد أصبحتم في فتنة غشتكم جلايب
الظلم ، وجارت بكم عن قصد المحجة ، فإلها فتنة عمياء . صماء ، بكاء ، لا تسمع
لناعتها ، ولا تنساق لقائدها . إن المصباح لا يضيء في الشمس ، ولا تنير
الكواكب مع القمر ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد ، ألا من استرشد أرشدناه
ومن سألنا أخبرناه » .

« أيها الناس ! إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها : فصبراً يامعشر
المهاجرين على النقص ، فكأن قد اندمل شعب الشتات ، والتأمت كلمة الحق
ودمغ الحق الباطل ، فلا يجهلن أحد فيقول : كيف وأنتي ، ليقضى الله أمراً كان
مفعولاً ، ألا وإن خضاب النساء الحناء ، وخضاب الرجال الدماء ! ولهذا
اليوم ما بعده » .

ثم قال لها : والله يازرقاء لقد شركت علياً في كل دم سفكه .
فقالت : أحسن الله شارتك ، وأدام سلامتك ، فملك بشر بخير وسرّ جليسه
قال : أو يسرك ذلك ؟

فقالت : نعم والله لقد سررت بالخبر ، فأني لك بتصديق الفعل .
فضحك معاوية وقال : والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب من حبكم له في

حياته ! اذ كرى حاجتك . فقالت : يا أمير المؤمنين ! آليت على نفسى أن لا أسأل أميراً أعنت عليه أبداً^(١) .

وحدثوا أيضاً أن معاوية حج فسأل عن امرأة من بنى كنانة كانت تنزل بالحجون ، يقال لها دارمية الحجونية ، وكانت سوداء كثيرة اللحم ، فاخبر بسلامتها فبعث إليها فحىء بها ، فقال : ما جاء بك يا ابنة حام ؟ فقالت لست لحام ، ان عبتنى ، أنا امرأة من بنى كنانة قال : صدقت . أتدريين لم بعثت إليك ؟ قالت : لا يعلم الغيب الا الله . قال : بعثت إليك لأسألك علام أحببت علياً وأبغضتنى ، وواليتي وعاديتي ؟ قالت : أوتعفينى ؟ قال : لا أعفيك . قالت : أما اذ آيت فانى أحببت علياً على عدله فى الرعية ، وقسمه بالسوية ، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالأمر ، وطلبك ما ليس لك بحق ، وواليت علياً على ما عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم من الولاء وحبه المساكين ، وإعظامه لأهل الدين ، وعاديتك على سفكك الدماء ، وجورك فى القضاء ، وحكمك بالهوى ، قال : فلذلك انتفخ بطنك ، وعظم ثدياك ، وربت عجيزتك ! قالت : يا هذا بهند والله كان يضرب المثل فى ذلك ، لا بى ! قال معاوية : ياهذه اربعى فانا لم نقل إلا خيراً : إنه إذا انتفخ بطن المرأة تتم خلق ولدها ، وإذا عظم ثدياها تروى رضيعها ، وإذا عظمت عجيزتها رزُن مجلسها ، فرجعت وسكنت . ثم قال : ياهذه : هل رأيت علياً ؟ قالت : إى والله ! قال : فكيف رأيتيه ؟ قالت رأيتيه والله لم يفتنه الملك الذى فتتك ، ولم تشغله النعمة التى شغلتك ! قال : فهل سمعت كلامه ؟ قالت : نعم ، والله ! فكان يحلو القلوب من العمى ، كما يحلو الزيت صدأ الطست

قال : صدقت . فهل لك من حاجة ؟ قالت : أو تفعل اذا سألتك ؟ قال : نعم .
قالت : تعطينى مائة ناقة حمراء فيها خلها وراعيها . قال : تصنعين بها ماذا ؟
قالت : أغذو بالبنها البصغار ، وأستجي بها الكبار ، وأكتبسب بها المكارم ،
وأصلح بها بين العشائر . قال : فان أعطيتك ذلك ، فهل أحلّ عندك محلّ
على بن أبى طالب ؟ قالت : سبحان الله ! أو دونه ! فأنشأ معاوية يقول :

إذا لم أعذ بالحلم منى عليكم فمن ذا الذى بعدى يؤمّل للحلم
خذيها هنيئاً واذكرى فعل ماجد جزاك على حرب العداوة بالسلم
ثم قال : أما والله لو كان علىّ حياً ما أعطاك منها شيئاً !
قالت : لا والله ، ولا وبرّة واحدة من مال المسلمين !^(١) .

١٠ - وهذه المواقف الثلاثة نظائر كثيرة فى الأدب العربى ، وهى
تحتل ثلاثة فروض :

الفرض الأول : أن تكون صحيحة ، وهى عندئذ شاهد صحيح على التصوف
فى حبّ على . والوفاء للميت بمثل هذه الصورة لا يكون إلا من قلوب عامرة
بالاخلاص ، ولا سيما إذا تذكرنا أن ذلك الميت انهزم فى ميدان السياسة وانهزم
ناصره ، وتمتّ لعدوّه الغلبة فاستأثر بالحول والطول .

والفرض الثانى : أن تكون من وضع العلويين ، وهى عندئذ صورة من
أهوائهم فى حبّ أهل البيت .

والفرض الثالث : أن تكون من وضع الأمويين ، ويكون الفرض من
وضعها تزكية آل حرب ووصفهم برجاحة الأحلام ، فهى أيضاً صورة لما كان

مفروضاً من وفاء بعض الناس لأهل البيت . والفرض الأخير لا يمكن قبوله في جميع الحالات : ففي بعض المواقف قذفُ لآلِ حرب ، ورمىُ بالبغى والفسوق ، وتذكيرُ بمخازيهم في الجاهلية والاسلام ، وفي هذه الحال لا يقبل غير الفرض الثاني : لأن معاوية مهما حلم فعنده هيبة الملك ، وهي كفيلة بأن تقف سفه الخطاب عند الحد المعقول .

١١ - ويشبه هذه المواقف ما أنطق به الرواةُ الخليفةُ المأمون في مدح عليّ بن أبي طالب ، وأغلب الظن عندنا أن ذلك مصنوع بأيدٍ هاشمية ، وهذا الصنع له دلالة على أيّ حال ، خماسة الشيعة كانت في البداية حماسة سياسية ، ثم انقلبت إلى حماسة روحية ، فهم يبدئون ويعيدون في مدح أهل البيت بقلوب غمرها التصوف العميق .

١٢ - على أن هذه المواقف ليست كلّ شيء ، فهناك شعراء قضوا أعمارهم في الدفاع عن أهل البيت ، ولقوا في ذلك من المحن والمكاره ما يدل على نصيبهم من صدق الوجدان : أمثال الكميت ، ودعبل ، وأبي الطفيل ، وهناك شعراء لم يقفوا حياتهم على هذا الفن ، ولكن كانت لهم فيه مواقف موصولة بصدق اليقين : أمثال الشريف الرضى ، ومهيار ، وسيكون لهؤلاء مكان في هذا الكتاب .

١٣ - وهناك شعراء أطالوا القول في مدح أهل البيت ، وهم شعراء الدولة الفاطمية ، ولكن هؤلاء صدقهم مشوب بروح النفع : لأن الفاطميين كانوا أقاموا مُلكاً عظيماً في مصر والمغرب ، وانتصارهم كافٍ لتشكيكنا في عواطف من مدحهم من الشعراء .

وليس معنى ذلك أن مدح المتتصر يخلو من الصدق ، لا ، ولكن معناه أنه بعيد من التصوف لأنه متهم بحب النفع ، وهيهات أن يقف مثل ابن هانيء الأندلسي في صف شاعر مثل الكميت !

إن أمثال ابن هانيء يمدحون أهل البيت وهم محميون بقوة الفواطم ، والمنافع تجري حولهم من كل جانب ، أما أمثال أبي الطفيل والكميت فكانوا يمدحون أهل البيت ، والدنيا من حولهم مظلمة ، والأنس في قلوبهم مفقود ، فهم أوفياء يأسون ، والوفاء من اليأس خُلُقٌ عظيم .

وفي هذه الحقيقة ما يعنيننا عن الجواب إذا سئلنا عن إغفال كثير من الشعراء الذين مدحوا أهل البيت . إن علامة التصوف هي الشجاعة ، والشجاعة لا يُحتاج إليها إلا في مواطن الخوف ، وهي عندئذ دليل على حفظ العهد ، وصدق اليقين .



الفصل الثالث

الكُميت بن زيد الأسدي

مولده وطفولته — بدايته الشعرية — اهتمام الرواة والنقاد بشعره
— اخوانياته ووفائه — أهاليه ومعرفة بالأنساب والأشعار
وأحوال الجاهلية — حبه لأهل البيت — اعتذاره عن مدح
بني أمية .

١ — ولد الكُميت بن زيد بالكوفة سنة ستين للهجرة . وبعض مَنْ
ترجموا له لا يعمِّتون سنة مولده ، وإنما يقولون : ولد أيام مقتل الحسين . وعند
تأمل أساليب العرب في تقييد المواليد نجد لهم ملحظاً ظريفاً في ذلك . فهم
يقولون : إن عمر بن أبي ربيعة ولد في الليلة التي مات فيها عمر بن الخطاب ليصح
لهم أن يعمِّبوا بهذه النكتة ، فيقولوا : فأى خير رُفِع ، وأى شر وُضِع ! لأن
عمر الذي مات كان مثال الوقار ، أما عمر الذي ولد فكان مثال الطيش ،
وكذلك قالوا : إن الكُميت ولد في أيام مقتل الحسين ، ليشيروا إلى أنه جاء إلى
الدنيا في أيام الأحزان العلوية ، وأنه بقصائده الهاشميات سيشفي الأحزان التي
أحدثت بالعالم الاسلامي يوم جاء إلى الوجود .

٢ — مرت طفولة الكُميت بين النباهة والحمول ، فلم يُعرف عنها شيء
ذو بال ، ولعل أول مالفت النظر إلى ذكائه ما وقع له مع الفرزدق ، فقد حدثوا
أنه وقف وهو صبي على الفرزدق وهو ينشد أشعاره ، فراع الفرزدق حسن

استماع الكميت ، وأخذته الزهو والخيلاء ، فلما فرغ من إنشاده أقبل على الصبي ، وقال : هل أعجبتك شعري يا بني ؟ فأجاب الكميت : لقد طربت لشعرك طرباً لم أشعر بمثله من قبل ! فانتشى الفرزدق ، وأخذ العُجب منه كل مأخذ ، وقال للصبي في نشوة المفتون : أيسرك أني أبوك ؟ فقال الكميت : أما أبي فلا أريد به بدلاً ، ولكن يسرنى أن تكون أمي ! فخصِر الفرزدق ، وقال : مامرّ بي مثلها .

وهذه النادرة مع شاعري في منزلة الفرزدق كانت كفيلة بأن تجعل لذلك الطفل شهرة بين الناس .

٣ - ويأبى الرواة إلا أن يجعلوا الكميت من الأعاجيب : فهم لا يريدون أن يجعلوه شاعراً كسائر الشعراء ، يبدأ بداية عادية ، ثم يتساقى فيسمو إلى منازل الشعر الرفيع ، وإنما يزعمون أنه نبغ دفعة واحدة ، ويدّكرون أن عمه كان رئيس قومه ، وأنه قال يوماً : يا كميت لم لاتقول الشعر ؟ ثم أخذه فأدخله الماء ، وقال : لا أخرجك منه أو تقول الشعر ، فرت به قنبرة ، فأنشد متمثلاً :

يَا لَكَ مِنْ قُنْبُرَةٍ بِمَعْمَرٍ خَلَا لَكَ الْجَوُّ فَبِيضِي وَأَصْفَرِي
وَتَقَرِّي مَا شِئْتَ أَنْ تُنْفَرِي

فقال له عمه ورحمه : قد قلت شعراً فاخرج ! فقال الكميت : لا أخرج أو أقول لنفسي ! فما رام حتى عمل قصيدته المشهورة ، وهي أول شعره ، ثم غدا على عمه فقال : اجمع لي العشيرة ليسمعوا ، فجمعهم له فأنشد :

طَرَبْتُ وَمَا شَوْقًا إِلَى الْبَيْضِ أَطْرَبُ وَلَا لَعَبًا مِنِّي وَذُو الشَّوْقِ يَلْمَبُ^(١)

وسنرى أنه ليس بمقول أن تكون هذه القصيدة أول شعره ، لأن فيها من القوة ما يقطع بأنها ليست بداية شعرية ، وإنما هي صرخة شاعر فحل طال منه الصيال .

٤ - تترك طفولة الكميت وصباه ، ونذكر أن شاعريته ملأت الدنيا ضجيجاً ، وأصبح في عصره وبعد عصره مضرب الأمثال ، فقد عرض بديع الزمان الهمداني لاسمه في رسالة الذهب والأدب فقال :

« واحتيج في البيت ، إلى شيء من الزيت ، فأنشدت ألفاً ومائتي بيت ، من شعر الكميت ، فلم يفتن » .

وعُني ابن الأعرابي بدرسه ، وكان ابن الأعرابي لا يشغل نفسه إلا بالشعراء الفحول الذين يعرفون الأنساب ، أو يمتنون بعرق إلى الأساليب الجاهلية وكان الجاهليون عندهم أئمة البيان .

ولم يُفتن ابن الأعرابي بدرس شعر الكميت فحسب ، بل كان يذكر به من يفتلون عنه حين يعرضون عليه ما عرفوا من معاني الشعراء ^(١) .

وقد شهد له الفرزدق بقوة الشاعرية ، فانه لما قدم الكوفة أسرع إليه الكميت ، فقال له : إني قد قلت شيئاً فاسمعه مني يا أبا فراس ، قال : هاتنه ، فأنشده قوله في أهل البيت :

طَرَبْتُ وَمَا شَوْقًا إِلَى الْبَيْضِ أَطْرَبُ	وَلَا لَعِبًا مِنِّي وَذُو الشَّوْقِ يَلْعَبُ
وَلَمْ تُلْمِنِي دَارًا وَلَا رَسْمُ مَنْزِلِ	وَلَمْ يَتَطَرَّبْنِي بَنَاتُ مُخَضَّبِ
وَلَا السَّانِحَاتُ الْبَارِحَاتُ عَشِيَّةَ	أَمَرَ سَلِيمُ الْقَرْنِ أَمْ مَرَّ أَعْظَبِ

وَلَكِنْ إِلَى أَهْلِ الْفَضَائِلِ وَالنُّهَى وَخَيْرِ بَنِي حَوَاءَ وَالْخَيْرِ يُطْلَبُ
إِلَى التَّفَرِّ الْبَيْضِ الَّذِينَ بِحُبِّهِمْ إِلَى اللَّهِ فِيمَا نَالَـنِي أَتَقَرَّبُ
بَنِي هَاشِمٍ رَهْطِ النَّبِيِّ فَإِنِّـنِي بِهِمْ وَلَهُمْ أَرْضِي مِرَارًا وَأَغْضَبُ
خَفَضْتُ لَهُمْ مِنِّي جَنَاحِي مَوْدَّةً إِلَى كَنْفِ عِطْفَاهُ أَهْلُ وَمَرْحَبُ
وَكُنْتُ لَهُمْ مِنْ هُوَالَاكَ وَهُوَالَا مَجْنَأًا عَلَى أَنِّي أَذْمُ وَأُقْصَبُ
وَأَرْمَى وَأَرْمَى بِالْعَدَاوَةِ أَهْلَهَا وَإِنِّي لَأَوْذَى فِيهِمْ وَأَوْتَبُ

فقال له الفرزدق : قد طربت إلى شيء ما طرب إليه أحد قبلك ، فأما نحن فلا نطرب ، ولا طرب من كان قبلنا إلا إلى ما تركت أنت الطرب إليه ، ثم قال له : يا ابن أخي أذ غ ثم أذ غ ، فأنت والله أشعر من مضى وأشعر من بقى ^(١) .

وشهادة الفرزدق لها قيمة : فقد كان في المتقدمين من يرى الشعراء أصحاب الحق الأول في نقد الشعر لأنهم أعرف بعيون الكلام ، وأبصر بالمآزق التي يتعرض لها الشعراء .

وبلغ من شاعرية الكميت أن صارت ديابجته عنواناً عليه يعرفه بها الرواة ، وإن لم يقرن اسمه إلى شعره : فقد حدثوا أن هشاماً اتهم خالد بن عبد الله ، وكان يقال له : (إنه يريد خلعتك) فوجدَ بياب هشام يوماً رقعة فيها شعر ، فدُخِلَ بها على هشام فقرئت عليه ، وهي :

تَأْتَقَ بَرْقٌ عِنْدَنَا وَتَقَابَلَتْ أَنَا فِ لِقْدَرِ الْحَرْبِ أَخْشَى أَتَقْبَلَهَا
فَدُونَكَ نِدَرِ الْحَرْبِ وَنَهَى مُقَرَّةً لِكَفْيِكَ وَأَجْعَلْ دُونَ قَدْرِ جَمَاهَا

وَلَنْ تَنْتَهِيَ أَوْ يَبْلُغَ الْأَمْرُ حَدَّهُ فَتَجْشَمَ مِنْهَا مَا جَشِمْتَ مِنَ الْبَرِّ
فَنَلَّهَا بِرِسْلٍ قَبْلَ أَنْ لَا تَنَالَهَا تَلَفَ أُمُورَ النَّاسِ قَبْلَ تَفَاقُمِ
بِسُورَاءٍ هَرَّتْ نَحْوَ خَالِكَ خَالَهَا^(١) فَمَا أَبْرَمَ الْأَقْوَامُ يَوْمًا لِحِيلَةٍ
بِعُقْدَةٍ حَزَمَ لَا تَخَافُ أَنْحِلَهَا وَقَدْ تُخْبِرُ الْحَرْبُ الْعَوَانَ بِسِرِّهَا
مِنْ الْأَمْرِ إِلَّا قَلْدُوكَ أُحْتِمَالَهَا وَإِنْ لَمْ تَبْجَحْ مَنْ لَا يُرِيدُ سُوءَهَا

فأمر هشام أن يجمع له مَنْ بحضرته من الرواة، جُمِعُوا فأمر بالأيات فقرأت عليهم فقال : سَمِعَ مَنْ تُشَبِّه هذه الأيات ؟
فأجمعوا جميعاً من ساعته أنه كلام الكميت .

فقال هشام : نعم ! هذا الكميت ينذرني بخالد بن عبد الله^(٢) .
ودلالة الأسلوب على صاحبه مظهر من مظاهر قوة الشخصية بغض النظر
عن القيمة الذاتية لآثار الكتاب والشعراء .
وكان بشار يتحامل على الكميت ، ويقول : ما كان الكميت شاعراً ، فقليل
له : كيف ؟ وهو الذي يقول :

أَنْصِفْ أَمْرِي مِنْ نِصْفٍ حَتَّى يَسْبُغَنِي لَعَمْرِي لَقَدْ لَاقَيْتُ خُطْبًا مِنْ الْخُطْبِ
هَنِيئًا إِكْلَبَ أَنْ كَلَبًا يَسْبُغَنِي وَأَنْتَى لَمْ أَرُدُّ جَوَابًا عَلَى كَلْبِ

فبُهِتَ بشار ، وأجاب بجواب سخيف^(٣) .
وتحامل بشار على الكميت ليس بشيء ، فان الشعراء قد يجازى بعضهم

(١) سورة بضم الدين : موضع بالجزيرة . (٢) مهذب الأغاني ج ٥ ص ٢٠٦ .

(٣) انظر الأغاني ج ٣ ص ٢٢٥ .

بعضاً أسوأ الجزاء ، وقد يكون من أسباب حقد بشار على الكميت رغبته في أن يفيظ أشياعه من الرواة والنقاد . وما قيمة تحمل بشار بجانب شهادة الجاحظ الذي قال : ما فتح للشيعمة الحجاج إلا الكميت بقوله :

فَإِنْ هِيَ لَمْ تَصْلُحْ لِحَيِّ سِوَاهُمْ فَإِنْ ذَوِي الْقُرْبَى أَخْثُ وَأَوْجَبُ
يَقُولُونَ لَمْ يُورَثْ وَلَوْ لَا تَرَاثُهُ لَقَدْ شَرِكْتَ فِيهِ بِجَيْلٍ وَأَرْحَبُ^(١)

وكان الجاحظ من أعلم الناس بتطور الحركات العقلية في الأحزاب الاسلامية . ومن أقرب الشهادات إلى معاني الوفاء ما وقع يوم التقت ربياً بنت الكميت ، وفاطمة بنت أبان بن الوليد بمكة ، وهما حاجتان ، فتساءلتا حتى تعارفتا ، فدفعت بنت أبان إلى بنت الكميت خلخاخي ذهب كانا عليها ، فقالت لها بنت الكميت : جزاكم الله خيراً يا آل أبان ! فما تتركون بركم بنا قديماً ولا حديثاً ، فقالت لها بنت أبان : بل أتم فجزاكم الله خيراً ، فانا أعطيناكم ما يبيد ويفنى ، وأعطيتمونا من المجد والشرف ما يبقى أبداً ولا يبيد ، يتناشده الناس في المحافل ، فيحيي ميت الذكر ، ويرفع بقية العقب^(٢) .

وكان الكميت أجاد مدح أبان بن الوليد .

وكان بنو أسد يعدّون الكميت من مفاخرهم ، ويقولون : فينا فضيلة ليست في العالم ، ليس منزل منا إلا وفيه بركة وراثة الكميت لأنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ، فقال له أنشدني :

* طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب *

فأنشده فقال له : بوركت وبورك قومك ^(١) !
وحدث أبو عكرمة الضبي عن أبيه فقال : أدركت الناس بالكوفة يقولون .
من لم يرو : (طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب) فليس بهاشمي .
ومن لم يرو : (ذكر القلب إلفه المهجورا) فليس بأموي .
ومن لم يرو : (هلا عرفت منازل الأبرق) فليس بمهمل .
ومن لم يرو : (طربت وهاجك الشوق الحثيث) فليس بثقفي ^(٢) .
وكان إلى هذا كله يوزن رأيه في الحكم على الشعراء ، وقد أثبت صاحب
الأغاني رأيه في شعر أمية بن أبي الصلت ^(٣) .

وكان هو نفسه مفتوناً بالإجادة ، فقد قيل له : إنك قلت في بني هاشم
فأحسن ، وقلت في بني أمية أفضل ، فأجاب : إنى إذا قلت أحبت
أن أحسن ^(٤) .

وقد استشهد النحاة بشعره غير مرة ، وإن كره ذلك المفضل الذي سلكه مع
كثير ، وذى الرمة والطرمّاح ^(٥) على حين كان يراه معاذ الهراء أشعر
الأولين والآخرين ^(٦) .

تلك منزلة الكمية عند القدماء ، فإن سألتهم أين منزلته في العصر الحديث
فانا نذكر أنه آخر من يهتمّ به أساتذة الأدب في المعاهد العلمية ، وقد سبق
المستشرقون إلى إحياء شعره فطبعوا هاشمياته في لندن سنة ١٩٠٤ ، وكتب لها
أحدهم مقدمة وتصحيحات باللغة الألمانية ^(٧) .

(١) شرح شواهد الغني ص ١٣ . (٢) شواهد الغني ص ١٤ .

(٣) الأغاني ج ٤ ص ١٢٢ . (٤) مهذب الأغاني ج ٥ ص ٢٠٩ .

(٥) شرح شواهد الغني ص ١٤ . (٦) مهذب الأغاني ج ٥ ص ٢١٠ .

(٧) انظر الهاشميات في فهرس الأدب بدار الكتب المصرية .

٥ - كانت حياة الكميت موزعة بين طائفة من الأهواء والميول ، فكان من الوجهة النفسية رجلا يعرف حقوق الاخوان ، فيصطفى من يصطفى على أساس العقل ، وقد لاحظ معاصروه أن ما كان بينه وبين الطرمّاح من المودة لم يكن بين اثنين على تفاوت المذهب والعصبية فقليل له : فيم اتفقما هذا الاتفاق مع اختلاف سائر الأهواء ؟ فقال : اتفقنا على بغض العامة ^(١) .

ومعنى هذا أن قرابة العقل كانت تجمع بين الرجلين ، وتلك لفظة خلّقية لا يدرك قيمتها إلا الأقلون . ومن أجل هذا اهتم ابن قتيبة برواية شعره في باب الاخوان من عيون الأخبار . فروى له في باب المودة بالتشاكل هذه الأبيات :

وَمَا أَنَا بِالنُّكْسِ الدِّنِيِّ وَلَا الَّذِي إِذَا صَدَّ عَنْهُ ذُو الْمَوَدَّةِ يَقْرُبُ
وَلَكِنَّهُ إِنْ دَامَ دُمْتُ وَإِنْ يَكُنْ لَهُ مَذْهَبٌ عَنِّي فَيَلِي عَنْهُ مَذْهَبُ
أَلَا إِنْ خَيْرَ الْوُدِّ وَدٌّ تَطَوَّعَتْ بِهِ النَّفْسُ لَا وَدٌّ أَتَى وَهُوَ مُتَعَبٌ

وروى له في باب شرار الاخوان :

وَقَدْ يَحْذُلُ الْمَوْلَى دُعَائِي وَيَجْتَدِي أَذَاتِي وَإِنْ يَعْدِلَ بِهِ الضِّيمُ أَغْضَبِ
فَأُوْنِسُ مِنْ بَعْضِ الصَّدِيقِ مَلَالَةَ اللَّهِ نُوٌّ فَأَسْتَبْقِيَهُمُ بِالْتَّجَنُّبِ

ويتصل بصدق الأخوة في نفسه ما وقع له يوم مدح الحكم بن الصلت بقصيدته :

* طربت وهاجك الشوق الحثيث *

فانه لما فرغ من إنشاده دعا الحكم بخازنه ليعطيه الجائزة . ثم دعا بأبان بن الوليد فأدخل عليه وهو مكبل بالحديد ، فطالبه بما عليه من المال ، فالتفت الكميت فرآه فدمعت عيناه ، وأقبل على الحكم ، فقال : أصلح الله الأمير ! اجعل جائزتي لأبان .

وكان حوشب بن يزيد الشيباني بالجلس ، وكان يكره الكميت وأبان معاً وساءه أن يشفع الكميت لأبان ، فقال : أصلح الله الأمير ! أتشفع حمار بني أسد في عبد بجيلة ؟ .

فقال له الكميت : لئن قلت ذاك فوالله ما فررنا عن آبائنا حتى قتلوا ، ولا نكحنا حلائل آبائنا بعد أن ماتوا وكان يقال إن حوشباً فرّ عن أبيه في بعض الحروب ، فقتل أبوه ، ونجا هو .
وفيه يقول الشاعر :

نَجَّى حُشَاشَتَهُ وَأَسْلَمَ شَيْخَهُ لَمَّا رَأَى وَقَعَ الْأَسِنَّةَ حَوْشَبُ^(١)

٦ - وكما كان الكميت عذب المودة كان مرّ العداوة ، وقد هاجى فريقاً من الشعراء ، وتعرض للحبس بسبب هجائه لبعض الأمراء ، عرض له الكلبي بهذين البيتين :

مَا سَرَّنِي أَنَّ أُثِيَّ مِنْ بَنِي أُسْدٍ وَأَنَّ رَبِّي نَجَّانِي مِنَ النَّارِ
وَأَنَّهُمْ زَوَّجُونِي مِنْ بَنَاتِهِمْ وَأَنَّ لِي كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ دِينَارٍ

فأجاب الكميت :

يَا كَلْبُ مَالِكَ أُمِّ مِنْ بَنِي أَسَدٍ مَعْرُوفَةٌ فَاحْتَرِقِ يَا كَلْبُ بِالنَّارِ
لَكِنَّ أُمَّكَ مِنْ قَوْمٍ شَتَّنتَ بِهِمْ قَدْ قَتَعُوا قِنَاعَ الْخِزْيِ وَالْعَارِ^(١)

وحمله غرامه بالهجاء على التفوق في علم الأنساب ، فانه لا شيء أخطر في
الخصومات من معرفة قديم المثالب حين تضطرم نار السباب ، ويظهر أن
الكُميت كان عني على الأولين من النسابين ، فقد نقل ياقوت أن ابن عبدة
النساب قال :

« ماعرف الذُّنُوب أنساب العرب على حقيقة حتى قال الكُميت الزاريات
فأظهر بها علماً كثيراً ، ولقد نظرت في شعره فما رأيت أحداً أعلم منه
بالعرب وأيامها^(٢) » .

وفي الأغاني أن الكُميت وحماداً الراوية اجتماعاً في مسجد الكوفة
فتذاكرا أشعار العرب وأيامها . فخالفه حماد في شيء ونازعه . فقال الكُميت :
أتظن أنك أعلم مني بأيام العرب وأشعارها ؟ قال : ما هو إلا الظن ؟ هذا والله
اليقين ! فغضب الكُميت ثم قال : لَكُمْ شاعر بصير يقال له عمرو بن فلان
تروى ؟ ولكم شاعر أعور أو أعمى اسمه فلان بن عمرو تروى ؟ فقال حماد
قولاً غير مقنع . فجعل الكُميت يذكر رجلاً رجلاً من صنف صنف ، ويسأل
حماداً هل يعرفه ؟ فإذا قال لا ، أنشده من شعره جزءاً جزءاً حتى ضجر
السامعون . ثم قال له الكُميت : فاني سألك عن شيء من الشعر فسأل عن
قول يزيد بن طعمة الخطمي :

(١) مهذب الأغاني ج ٥ ص ٢١١ . (٢) معجم الأدباء ج ١ ص ٤١٠ .

طَرَحُوا أَصْحَابَهُمْ فِي وَرْطَةٍ قَذَفَكَ الْمَقَلَّةَ شَطْرَ الْمُعْتَرِكِ

فلم يعلم حماد تفسيره ، فسأله عن قول الآخر :

تَذَرِينَنَا بِالْقَوْلِ حَتَّى كَأَنَّمَا تَذَرِينَ وَلَدَانَا تَصِيدُ الرَّهَادِنَا

فأخبر حماد ، فقال له الكميت : أجبناك إلى الجمعة الأخرى ، فجاء حماد ولم يأت بتفسيرهما ، وسأل الكميت أن يفسرها له ، فقال : المقلة حصاة أو نواة من نوى المقل يحملها القوم معهم إذا سافروا وتوضع في الاناء ، ويصب عليها الماء حتى يغمرها فيكون ذلك علامة يقتسمون بها الماء ، والشطر : النصيب ، والمعتك (تدريننا) يعنى النساء : أى ختلنا فرميننا ، والرهادن : طير بمكة كالمصافير^(١) . ولم يقف الكميت بعلمه عند أنساب العرب وأشعارها ، بل مضى فعرف أخبار الناس في الجاهلية ، وكانت له جدتان أدركتا ذلك العهد ، فكانتا تصفان له البادية وأمورها ، وتخرانه بأخبار الناس في الجاهلية ، فاذا شك في شعر أو خبر عرضه عليهما فتخبرانه عنه . ومن هنا كان علمه بالبادية في أكثره علم سماع لا علم معاينة ، وقد تنبه إلى ذلك ذو الرمة حين أنشده بائيته التي عارض بها قصيدته .

* مابال عينك منها الماء ينسكب *

فقال له : « ويحك ! انك لتقول قولاً ما يقدر إنسان أن يقول لك أصبت ولا أخطأت ، وذلك أنك تصف الشيء : فلا تجيء به ، ولا تقع بعيداً منه ، بل تقع قريباً منه » .

فقال الكميت : أو تدري لم ذلك ؟ قال : لا . فقال : لأنك تصف شيئاً رأيته بعينك ، وأنا أصف شيئاً وُصف لي وليست المعاينة كالوصف ^(١) .
وهذا كله يدلنا على أن الكميت استعد للثقافة الشعرية استعداداً بلغ فيه أقصى الجهد ، وكثير من شعره يجري مجرى التاميح لما وقع بين القبائل ، على نحو ما نرى في هذا البيت :

كَأَنَّ النُّعْطَامِطَ مِنْ غُلَيْهَا أَرَا حِيزُ أَسْلَمَ تَهْجُو غِفَارًا ^(٢)

٧ — — — — — ننتقل إلى الأهم من أمر الكميت ، وهو حبه لأهل البيت ، وليس من المغالاة أن نقول : إن حبه للرسول وأهله كان أقوى ما عُرِفَ من عواطف الشعراء لذلك العهد ، وهو في حبه هذا يمثل الروحانية أصدق تمثيل ، وما ظنكم برجل يفنى في حبه فناء تنمحي الدنيا في سبيله ، أو تكاد ، ويمضي فيغنى بحب الرسول وأهل بيته في أيام كان مدح الرسول فيها يعرض الشاعر لغضب بني أمية ، ويدهم الحول والطول . وما كان بنو أمية بكافرين حتى يؤذيهم مدح الرسول ، ولكن السياسة كما أشرنا من قبل كانت ترى في مدح الرسول تركية للهاشميين ، وكان الكميت يصرح بأنهم اتهموا بالخلافة بغير حق ، وهي في رأيه ميراث الرسول لا يصلح لها إلا أهله الأقربون .

وشواهد التاريخ تدلنا على أن الهاشميين كانوا في حال من اليأس لا يرهفهم فيها عدو ، ولا يرجوهم صديق ، وهذا يزيد في أقدار من تعصبوا لهم من الشعراء ، ولا سيما إذا لاحظنا أن الكميت كان يتوجع لبني هاشم توجعاً يثير

(١) مذهب الأغاني ج ٥ ص ٢١٤ . (٢) النعطامط: صوت الغليان ، وأسلم وغفار : قيتان كانت بينهما مباحاة . انظر عيون الأخبار ج ٣ ص ٣٦٥ .

الدمع ، وكان يحنّ إلى مودتهم حينما هو أقباس من التصوف ، وكانت له معهم نوادر تفصح عن صدق سريره أجل إفصاح ، وإليك هذا المثال :

دخل الكميت على أبي عبد الله جعفر بن محمد ، فقال له : جُعِلت فداك !
ألا أنشدك ؟

فقال أبو عبد الله : إنها أيام عظام ! فقال الكميت : إنها فيكم . فقال هات !
وبعث أبو عبد الله إلى بعض أهله فقرب فأنشده ، وكثر البكاء حين أتى على
هذا البيت :

يُصِيبُ بِهِ الرَّامُونَ عَنْ قَوْمٍ غَيْرِهِمْ فَيَا آخِرًا أَسْدَى لَهُ النَّيَّ أَوَّلُ

فرفع أبو عبد الله يديه ، وقال : اللهم اغفر للكميت ما قدم وما أخر ، وما أسرّ
وما أعلن ، وأعطه حتى يرضى !

ومن المؤكد عندنا أن هذه الدعوة كانت أحب إلى قلب الكميت من
سنى العطاء ، ودليلنا على ذلك أنه دخل يوما على أبي عبد الله فأعطاه ألف دينار
وكسوة ، فقال له الكميت :

« والله ما أحببتكم للدنيا ، ولو أردت الدنيا لأتيت من هي في يديه ،
ولكني أحببتكم للآخرة ، فأما الثياب التي أصابت أجسامكم ، فأنا أقبلها لبركتها
وأما المال فلا أقبله » وكذلك ردّ المال ، وقبل الثياب ^(١) .

ودخل على فاطمة بنت الحسين ، فقالت : هذا شاعرنا أهل البيت !
وحجى بقدرح فيه سويق فخرته بيدها ، وسقت الكميت فشربه ، ثم

أمرت له بثلاثين ديناراً ومركب ، فهملت عيناه ، وقال :

« والله لا أقبلها إنى لم أحكم للدنيا ^(١) »

فإن لم يكن هذا الولاء تصوفاً وروحانية ، فأين يكون التصوف ، وأين تكون الروحانية ؟ وكان هو نفسه يؤمن بأنه يسير في طريق الحق ، ويعتقد بأنه يتقرب إلى الله بحب أهل البيت ، وشاهد ذلك أنه رأى النبي في نومه ، وهو مخنفٍ بعد أن هرب من السجن ، فقال له الرسول : ممّ خوفك ؟ فقال : يارسول الله ، من بنى أمية ، وأنشده :

أَلَمْ تَرِنِي مِنْ حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ أَرْوَحُ وَأَعْدُو خَائِفًا أَتَرَقَّبُ

فقال له رسول الله : اظهر فإن الله قد أمّنك في الدنيا والآخرة .

وقد اطمانت جماهير المسلمين إلى صدق الكميّ ، وكان خصومه من الشعراء يعادونه في هيبة وحذر خوفاً من غضب الرسول ، وقد حدثوا أن دعبلاً ناقض الكميّ في قصيدته التي هجا بها قبائل اليمين رأى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم قنأه عن ذكر الكميّ بسوء ^(٢) .

والعلم الذي نعرفه ، وهو علم قليل ، يشرح هذه الأحلام شرحاً مقبولاً ، وهو يحملها دليلاً على نيات من يحملون ، فإذا استطاع العلم بعد اليوم أن يثبت صلة الأرواح بالأحياء ، فسنعرف يومئذ أن الكميّ كان قريباً كل القرب من روح الرسول .

٨ - وقد أثرت عن الكميّ مواطن مدح فيها بنى أمية ، فكيف يتفق ذلك لشاعر أخلص في حب أهل البيت ؟ . ونجيب بأنه كان ينتمى أحياناً إلى

بنى أمية ليق أعراض بنى هاشم ، فقد لامه ابنه على أن افتخر بينى أمية ، وهو
يهاجى الكلبيّ عدوّه ، فأجاب :

« يا بنى ! أنت تعلم انقطاع الكلبي إلى بنى أمية ، وهم أعداء علىّ عليه
السلام ، فلو ذكرت عليّاً لترك ذكرى ، وأقبل على هجائه ، فأكون قد
عرّضتُ عليّاً له ، ولا أجد له ناصراً من بنى أمية ، ففخرت عليه بينى أمية وقلت
إن نقضها علىّ قتلوه ، وإن أمسك عن ذكرهم قتلته نعماً وغلبته ^(١) » .

وكان الأمر كما قال : أمسك الكلبيّ عن جوابه فغلب عليه وأخم الكلبي .
ودخل يوماً على أبي جعفر محمد بن علي ، فقال له : يا كميّ ! أنت القائل :

وَالآنَ صِرْتُ إِلَى أُمَيَّةَ وَالْأُمُورُ إِلَى مَصَايِرَ

فأجاب الكميّ : نعم ! قد قلت ، ولا والله ما أردت به إلا الدنيا ، ولقد
عرفت فضلكم ^(٢) .

وهذا الجواب غاية في أدب النفس : فالشاعر لا ينكر أنه مدح بنى أمية
وإنما يعترف بأنه لم يرد بذلك إلا الدنيا ، أما الآخرة فقد أرادها بمدح
أهل البيت .

ولتذكر أنه قال هذا القول بمسمع من بنى أمية ، وبأيديهم مفاتيح الخزائن
ومقاليد السجون : فهو منهم بين الرءاء والخوف . ولم يمنعه ذلك الموقف الحرج
من التصريح بأنه لم يمدحهم إلا للدنيا الفانية . وهذا التصريح هو في ذاته قصيدة
هجاء ، وهل ينكر أحد أن الاعتراف يهدم الاعتراف ؟

(١) مذهب الأغاني ج ٥ ص ٢١٢ . (٢) مذهب الأغاني ج ٥ ص ٢١٠ .

على أنه إن صحَّ أن الشعر دليل على وجدان الشاعر فسيبقى من شواهد
صدقه أن شعره في الهاشمين أقوى من شعره في بني أمية ، فليست أشعاره في
الأمويين إلا قصائد مديح لها نظائر وأمثال في اللغة العربية ، أما قصائده
الهاشميات فهي أعز من أن يكون لها نظائر وأمثال .



الفصل الرابع

هاشميات الكيمت

إلحاح الشاعر في وصف بني هاشم بكرم الأخلاق — تعلق المهزمين
في السياسة بأهداب المثل الأعلى — صور من أخلاق الهاشميين
— الهاشميات من الصفات الطوال — مظاهر التجديد عند الكيمت
— مدح أهل البيت فرع من المدائح النبوية — مقارنة الأمويين
في البائية واللامية — ملامح من عاين القصيدة — مظهر
التصوف في البائية .

١ — أول خصيصة لهذه القصائد هي الروح العقلية ، فالشاعر لا يشغلنا
بنفسه ولا بفنه ، وإنما يشغلنا بالتفكير في مصير الأمة الإسلامية ، وهو يسوق
ذلك بتصوف عجيب ، فالخلافة ليست عنده ولاية للحكم تعود على الخلفاء
وأشياعهم بالجاء وبالأموال ، وإنما هي ميزان للعدل لا يقوم به إلا المدبذنون
الأخيار .

ومن أجل ذلك نراه يلح في وصف بني هاشم بكرم الأخلاق . ويظهر
مما اطلعنا عليه أن الهاشميين كانوا في ذلك العهد أقرب الناس إلى لطف
الشجائل ، وأكرم الخصال . وقليل من الاستقصاء يرينا أن الحرص على الأخلاق
الشريفة يكون غالباً من خواص من ينهزمون في الميادين السياسية . وإنما على
ذلك شواهد في الشرق والغرب : فالحزب الملكي في فرنسا يظهر غير شديدة
على الأخلاق ، والحزب الوطني في مصر يعيل أنصاره إلى مؤازرة الجماعات

الاسلامية . وتعليل ذلك سهل : فان المرء يحب أن يتسلح بالقوة ، فان أعوزته القوة تسلح بالخلق الجميل .

وليس معنى هذا أن المنهزمين في ميادين السياسة يتجرون بالأخلاق ، لا ولكن معناه أن قوى المنهزمين في السياسة تتحول إلى معانٍ روحية ووجدانية وعلى أكتاف هؤلاء المنهزمين تقوم المبادئ الصوفية ، التي لا تتزعزع إلا في صدور من خلصوا من هموم السلطان ، وأقبلوا على عالم الروح .

ومن هنا نفهم أن الكمية كان يدافع عن المثل الأعلى ، كان يريد أن تقوم الدولة على أساس الدين : أى على أساس النزاهة المطلقة التي لا يشوبها جور ولا رياء ولا خداع ، وهذا المثل الأعلى هو الذى هزم الهاشميين ونصر الأمويين : ذلك بأنه لا يمكن أن تقوم النزاهة من جانب واحد هو جانب الحكم ، وإنما يجب لنصرة المثل الأعلى أن تنمر النزاهة أيضاً صدور المحكومين ، والدنيا كما عرفناها وعرفها الناس : فيها الرشد والغنى ، والتقناعة والطمع ، والبر والعقوق . وقيام الملك لا يغنى فيه زهد على ، كما يغنى دهاء معاوية ، ولهذا رأينا الحكماء يتمثلون حكومة العدل المطلق حكومة وهمية ، فيصورونها في كتبهم على أنها أمانى وأحلام . ويابعد ما بين الحقيقة والخيال !

فمن جوانب الضعف عند الكمية أن لا يفهم أن الأخلاق دولة أعز من دولة السلطان ، وأنه لا يليق بصاحب الخلق المتين أن يبكى ما ضاع منه كلما رأى أهل الدنيا يرحلون في ظلال الترف والنعيم .

ولكن هذا الضعف هو عين القوة ، فالرجل يرى المثل الأعلى في الجمع بين

السيطرة والزهد ، ولو صح لنا أن نلومه على ذلك لجاز أن نتصور أن صيحات المصلحين لغو وفضول .

وأهل الدنيا في الأغلب يرون كلمات الحكماء نوعاً من الثثرة ، ولكن العواقب تحكم دأماً بأن الحق كان من نصيب أولئك المستضعفين . على أن أمثال بني أمية لم يستتب لهم الملك لأنهم عرفوا كيف يثثون الرجاء والخوف . وإنما تماسك الناس بفضل ما عرفوا واصطنعوا من الخلق والدين . ولو ترك المسيطرون وجهاً لوجه أمام الجماهير التي لا يعيها غير الرجاء ، ولا يرهبها غير الخوف ، لانهمزوا أقبح انهزام . فان الشعب الذي لا يماسك بفضل ما ورث من الأخلاق لا يمسكه خوف ولا رجاء .

وخلاصة هذه الفكرة أن الكمية لم يفهم كيف يقوم الملك ، ولو قد فهم لنصح الهاشميين باصطناع ما اصطنع الأمويون من التخلق بخلق المعاش ، والمعاش أخلاق يحسنها من يعرفون كيف تجمع الثروة ، وكيف يُخلق الأنصار والأعوان ، كما فعل معاوية الذي لم يقض سنيه عبثاً يوم ولاء عمر بن الخطاب على الأقطار الشامية ، بل بذل ما يملك من جهد ودهاء في خلق الأنصار والأعوان ، لتكون الشام ذخيرة حرية حين يبدو في أفق السياسة ما يدعو إلى الزحف للأخذ بتناصية الملك

ولكن هذه الغفلة من جانب الكمية هي أساس القوة الروحية ، فلو أنه شك لحظة في صحة ما عليه الهاشميون من الأخلاق لما نافح عنهم بتلك القصائد الطوال ، ولو تطرق إلى ذهنه أن الملك يحتاج إلى المداينة في معاملة

الناس لما وصل إلى تلك العظمة النفسية التي تطالعنا بوادرها كلها نظرنا في الهاشميات .

والهاشميون أنفسهم لو حاولوا التخلق بأخلاق الأمويين لانهمزموا في ميدان الدنيا وميدان الدين ، وقوة الرجل أن يقف حيث وقفته الفطرة ، فيقسو ويرق وفقاً لما في فطرته من عناصر العنف واللين .

٢ - أقول هذا لأين أثر السذاجة في أحكام هذا الشاعر من الوجهة النفسية ، فهو حين يمدح الهاشميين بكرم الأخلاق يقف عند الشمائل الصريحة التي يتحلى بها أهل الشهامة والنبيل ، فيقول :

بَلْ هَوَايَ الَّذِي أُجِنُّ وَأُبْدِي لِبَنِي هَاشِمٍ فُرُوعِ الْأَنَامِ
لِلْقَرِيِّينَ مِنْ نَدَى وَالْبَعِيدِ مِنْ الْجَوْرِ فِي عُرَى الْأَحْكَامِ
وَالْمُصِيبِينَ بَابَ مَا أَخْطَأ النَّاسُ سِوَ مُرْمِي قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ
وَالْحِمَاةِ الْكُفَاةِ فِي الْحَرْبِ إِنْ أَفَّ ضِرَامٌ وَقُوْدُهُ بِضِرَامِ *
وَالْغُيُوثِ الَّذِينَ إِنْ أَنْحَلَ النَّاسُ سِوَ فَاوِي حَوَاضِنِ الْإِيْتَامِ
وَالْوَلَاةِ الْكُفَاةِ الْأَمْرِ إِنْ طَرَّ قَ يَنْتَنَا بِمُجْهَضٍ أَوْ تَمَامِ
وَالْأَسَاةِ الشُّفَاةِ لِلدَّاءِ ذِي الرَّيْبَةِ وَالْمَذْرُوكِينَ بِالْأَلْوَعَامِ
لِكَثِيرِينَ طَبِيعِينَ مِنَ النَّاسِ سِوَ بَرِّينَ صَادِقِينَ كِرَامِ
وَاضِحِي أَوْنَجِهِ كِرَامِ جُدُودِ وَاسْطِي نِسْبَةٍ لِحَامِ فَهَامِ
لِلذَّرَى فَالذَّرَى مِنَ الْحَسَبِ النَّاسِ قَبِ يَنْتَنَا الْقَمَامِ فَأَقَمَامِ^(١)

(١) القمام . بالفتح ويضم : هو السبد .

رَاجِعِي الْوِزْنَ كَامِلِي الْمَدَلَ فِي السَّيْرِ طَبَّنَ بِالْأُمُورِ الْعِظَامِ
 مُسْتَقِيمِينَ مُتَلَفِينَ مَوَاهِبَ مَطَاعِمَ غَيْرَ مَا أُبْرَامُ^(١)
 وَمَدَارِيكَ لِلذُّحُولِ مَتَارِيكَ وَإِنْ أُحْفِظُوا لِعُورِ الْكَلَامِ^(٢)
 لَا حُبَّاهُمْ تَحُلُّ الْمَنْطِقِ الشَّغَبِ وَلَا لِلطَّامِ يَوْمَ اللُّطَامِ
 وَإِذَا الْحَرْبُ أَوْمَضَتْ بِسَنَا الْحَرْبِ وَسَارَ الْهُمَامُ نَحْوَ الْهُمَامِ
 فَهَمُّ الْأَسَدِ فِي الْوَغَى لَا الْلَوَاتِي بَيْنَ خَيْسِ الْعَرِينِ وَالْآجَامِ
 أَسَدُ حَرْبٍ غِيُوْتُ جَذَبٍ بِهَالِيْلٍ مَقَاوِيلُ غَيْرُ مَا أُفْدَامُ^(٣)
 لَا مَهَازِيرُ فِي النَّدَى مَكَايِيرُ وَلَا مُصْمِتُونَ بِالْإِفْحَامِ
 وَهُمْ الْآخِذُونَ مِنْ ثِقَةِ الْأَمْرِ بِتَقْوَاهُمْ عَرَى لَا أَنْفِصَامِ
 وَمُحْلُونَ مُحْرَمُونَ مَقْرُوءَ نَحْلٍ قَرَارُهُ وَحَرَامِ

وتلك أخلاق صريحة كلها شرف ونبيل ، وهي تمثل فهم الكمية لخلاق
 الأشراف ، وأهل البيت في شعره رجال بررة ، كرام ، شجعان ، فصحاء
 لا يكثررون في هذر ، ولا يصمتون مفحمين ، وهم فوق ذلك كله يعتصمون
 بالتقوى فلا يُحْلُونَ ولا يحرّمون إلا بوحى الدين الحنيف .

وهم مع هذه الأخلاق الصريحة ساسة ، ولكنهم ليسوا كالساسة الذين
 يرعون الناس كما يرعون الأنعام :

لَا كَعَبْدِ الْمَلِكِ أَوْ كَوَلِيدِ أَوْ كَسُلَيْمَانَ بَعْدُ أَوْ كَهَشَامِ

-
- (١) أبرام جمع برم بالتحريك : وهو من لا يدخل مع القوم في البسر ، وذلك علامة البخل .
 (٢) الذحول جمع ذحل بالفتح : وهو الثأر ، والعور : جمع عوراء : وهي كلمة الفحش .
 (٣) أفدام جمع فدم بالفتح : وهو العي عن الكلام في ثقل ورخاوة .

رَأْيُهُ فِيهِمْ كَرَأْيِ ذَوِي الثَّلَاثَةِ فِي الثَّائِبَاتِ جُنَحَ الظَّلَامِ^(١)
جَزْءُ ذِي الصُّوفِ وَأَنْتَقَلَبَ لَدَى الْمُخْضَةِ نَعْمًا وَدَعَا بِأَلْبَهُامِ
مَنْ يَمُتْ لَا يَمُتْ فَقِيدًا وَإِنْ بَحْسَى فَلَا ذُو إِلٍ وَلَا ذُو دِمَامِ

وهذه الأبيات تمثل رأيه في بني أمية ، كل همهم أن يعاملوا الرعية معاملة الضأن :
يجزون ذوات الصُّوف ، ويأكلون السينات .

وهجاء بني أمية عنصر أصيل من عناصر الهاشميات ، وهو على كثرة
ألوانه يرجع إلى أصلين . الأول : أن بني أمية اتهموا بالخلافة من غير حق ،
والثاني : أنهم ساروا في الناس سيرة الجور والاعتساف .

٣ - ندع هذا ، وننتقل إلى التعريف بالهاشميات فنقول :
أهم هذه القصائد أربع : بائتان ، مطلع الأولى :

طَرِبْتُ وَمَا شَوْقًا إِلَى الْبَيْضِ أَطْرَبُ وَلَا لَبًا مِنِّي وَذُو الشَّوْقِ يَلْعَبُ
وعدة أبياتها ١٣٨ ، ومطلع الثانية :

أَتَى وَمِنْ أَيْنَ آبَكَ الطَّرَبُ مِنْ حَيْثُ لَا صَبَوَةٌ وَلَا رَيْبُ
وعدة أبياتها ٦٧ ، والثالثة لامية ، ومطلعها :

أَلَا هَلْ عَمَّ فِي رَأْيِهِ مُتَأَمِّلُ وَهَلْ مُذْبِرٌ بَعْدَ الْإِسَاءَةِ مُقْبِلُ

وعدة أبياتها ٨٩ ، والرابعة ميمية ، ومطلعها :

(١) الثائبات جمع ثائبة من الثَّوَج بالضم ، وهو صياح الغنم ، والثلة بالفتح : جماعة الغنم أو الكثير منها .

مَنْ لِقَلْبٍ مُتَيِّمٍ مُسْتَهَامٍ غَيْرَ مَا ضَبُوءٍ وَلَا أَذْلَامٍ

وعدة أبياتها ١٠٢ .

فهي إذن قصائد طوال ، والذي عالج الشعر في اللغة العربية يعرف أن القصيدة لا تتجاوز المائة بيت إلا حين تستبد بعقل الشاعر وخياله وهواه ، فإن وحدة الوزن والقافية في الشعر العربي تفرض طبع الذهن على غرار موحد ، وتدور بالشاعر حول أنغام موسيقية متماثلة الأوضاع . والشاعر الأوربي الذي ينظم قصيدة من مائة بيت لا تحوم نفسه في جو واحد على نحو ما يفعل الشاعر العربي ، لأن اختلاف الوزن والقافية في الأشعار اللاتينية والسكسونية يعطى فرصاً من راحة النفس لا يظفر بها الشاعر العربي الذي يلتزم وحدة الوزن والقافية . ونخرج من هذا بنتيجة محتومة : هي أن الكمية احتفل بهاشمياته كل الاحتفال وأساس التجويد في جميع الفنون هو التهيؤ والاستعداد لإضاج الصور الشعرية والملاحم الفنية .

والكميت نفسه يشعر بخاطر هذه القصائد ، فيقول في ختام اللامية :

فُدُونَكُمْ مَوْهَاً يَا أَلْحَمْدَ إِنِّهَا مُقَدَّلَةٌ لَمْ يَأَلُ فِيهَا الْمُقَدَّلُ (١)
مُهَذَّبَةٌ غَرَاءُ فِي غَيْبٍ قَوْلُهَا غَدَاةٌ غَدٍ تَفْسِيرُ مَا قَالَتْ مُجِبِلُ
أَتَشْكُمُ عَلَى هَوْلِ الْجَنَانِ وَلَمْ تُطِيعْ لَنَا نَاعِيًا مِمَّنْ يَنْتُ وَيَرْحَلُ
وَمَا ضَرَمْنَا أَنْ كَانَ فِي التُّرْبِ ثَاوِيَا زُهَيْرٌ وَأَوْدَى ذُو الْقُرُوحِ وَجَرَوُلُ

وهذا الزهو يحددنا بأفصح بيان عن اطمئنان الكمية إلى قوة هذه القصائد

(١) مقالة : موجزة ، والقال : الموجز . والغرض أنها أقل ما ينبغي ، ولكن الشاعر بلغ الجهد .

الطوال ، وهو يضع نفسه في منزلة زهير وامرئ القيس والحطيئة ، في أيام كان فيها أولئك الشعراء من السابقين الذين لا يشق لهم غبار .

٤ - ولا مندوحة لنا من الإشارة إلى ما في تلك القصائد من بعض السمات الجاهلية ، فوصف الناقة له في تلك المطولات مكان ، وكان وصف الناقة من البدع الشعرية التي أذاعها الجاهليون وتابعهم فيها فريق من الشعراء الاسلاميين ، وهي بدعة كان يوجيها ظرف الزمان والمعاش ، ولكنها تحولت إلى موضوع فني يتسابق إلى التجويد فيه كبار الشعراء بسبب ما في النوق من الجمال .

٥ - ومن مظاهر التجديد في الفن الشعري عند الكميت هو زهده في بكاء الأطلال والرسوم ، وقصرُ هواه على الحنين إلى أهل البيت ، وسينتهب أبو نواس هذه اللفتة ، وسيقول الناس ، وقد قالوا : إن أبو نواس هو أول من زهد في بكاء الرسوم والأطلال ، فلنعلم الآن أن الكميت هو صاحب هذه البدعة الشعرية ، والفرق بين الرجلين : أن الكميت ينصرف عن بكاء الدُّمن الدوارس ليمدح أهل البيت : رهط الرسول ، أما أبو نواس فينصرف عن وصف الديار الخالية ليقف همه على وصف الحمر ومجالس الشراب .

٦ - والكميت لا يمدح أهل البيت لذواتهم ، وإنما يعلل مدحه إياهم بقرابتهم من الرسول ، كقوله في البائية الكبرى :

إِلَى النَّفَرِ الْبَيْضِ الَّذِينَ بِحُبِّهِمْ إِلَى اللَّهِ فِيمَا نَالَني أَتَقَرَّبُ
بَنِي هَاشِمٍ رَهْطِ النَّبِيِّ فَإِنِّي بِهِمْ وَلَهُمْ أَرْضِي مِرَاراً وَأَغْضَبُ

وقوله في الميمة :

أُسْرَةُ الصَّادِقِ الْحَدِيثِ أَبِي الْقَاسِمِ فَرَعَ الْقَدَامِسِ الْقَدَامِ^(١)
 خَيْرِ حَيٍّ وَمَيِّتٍ مِنْ بَنِي آدَمَ طُرًّا مَأْمُومِهِمْ وَالْإِمَامِ
 كَانَ مَيِّتًا جَنَازَةً خَيْرَ مَيِّتٍ غَيْبَتُهُ مَقَابِرُ الْأَقْوَامِ *
 وَجَنِينًا وَمُرْضَعًا سَاكِنَ الْمَهْدِ وَبَعْدَ الرِّضَاعِ عِنْدَ الْفِطَامِ
 خَيْرَ مُسْتَرْضِعٍ وَخَيْرَ فَطِيمٍ وَجَنِينَ أَقَرَّ فِي الْأَرْحَامِ
 وَغُلَامًا وَنَاشِئًا ثُمَّ كَهْلًا خَيْرَ كَهْلٍ وَنَاشِئٍ وَغُلَامٍ
 أَنْقَذَ اللَّهُ سِلَاقَنَا مِنْ شَفَاكَ الدَّاءِ رِ بِهِ نِعْمَةٌ مِنَ الْمُنْعَامِ
 لَوْ فَدَى الْحَيُّ مَيِّتًا قُلْتُ نَفْسِي وَبَنِي الْفِدَا لَتِلْكَ الْعِظَامِ

وقوله أيضاً في تلك البائية وهو يقارع الأمويين :

وَقَالُوا وَرَبَّنَا هَا أَتَانَا وَأَمَّنَا وَمَا وَرَثَتُهُمْ ذَاكَ أَمْ وَلَا أَبُ
 يَرُونَ لَهُمْ حَقًّا عَلَى النَّاسِ وَاجِبًا سَفَاهَا وَحَقُّ الْهَاشِمِيِّينَ أَوْ جَبُ
 وَلَكِنْ مَوَارِيثُ ابْنِ أَمِينَةِ اللَّهِ بِهِ دَانَ شَرْقِي لَكُمْ وَمُعَرَّبُ
 فَدَى لَكَ مَوْرُوثَا أَبِي وَأَبُو أَبِي وَنَفْسِي وَنَفْسِي بَعْدَ النَّاسِ أَطِيبُ
 بِكَ اجْتَمَعَتِ أَنْسَابُنَا بَعْدَ فُرْقَةٍ فَجَنُّ بَنِي الْإِسْلَامِ نُدْعَى وَنُدْسَبُ
 حَيَاتِكَ كَانَتْ مَجْدَنَا وَسَنَاءَنَا وَمَوْتُكَ جَدْعُ الْعَرَانِينَ مُوعِبُ
 وَأَنْتَ أَمِينُ اللَّهِ فِي النَّاسِ كُلِّهِمْ عَلَيْهَا وَفِيهَا اخْتَارَ شَرْقٌ وَمَغْرِبُ
 فَبُورِكَ مَوْلُودَاوُ بُورِكَ نَاشِئًا وَبُورِكَ قَبْرُ أَنْتَ فِيهِ وَبُورِكَ
 وَبُورِكَ قَبْرُ أَنْتَ فِيهِ وَبُورِكَ

(١) القناسم بالضم ، ومثله القدموس : هو الشريف ، والقدام بضم القاف : المقدم .

لَقَدْ غَيَّبُوا بِرَأٍ وَصِدْقًا وَنَائِلًا عَشِيَّةً وَارَاكَ الصَّهِيحُ الْمُنْصَبُ

وهذه الشواهد تكفى للدلالة على أن مدح أهل البيت عند هذا الشاعر فرع من المدائح النبوية، فأهل البيت يكرمون عليه لأنهم أسباط الرسول، ولولا هذه الآصرة لما انعطف إليهم كل هذا الانعطاف.

٧ - ولكن ماهى كبرى هذه القصائد وأحقها بالخلود؟

إن القدماء مجمعون على أن البائية الأولى هى خير تلك القصائد، والكميت نفسه يرى هذا رأى، أما أنا فأرى اللامية أضخم وأغل، ولا عجب فى أن يختلف رأى الشاعر والناقد: فإن الناقد يتفق له أحيانا أن يرى ما لا يرى الشاعر فى الحكم على قصائده، ولكل منهما وجهة، فالشاعر يقدم إحساسه الخاص، والناقد ينظر إلى نواح فنية قد لا يتنبه إليها الشاعر فى بعض الأحيان، ألا يقع فى كل يوم أن يتعصب الأب لأحد أبنائه على حين يرى الناس ذلك الابن أقل إخوته علما، وأضعفهم رأيا، وأسقمهم بيانا؟

وقد اتفق للمرحوم شوقى أن أعلن أن خير قصائده هى النونية التى قالها فى توت عنخ آمون، فلما لقيته قلت له: أنت ياشوق بك لاتعرف شعرك إن خير قصائدك هى قصيدة « الأندلس الجديدة » فابتسم وأخذ يجهد نفسه فى تعرف خصائص تلك القصيدة التى لم يرها خير ما قال!

فلنأخذ الآن فى موازنة قصيرة جدا بين موضوعات هاتين القصيدتين : البائية واللامية لنرى أيهما أرجح فى الميزان.

٨ - تقع البائية فى ١٣٨ بيت، وتقع اللامية فى ٨٩ بيتا، فالأولى أطول من الثانية، وعند الدرس نجد البائية افتتحت بأربعة أبيات جرت مجرى التمهيد،

ونجد الشاعر وصف الناقة بأبيات بلغت عدتها ٢٧ ، وعلى ذلك يكون ما وقع من القصيدتين في صميم الموضوع متقاربا في الطول .

ولنسارع فنقرر أن الذي حجب البائية إلى الناس هو عناية الشاعر ببياء القتلى من أهل البيت ، وأن الذي حجب اللامية إلينا هو إلحاح الشاعر في تقييح الظلم والظالمين ، فعاصروا الكمية ينظرون إلى البائية بعين ، ونحن ننظر إلى اللامية بعين . وقد يكون مما يقدم قصيدة على قصيدة أن يُنظر إلى ما في الشعر من المعاني الباقية ، فالرثاء ضرورة وقتية ، أما حرب الظلم فيبقى ما بقي الإنسان الذي سماه أرسطو : (الحيوان الناطق) ونسميه نحن : (الحيوان اللئيم) .

وقد عرض الكمية في البائية لمقتل الحسين فوصفه بمنعفر الخدين مترب الجبين ، ومن أجل ذلك كانت بائية الكمية أثيرة لديه ولدى النقاد لما تعرضت له من شرح الفواجع التي حلت بأهل البيت . وقد رأينا من قبل أن المناحة كانت تقام لانشاد تلك البائية ، ولننظر قوله في التوجع لمصاب الحسين :

وَمِنْ أَكْبَرِ الْأَحْدَاثِ كَانَتْ مُصِيبَةٌ عَلَيْنَا قَتِيلُ الْأَذْعِيَاءِ الْمُلْحَبُ^(١)
قَتِيلُ يَجْنِبُ الطُّفَّ مِنْ آلِ هَانِمٍ فَيَا لَكَ لَحْمًا لَيْسَ عَنْهُ مُدَبِّبُ
وَمُنْعَفَرُ الْخَدَّيْنِ مِنْ آلِ هَانِمٍ أَلَا حَبْدًا ذَاكَ الْجَبِينُ الْمُتَرَبُّ
قَتِيلُ كَانَ الْوَلَّةَ الْمُفَرَّ حَوْلَهُ يَطْفَنَ بِهِ شَمَّ الْعَرَانِينِ رَبَّرَبُ^(٢)

وقد بُقت هذه الأبيات بشعر فيه ذكرى من مضوا قبل الحسين ، وعقبت بأبيات عمن حصدهم بعده الموت ، ثم قال :

(١) من لجه بالسيف : ضربه . (٢) المفر جمع عفراء : وهي الطيية ، والعرائن : الأنوف .

مَضَوْا سَلَفًا لَا بُدَّ أَنْ مَصِيرَنَا
إِلَيْهِمْ فَكَادَ نَحْوَهُمْ مُتَاوِبٌ
كَذَلِكَ الْمَنَآيَا لَا رَضِيْعًا رَأَيْتُهَا
نَحْطَى وَلَا ذَا هَيْبَةٍ تَتَهَيَّبُ
وَقَدْ فَادَرُوا فِيْنَا مَصَاصِيحَ أَنْجُمَا
لَنَا ثِقَةً أَيَّانَ نَخْنَى وَنَرْهَبُ
أَوَّلِكَ إِنْ شَطَطَتْ بِهِمْ غَرَبَةُ الدَّوَى
أَمَانِي نَفْسِي وَالْهَوَى حَيْثُ يُسْقَبُ^(١)

٩ - ونذكر بعد ذلك أن البائية واللامية تلتقيان في بعض الموضوعات
فان الشاعر عرض لهجاء بنى أمية ورميهم بالظلم والاستبداد غير حذر
ولا هيب ، فرماه في البائية باثار الفتنة ، ومجانبة الحق ، والتحزب
للضلال ، فقال :

فَيَا لَكَ أَمْرًا قَدْ أَشْنَتْ أُمُورُهُ
وَدُنْيَا أَرَى أُنْجَبَاهَا تَتَقَضَّبُ
يَرُوضُونَ دِينَ الْحَقِّ صَنِيبًا مُخَرَّمًا
بِأَفْوَاهِهِمْ وَالرَّائِضُ الدِّينَ أَصْعَبُ
إِذَا شَرَعُوا يَوْمًا عَلَى الْغَى فِتْنَةً
طَرِيقُهُمْ فِيهَا عَنِ الْحَقِّ أُنْكَبُ
رَضُوا بِخِلَافِ الْمُهْتَدِينَ وَفِيهِمْ
مُحَبَّةٌ أُخْرَى تُصَانُ وَتُحْجَبُ
وَإِنْ زَوَّجُوا أَمْرَيْنِ جَوْرًا وَبِدْعَةً
أَنَاخُوا لِأُخْرَى ذَاتِ وَدَقَيْنِ تُحْطَبُ
أَلْحُوا وَلَجُوا فِي بِعَادٍ وَبِغَضَةٍ
فَقَدْ نَشَبُوا فِي حَبْلِ غَىٍ وَأَنْشَبُوا
تَفَرَّقَتْ الدُّنْيَا بِهِمْ وَتَعَرَّضَتْ
لَهُمْ بِالنُّطَافِ الْآجِنَاتِ فَأُشْرَبُوا
إِذَا قِيلَ هَذَا الْحَقُّ لَا مِيلَ دُونَهُ
فَأَنْقَضَهُمْ فِي الْحَقِّ حَسْرَى وَلُئِبُ
وَإِنْ عَرَضَتْ دُونَ الضَّلَالَةِ حَوْمَةٌ
أَخَاصُوا إِلَيْهَا طَائِعِينَ وَأَوْثَبُوا

وَقَدْ دَرَسُوا الْقُرْآنَ وَأَفْلَحُوا بِهِ فَسَكُّهُمْ رَاضٍ بِهِ مُتَحَزِّبٌ
فِنْ أَنْ أَوْ أَنَّى وَكَيْفَ ضَلَّاهُمْ هُدًى وَالْهَوَى شَتَّى بِهِمْ مُتَشَعِّبٌ

١٠ - أما اللامية : فهي صرخة من سوء الحكم لمهد بنى أمية ، استهالها الشاعر بهذا التقرير الذى يبعث الحمية ، ويثير ما غفا من نوازي الضغائن والحفاظ والحقوق :

أَلَا هَلْ عَمِ فِي رَأْيِهِ مُتَأَمِّلٌ وَهَلْ مُذْبِرٌ بَعْدَ الْإِسَاءَةِ مُقْبِلٌ
وَهَلْ أُمَّةٌ مُسْتَبْغِظُونَ لِرُشْدِهِمْ فَيَكْشِفُ عَنْهُ النُّعْمَةَ الْمُتْرَمِّلُ
فَهَذَا طَالَ هَذَا النَّوْمُ وَأَسْتَخْرِجُ الْكَرَى مَسَاوِيَهُمْ لَوْ كَانَ ذَا الْمَيْلِ يُعْمَلُ
وَعُطِّتِ الْأَحْكَامُ حَتَّى كَانْنَا عَلَى مِلَّةٍ غَيْرِ الَّتِي تَنْحَلُّ
كَلَامُ النَّبِيِّينَ الْهُدَاةِ كَلَامُنَا وَأَفْعَالُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ نَفْعَلُ
رَضِينَا بِدُنْيَا لَا نُزِيدُ فِرَاقَهَا عَلَى أَنَّنَا فِيهَا نَمُوتُ وَنُقْتَلُ
وَنَحْنُ بِهَا مُسْتَمْسِكُونَ كَانْنَا لَنَا جُزْءٌ مِمَّا نَخَافُ وَمَعْقِلُ
أَرَانَا عَلَى حُبِّ الْحَيَاةِ وَطُولِهَا يُجَدُّ بِنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ وَنَهْزِلُ
نُعَالِجُ مُرَمَقًا مِنَ الْعَيْشِ فَانِيَا لَهُ حَارِكٌ لَا يَحْمِلُ الْعِبَاءَ أَجْزَلُ^(١)
فَتِلْكَ أُمُورُ النَّاسِ أَضْحَتْ كَانْنَا أُمُورٌ مُضْجِعِ آثَرِ النَّوْمِ بُهْلُ^(٢)

ثم يمضى فى عنف الجدل ، فيقول :

(١) المرقى ، على وزن عمر ، ومعظم : الضيق . والحارك : أعلى الكاهل ، وأجزل من الجزل .
بالتحريك وهو أن يقطع القتب غارب البعير (٢) البهل على وزن ركم ، يشبه الأمور بالنوق البهّل .
وبى البضاعة التى يحملها من يشاء .

فَيَأْسَاسَةً هَاتُوا لَنَا مِنْ حَدِيثِكُمْ
أَهْلُ كِتَابٍ نَحْنُ فِيهِ وَأَنْتُمْ
فَكَيْفَ وَمِنْ أَيْ وَإِذْ نَحْنُ خَلْفَةٌ
أَنْصَلِحُ دُنْيَانَا جَمِيعًا وَدِينُنَا
بُرِينًا كَبْرَى الْقَدْحِ أَوْ هَنْ مَتْنُهُ
وَلَايَةُ سِلْفِدِ أَلْفَ كَأَنَّهُ
كَأَنَّ كِتَابَ اللَّهِ يُنْخَى بِأَمْرِهِ
أَلَمْ يَتَدَبَّرْ آيَةً فَتَدَلُّهُ
فَلَيْكَ مُلُوكُ السُّوءِ قَدْ طَالَ مَلِكُهُمْ
رَضُوا بِفِعَالِ السُّوءِ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ
كَمَا رَضِيَتْ بِمُخْلَا وَسُوءِ وَلَايَةٍ
نُبَاحًا إِذَا مَا اللَّيْلُ أَظْلَمَ دُونَهَا
وَمَا ضَرَبَ الْأَمْثَالَ فِي الْجَوْرِ قَبْلُنَا
هُمُ خَوْفُونَا بِالْعَمَى هَوَّةَ الرَّدَى

فَقِيكُمْ لَعَمْرِي ذُو أَفَانِينَ مِقْوَلُ
عَلَى الْحَقِّ نَقْضِي بِالْكِتَابِ وَنَعْدَلُ
فَرِيقَانِ شَيْ تَسْمُنُونَ وَنُهْزَلُ^(١)
عَلَى مَا بِهِ ضَاعَ السَّوَامُ الْمُؤَبَّلُ^(٢)
مِنْ الْقَوْمِ لَا شَارٍ وَلَا مُنْتَبِلُ^(٣)
مِنْ الرَّهَقِ الْمَخْلُوطِ بِالنُّوْكِ أَتُولُ^(٤)
وَبِالنَّهْيِ فِيهِ الْكُودُنِيُّ الْمُرْكَلُ^(٥)
عَلَى تَرَكٍ مَا يَأْتِي أَمِ الْقَلْبِ مُنْقَلُ
خَتَامَ خَتَامِ الْعَنَاءِ الْمُطَوَّلُ
فَقَدْ أَتَمُّوا طَوْرًا عِدَاءً وَأَتَكَلَّمُوا
لَكَلْبَتَيْهَا فِي أَوَّلِ الدَّهْرِ حَوْمَلُ^(٦)
وَضَرْبًا وَتَجْوِيمًا خَبَالُ مُخْبَلُ
بِأَجْوَرٍ مِنْ حُكْمَانَا الْمُتَمَثِّلُ
كَمَا شَبَّ نَارَ الْحَافِينَ الْمُهُولُ^(٧)

- (١) خلفه بالكسر : مختلفون . (٢) المؤبل : الفتى ، وإذا ضاع الفتى فكيف يكون حال المهمل .
(٣) الشاري : الصلح ، والتنبيل : صاحب النبل ، يريد أنه وقع في يد من لا يحسن البرى .
(٤) السلفد : الرخو من الرجال ، والألف : المتلى ، الفخذين ، والرهق : السفه ، والنوك : الحق ،
والأتول : المجنون والأحق . وأما فسرنا الألف في هذا البيت بالمتلى الفخذين ليقاب مع السلفد ،
ومن معاني اللغف أيضا الى ويطء الكلام ، والسلفد في الأصل : الذئب .
(٥) الكودنى : الفرس الهجين والفيل والبغل والبرذون ، والمركل : الذى يضرب بالرجل ليعدو .
(٦) حومل : امرأة كانت تجميع كلبتها . حتى أكلت الكلبة ذنبها من الجوع .
(٧) المهول : المحلف ، وكانوا في الجاهلية إذا أرادوا أن يستحلقوا الرجل أو قعدوا نارا ، وألقوا فيها
ملحاً فيتنقع فيهلون بها . قال أوس بن حجر يصف حماراً وحشياً :
إذا استقبلته الشمس صد بوجهه كما صد عن نار المهول حالف

لَهُمْ كُلٌّ قَامَ بِدَعَاةٍ يُحْدِثُونَهَا أَزَلُوا بِهَا أَتْبَاعَهُمْ ثُمَّ أَوْجَلُوا^(١)
 كَمَا أَتَدَعِ الرُّهْبَانُ مَا لَمْ يَجِئْ بِهِ كِتَابٌ وَلَا وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ مُنْزَلٌ
 تَحِلُّ دِمَاةُ الْمُسْلِمِينَ لَدَيْهِمْ وَيَحْرُمُ طَلْعُ النَّخْلَةِ الْمُتَهَدِّلِ
 وَلَيْسَ لَنَا فِي الْقِيَمِ حَظٌّ لَدَيْهِمْ وَلَيْسَ لَنَا فِي رِحْلَةِ النَّاسِ أَرْحُلُ
 فَيَأْرَبُ هَلْ إِلَّا بَكَ النَّعْرُ يُرْتَجَى عَلَيْهِمْ ؟ وَهَلْ إِلَّا عَلَيْكَ الْمُؤُولُ

وهذه القطعة أقوى من نظيرتها في البائية ، والافتنان فيها أظهر ، والشاعر فيها يصول بمنكب أضخم ، وساعد أفتك ، وفيها بيت نادر ، هو قوله :

تَحِلُّ دِمَاةُ الْمُسْلِمِينَ لَدَيْهِمْ وَيَحْرُمُ طَلْعُ النَّخْلَةِ الْمُتَهَدِّلِ

وهو معنى انتهبه أحد المحدثين إذ قال :

قَتْلُ أَمْرِي فِي قَابَةٍ جَرِيمَةٌ لَا تُقْتَفَرُ
 وَتَقْتُلُ شَنْبِ آمِنٍ مَسْأَلَةٌ فِيهَا نَظَرُ

وبيت الكميت لا تقنى عجائبه عند التأمل ، فالظالمون في جميع العصور يرفقون بالأشياء ويقسون على الأشخاص : فطلع النخلة حرام ، وقتل الأبرياء حلال . والكميت يحرص على إبراز آصار الظلم : وهي عنده تتمثل في سمنة الظالمين وهزال المظلومين .

(١) أزَلُوا : من الزل ، وأوجلوا : هربوا ، كأنه يشير إلى آية (كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين) .

أَهْلُ كِتَابٍ نَحْنُ فِيهِ وَأَنْتُمْ عَلَى الْحَقِّ تَقْضِي بِالْكِتَابِ وَنَعْدُ
فَكَيْفَ وَمِنْ أُنَى وَإِذْ نَحْنُ خِلْفَةٌ فَرِيقَانِ شَتَّى تَسْمُنُونَ وَتُهْزِلُونَ

وسأخذ دعبل معنى هذا البيت ، فيقول :

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ نُحِفْ جُسُومُهُمْ وَآلُ زِيَادٍ حُفْلُ الْقَصَرَاتِ^(١)

والكميت يلح في تصوير الهزال ، فيذكر أن قد أصابهم ما أصاب القدح من
عنف البرى ، ويمثل ولاية بنى أمية بولاية الذئب ، وكان عندهم مضرب المثل في
الطغيان ، ثم يحار بهذا البيت :

وَمَا ضَرَبَ الْأَمْثَالَ فِي الْجَوْرِ قَبْلَنَا بِأَجْوَرَ مِنْ حُكَامِنَا الْمُتَمَلُّ

ويشبه بنى أمية بالرهبان يتدعون ما لم يحى به وحى ولا كتاب ، وكان هذا التشبيه
لهذه غاية في القوة بفضل ما في القرآن من الإشارة إلى أعمال الأبحار والرهبان .

١١ - ولم ينس الكميت أن يتحدث في اللامية عن فواجع أهل البيت ،

وان كان لم يستقص أخبارهم كما صنع في البائية ، فقد وقف عند مصرع الحسين ،
ولكن أسلوبه في اللامية أقوى وأرشق .

وَمِنْ عَجَبٍ لَمْ أَقْضِهِ أَنْ خَيْلَهُمْ لِأَجْوَافِهَا تَحْتِ الْعَجَاجَةِ أَرْمَلُ^(٢)

هَمَاهُمُ بِالْمُسْتَلَمِينَ عَوَابِسُ كَحِدَآنِ يَوْمِ الدَّجَنِ تَعْلُو وَتَسْقُلُ^(٣)

(١) القصرات جمع قصرة بالتحريك ، وهى أصل المتق . (٢) الأزمَل : الصوت .

(٣) هَمَاهُم من الهمهمة ، وهى تردد الزئير فى الصدر ، والمستلمون : لابسو الدروع .

يُحْكَمْنَ عَنْ مَاءِ الْفُرَاتِ وَظِلِّهِ
كَأَنَّ حُسَيْنًا وَابْنَهُ أَلِيلَ حَوْلَهُ
يُخْفِضْنَ بِهِ مِنْ آلِ أَحْمَدَ فِي الْوُغَى
وَعَابَ نَبِيُّ اللَّهِ عَنْهُمْ وَفَقَدَهُ
فَلَمْ أَرَ تَخْذُولًا أَجَلَ مُصِيبَةٍ
يَصِيبُ بِهِ الرَّاكِبُونَ عَنْ قَوْسٍ غَيْرِهِمْ
تَهَافَّتْ ذِبَابُ الْمَطَامِعِ حَوْلَهُ
إِذَا شَرَعَتْ فِيهِ الْأَسِنَّةُ كَبُرَتْ
فَمَا ظَفِيرَ الْمُجَرَّى إِلَيْهِمْ بِرَأْسِهِ
فَلَمْ أَرَ مَوْتُورِينَ أَهْلَ بَصِيرَةٍ
كَشِبَتِهِ وَالْحَرْبُ قَدْ ثَقِيَتْ لَهُمْ
فَرِيقَانِ هَذَا رَاكِبٌ فِي عِدَاوَةٍ
فَمَا نَفَعَ الْمُسْتَأَخِرِينَ نَكِيصُهُمْ

حُسَيْنًا وَلَمْ يُشْهَرْ عَلَيْهِنَّ مُنْصَلٌ^(١)
لِأَسْنٍ يَفْهَمُ مَا يَخْتَلِي الْمُتَبَقِّلُ^(٢)
دَمَا ظَلَّ مِنْهُمْ كَالْبَهِيمِ الْمُحْجَلُ
عَلَى النَّاسِ رُزْمَ مَا هُنَاكَ مُجَلَّلُ
وَأَوْجَبَ مِنْهُ نُصْرَةً حِينَ يُخْذَلُ
فَيَا آخِرًا أَسْدَى لَهُ الْغَى أَوَّلُ
فَرِيقَانِ شَتَّى ذُو سِلَاحٍ وَأَغْزَلُ^(٣)
غَوَائِثُهُمْ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ وَهَلَّلُوا
وَلَا عُذِلَ الْبَاكِي عَلَيْهِ الْمُؤُولُ
وَحَقَّ لَهُمْ أَيْدٍ صِحَاحٍ وَأَرْجُلُ
أَمَامَهُمْ قِدْرٌ تَجِيشُ وَمِرْجَلُ^(٤)
وَبَاكٍ عَلَى خِذْلَانِهِ الْحَقُّ مُؤُولُ
وَلَا ضَرَّ أَهْلَ السَّابِقَاتِ التَّمَجُّلُ

١٢ - وفي القصيدتين وصف لأخلاق بني هاشم ، فهم في البائية :

أُنَاسٌ بِهِمْ عَزَتْ قُرَيْشٌ فَأَصْبَحُوا
خِضَمُونَ أَشْرَافُ لَهَا مِيمُ سَادَةٌ
وَفِيهِمْ خِبَاءُ الْمَكْرُمَاتِ الْمُطَنَّبُ
مَطَاعِيمُ أَيْسَارُهُ إِذَا النَّاسُ أَجْدَبُوا

وهم سادة الجود والعلم والرأى :

(١) يحكم : يمنع . (٢) اختلى الخلى : نزع ، والختى : مقصورة : الرطب من النبات .
(٣) الذباب بالكسر جمع الذباب . (٤) ثقيت الحرب : أقيمت .

إِذَا نَشَأَتْ مِنْهُمْ بَارِضٍ سَحَابَةٌ فَلَا تَنْبُتُ مَحْظُورٌ وَلَا الْبَرْقُ خُلْبٌ
وَأِنْ هَاجَ نَبْتُ الْعِلْمِ فِي النَّاسِ لَمْ تَزَلْ لَهُمْ تَلْعَةٌ خَضِرَاءُ مِنْهُ وَمِذْنَبٌ^(١)
إِذَا أَدْلَسَتْ ظُلُمَاءُ أَمْرَيْنِ حِنْدُسُ فَبَدَرُ لَهُمْ فِيهَا مُضِيٌّ وَكَوْنُ كَبُ

وهم في اللامية نجوم يهتدى بها السارون ، وغيوث يشقى بها المعلون :

وَأِنْ نَزَلَتْ بِالنَّاسِ عَمِيَاءُ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بَصَرٌ إِلَّا بِهِمْ حِينَ تُشَكِلُ
وَأِنْهُمْ لِسَمُ لِلنَّاسِ فِيمَا يَنْوِبُهُمْ أَكُفٌ نَدَى تُجْدِي عَلَيْهِمْ وَتُفْضِلُ
لِأَهْلِ الْعَمَى فِيهِمْ شِفَاءٌ مِنَ الْعَمَى مَعَ النَّصْحِ لَوْ أَنَّ النَّصِيحَةَ تُقْبَلُ

١٣ - هذا ، ولا مفر من الاعتراف برقة الحنين في البائية ، فقد بلغ الشاعر بحبه أقصى غايات التصوف ، إذ يقول :

فَقُلْ لِلَّذِي فِي ظِلِّ عَمِيَاءٍ جَوْنَةٌ تَرَى الْجَوْرَ عَدْلًا أَيْنَ لَا أَيْنَ تَذْهَبُ^(٢)
بِأَيِّ كِتَابٍ أَمْ بِآيَةِ سُنَّةٍ تَرَى حُبَّهُمْ عَارًا عَلَى وَتَحْسِبُ
فَمَالِي إِلَّا آلَ أَحْمَدَ شَيْعَةً وَمَالِي إِلَّا مَشْعَبَ الْحَقِّ مَشْعَبُ
وَمَنْ غَيْرُهُمْ أَرْضِي لِنَفْسِي شَيْعَةً وَمَنْ بَعْدَهُمْ ؟ لَأَمِنْ أَجَلٍ وَأَرْجَبُ^(٣)
أَرِيبُ رِجَالًا مِنْهُمْ وَتَرِييُنِي خَلَائِقُ مِمَّا أَحَدُوهُنَّ أَرِيبُ
إِلَيْكُمْ ذَوِي آلِ النَّبِيِّ تَطَلَّعْتُ نَوَازِعُ مِنْ قَلْبِي ظِلْمَاءُ وَالْبُبُ
فَإِنِّي عَنِ الْأَمْرِ الَّذِي تَكْرَهُونَهُ بِقَوْلِي وَفِعْلِي مَا اسْتَطَعْتُ لِأَجْنُبُ

(١) المذنب كنبه : سبيل الماء الى الأرض ، والجدول يسير عن الروضة بمائها إلى غيرها .

(٢) جونة : سوداء . (٣) أرجب : أعظم وأهاب .

يُشِيرُونَ بِالْأَيْدِي إِلَى وَقَوَاهُمْ
 فَطَائِفَةٌ قَدْ كَفَرَتْ نِي بِحُبِّكُمْ
 قَسَاءَ فِي تَكْفِيرِ هَاتِيكَ مِنْهُمْ
 يَمِينُونِي مِنْ خِيْبِهِمْ وَصَلَاهُمْ
 وَقَالُوا تُرَابِي هَوَاهُ وَرَأْيُهُ
 وَأَحْمِلُ أَحْقَادَ الْأَقَارِبِ فِيكُمْ
 فَيَأْمُقِدًا نَارًا لِنَفْسِكَ ضَوْءَهَا
 أَلَمْ تَرَنِي مِنْ حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ
 عَلَى أَى جُزْمٍ أَمْ بِأَيَّةِ سِيرَةٍ
 الْأَخَابَ هَذَا وَالْمُشِيرُونَ أَخِيْبُ
 وَطَائِفَةٌ قَالُوا مُسِيْءٌ وَمُذْنِبُ
 وَلَا عَيْبُ هَاتِيكَ الَّتِي هِيَ أَعْيَبُ
 عَلَى حُبِّكُمْ بَلْ يَسْخَرُونَ وَأَعْجَبُ
 بِذَلِكَ أَدْعَى فِيهِمْ وَالْقَبُ^(١)
 وَيُنْصَبُ لِي فِي الْأَبْمَدِينَ فَأَنْصَبُ
 وَيَا حَاطِبًا فِي غَيْرِ حَبْلِكَ تَحْطُبُ
 أَرْوَحُ وَأَغْدُو خَائِفًا أَتَرَقَّبُ
 أَعْفُ فِي تَقْرِيطِهِمْ وَأَوْئُبُ

وفي اللامية أمثال لهذا الولاء ، ولكنه في البائية أقوى وأصدق . رحم الله
 الكميْت ، وأكرم مشواه !



(١) ترابي نسبة إلى أبي تراب ، وهو علي بن أبي طالب .

الفصل الخامس

نائبه دعبل

في أهل البيت

رأى دعبل في لؤم الناس — ميله إلى الصعاليك — رأى البحترى
والمأمون في شعره — نسبة دعبل — بفضه للخلفاء وجبه لأهل
البيت — سيورة النائب في الأفطار الاسلامية وأخبارها في عالم
الجن — الامام المنتظر .

١ — نحن الآن أمام « شاعر متقدم مطبوع هجاء خبيث اللسان لم يسلم
عليه أحد من الخلفاء ، ولا من وزرائهم ، ولا أولادهم ، ولا ذو نباهة أحسن
إليه ، أو لم يحسن ^(١) » .

والمعجب أن تسرى الروحانية إلى صدر رجل مثل دعبل ، فقد كان ذلك
الرجل يعتقد اعتقاداً سيئاً في الناس ، ويؤمن بأنهم لا يصلحون بغير الهجاء ،
يدلنا على ذلك ما حدث به أبو خالد الخزازي إذ قال : قلت لدعبل : ويحك
قد هجوت الخلفاء والوزراء والقواد ، ووترت الناس جميعاً ، فأنت دهرك
كله شريد طريد هارب خائف ، فلو كففت عن هذا ، وصرفت هذا الشر
عن نفسك !

(١) الأغاني ج ١٨ ص ٢٩ طبع الساسي .

فقال دعبل :

ويحك ! إني تأملت ماتقول فوجدت أكثر الناس لا ينتفع بهم إلا على
الرهبة ، ولا يبالى بالشاعر وإن كان مُجيداً إذا لم يخف شره ، ولئن يتقيك على
عرضه أكثر ممن يرغب إليك في تشريفه ، وعيوب الناس أكثر من
محاسنهم ، وليس كل من شرفته شرف ، ولا كل من وصفته بالجلود والمجد
والشجاعة ولم يكن ذلك فيه انتفع بقولك ، فاذا رآك قد أوجعت غيره
وفضحته اتقاك على نفسه ، وخاف من مثل ما جرى على الآخر ، ويحك يا أبا
خالد ! إن الهجاء المُقذع آخذ بِضُبُع الشاعر من المديح المُضرع ^(١) .

وهو بهذا التصريح يفصح عن رأيه في الناس : فهم عنده لثام جبناء
يتقون الشتم أكثر مما يرغبون في التشریف ، وكان بالفعل لا ينفك ينظم
قصائد الهجاء ، وكان يسأل أحيانا عن موضوع أهاجيه فيجيب : ما استحقه أحد
بعينه بعد ، وليس له صاحب .

فاذا وجد على رجل جعل ذلك الشرفيه ، وذكر اسمه ^(٢) ، فقصائد الهجاء
عنده كأمثال الثياب عند تجار الملابس : تُعدُّ إعدادا ، ثم تقدم حين
تلوح الفرصة !

وكان يتفق له أن يسيء إلى أصدقائه من حيث لا يريد ، فقد هجا أحمد
ابن أبي دُواد ، وكان تزوج امرأتين من بنى عجل في سنة واحدة ، فقال :

غَصَبْتَ عَجَلًا عَلَى فَرْجَيْنِ فِي سَنَةٍ أَفْسَدْتَهُنَّ ثُمَّ مَا أَصْلَحْتَ مِنْ نَسَبِكِ
وَلَوْ خَطَبْتَ إِلَى طَوْقٍ وَأُسْرَتِهِ فزَوَّجُوكَ لَمَا زَادُوكَ فِي حَسَبِكِ

إِنْ كَانَ قَوْمٌ أَرَادَ اللَّهُ خَزَائِمَهُمْ فَرَجَّوْكَ أَرْتَابًا مِنْكَ فِي ذَهَبِكَ
فَذَلِكَ يُوجِبُ أَنَّ التَّبَعِ يَحْمِلُهُ إِلَى خِلَافِكَ فِي الْعِيدَانِ أَوْ غَرَبِكَ
وَلَوْ سَكَتَ وَلَمْ تَخْطُبْ إِلَى عَرَبٍ لَمَا نَبَشْتَ الَّذِي تَطْوِيهِ مِنْ سَبَبِكَ
عُدَّ الْبُيُوتَ الَّتِي تَرْضَى بِخِطْبَتِهَا تَجِدُ فَرَارَةَ الْمُكَلِّيِّ مِنْ عَرَبِكَ

فلقية فزارة المكي فقال له : يا أبا علي ! ما حملك على ذكرى حتى فضحتي ، وأنا صديقك ؟ فقال : يا أخي ! والله ما اعتمدتكم بمكروه ، ولكن كذا جاءني الشعر لبلاء صبه الله عز وجل عليك !

وَأَرِ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : مَا كَانَتْ لِأَحَدٍ قَطُّ عِنْدِي مَنَةٌ إِلَّا تَمْنَيْتُ مَوْتَهُ ^(١) !
وبمثل هذا القول يفسر الحديث المأثور : « اتَّقِ شَرَّ مَنْ أَحْسَنَتْ إِلَيْهِ » .

٢ - وكان دعبل في بداية أمره من قطاع الطريق ، وكان يخرج فيغيب سنين يدور الدنيا كلها ، ويرجع وقد أفاد وأثرى ، وكان الصعاليك يلقونه فلا يؤذونه ، ويؤاكلونه ويشاربونهم ويبرونهم ، وكان إذا لقيهم وضع طعامه وشرابه ، ودعاهم إليه ، ودعا بغلاميه ، فأقعدهما يغنيان ، وسقاهاهم وشرب معهم وأنشداهم ، وكان الصعاليك يواصلونه ويصلونه ^(٢) ، وهذا يفسر جانباً من حياته الخلقية ، فهو رجل يجمع بين حب الصلوة وحب الفتك . وكان أكثر الصعاليك من أهل الشهامة والنبل ، ولكنهم كانوا معروفين بحب القسوة والبطش . وقد بقي في نفسه شيء من الحياء ، وذلك أيضاً بقية من آداب الصعاليك . ومن شواهد ذلك أنه دخل الرّبي في أيام الربيع فجاءهم ثلج لم يروا مثله في الشتاء ، فأنشد شاعر من أهل الرّبي هذه الأبيات :

(١) الأغاني ج ١٨ ص ٣٦ . (٢) ص ٣٧ من نفس المصدر .

جَاءَنَا دُعِيلٌ بِشَلَجٍ مِنَ الشَّعْرِ فَجَادَتْ سَمَؤُنَا بِأَنْشُلُوجٍ
نَزَلَ الرَّيِّ بَعْدَ مَا سَكَنَ الْبَرِّ دُوْقَدَ أَيْنَعَتْ رِيَاضُ الْمُرُوجِ
فَكَسَانَا بِبَزْدِهِ لَا كَسَاهُ اللَّهُ ثَوْبًا مِنْ كُرْسُفٍ مَخْلُوجِ

وكتبها في رقعة ، وألقاها في دهليز دعبل ، فلما قرأها ارتحل عن الري^(١) .

٣ - وكان على ما فيه من الأوثم والوقاحة والعنف من أشعر الناس ، وكان
البحترى يراه أشعر من مسلم بن الوليد ، وقد سئل عن ذلك فقال : كلام دعبل
أدخل في كلام العرب من كلام مسلم ، ومذهبه أشبه بمذاهبهم^(٢) .
ومن شواهد اطلاعه أن بعضهم أنكر عليه كلاماً جرى فيه قوله :
« لَيْسَ لَكَ » فقال : دخل زيد الخليل على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له :
« يا زيد ما وُصف لي رجل إلا رأيتَه دون وصفه أَيْسَ لَكَ » يريد غيرك^(٣) .
وكان المأمون يعجب بشعره ولا سيما هذه الأبيات :

أَلَمْ يَأْنِ لِلسَّفَرِ الَّذِينَ تَحَمَّلُوا	إِلَى وَطَنِ قَبْلِ الْمَمَاتِ رُجُوعُ
فَقُلْتُ وَلَمْ أَمْلِكْ سَوَاقِبَ عُبْرَةٍ	نَطَقْنَ بِمَا صُمْتُ عَلَيْهِ ضُلُوعُ
تَبَيَّنَ فَكَمْ دَارٍ تَفَرَّقَ شَمْلُهَا	وَشَمْلٍ شَتَّيتِ عَادَ وَهُوَ جَمِيعُ
كَذَاكَ أَلْيَالِي صَرَفُهُنَّ كَمَا تَرَى	لِكُلِّ أَنْاسٍ جَذْبَةٌ وَرَيْعُ

وكان يقول : ما سافرت قط إلا كانت هذه الأبيات نصب عيني في سفرى
ومسليتي حتى أعود .

٤ - نعود إلى المشكلة الحقيقية في نفسية دعبل : كان ذلك الرجل شريراً

وكان كلفاً بإيذاء الناس فكيف يتفق له التصوف في حب أهل البيت ؟ وكيف
يغرم بالنيل من أعراض الخلفاء والأمراء والوزراء ، وبأيديهم أسباب الأرزاق ،
ثم يعطف على ناس ألحت عليهم النوائب واثمرت بهم أحداث الزمان ؟ تلك
مشكلة نفسية ، فأين الحل ؟

يغلب على الظن أن الرجل تلقى في طفولته حبّ أهل البيت ، فصار حبهم
كاللحن القديم الذى يسمعه الانسان وهو طفل فيظل يلاحقه بأنغامه وهو
كهل . وهناك نفوس لا تعرف غير هوى واحد في عالم السياسة ، ويتأصل
فيها ذلك الهوى حين تنهزم ، ولا تزال تحرص عليه حتى يتحول إلى تصوّف ،
وإذا انقلب الهوى إلى تصوّف فلا نجاة منه ولا خلاص .

ولو أن أهل البيت لعهد دعبل استطاعوا أن ينتصروا وأن يزحزحوا
السياسيين لاستطاعت الدنيا أن تغير من نفسه قواعد ذلك الهوى ، ولكنهم
ظلوا مدحورين فبقى الاشفاق عليهم حياً في نفسه حياة قوية ، وظل حبهم
يعذبه وَيُمَيِّتُهُ فينطقه في البكاء عليهم بأرقّ ما عرف شعراء الوجدان .

ومن الذى يتصور أن ذلك الرجل الذى يُلَوِّمُ أشنع اللؤم في معاملة الخلفاء
يمضى فيستوهب ثوباً من على بن موسى ؟ وَلِمَ يستوهب ذلك الثوب ؟ ليجعله
في أكفانه يوم يموت !

إن قصة ذلك الثوب عجيبة : فقد خلع على بن موسى جُبّة كانت عليه
وأعطاهما دعبلا وبلغ أهل قَمّ خبرها فسألوه أن يبيعهم إياها بثلاثين ألف درهم
فلم يفعل فخرجوا عليه في طريقه فأخذوها منه غصباً ، وقالوا له : إن شئت أن
تأخذ المال فافعل ، وإلا فأنت أعلم ! فقال لهم : إني والله لا أعطيكم إياها

طوعاً ، ولا تنفكم غصباً ، فانها إنما تُراد لله عزّ وجل ، وهي محرمة عليكم .
فدفعوا إليه ثلاثين ألف درهم ، خلف أن لا يبيعها أو يعطوه بعضها ليكون في
كفنه ، فأعطوه قرّذكم ليكون في أكفانه . وتلك حادثة غريبة المعنى
والمدلول ، لكن غرابتها لا تظهر إلا لمن يجهلون أسرار النفوس ، وإلا فأى
غرابة في أن تجتمع الرقة والقسوة والعنف واللين في قلب الشاعر الموهوب ؟

إن الشاعرية لا تقوم إلا على أساس التطرف في الحب والبغض ، وقد جمع
دعبل بين العاطفتين : فكان يوجه قسوته إلى الخلفاء ، وكان يوجه رفته إلى
أهل البيت .

ونحن نشهد في ديانا رجالات على جانب عظيم من العنف يخضعون أتمّ
الخشوع لبعض النوازع الوجدانية ، ونرى ناساً يقضون أيامهم في اللهو
والقصف ، فإذا جاءت فرصة للهدى رأيناهم أول المنيبين .

والحق أن النفس الانسانية معقدة أصعب التعمّد ومشتبكة أخطر الاشتباك
والبساطة في الأهواء من شيم الأطفال . أما اقتتال الحق والباطل ، واصطراع
الهدى والضلال ، فلا يكون إلا في النفوس القوية التي تدرك كيف يكون
اصطدام العقول وتداول الآراء .

والذين وقفوا عند الجانب السخيف من أخبار دعبل لم يفهموه حق الفهم ،
ولو قد فهموه لتمثلوا تلك الروح الصوفية ، التي أوحى إليه أن يكتب تائيته
على ثوب ويحرم فيه ثم يأمر بأن يكون ذلك الثوب في أكفانه يوم يموت .

فان هذه اللحمة الشعرية لا تقع إلا من رجل خاشع القلب رقيق الوجدان ،

ومن الظلم أن تنسى هذه المعالم الروحية حين نتحدث عن ذلك الشاعر الذي أضيف إلى زمرة الخونة والصعاليك .

وما الذي يمنع أن نفهم أن سوء ظنه بالناس لم يقع إلا لنكبته بسيادة الظلم والظالمين ؟

أروني رجلاً واحداً لم يفسد حكمه على الأشياء والأشخاص والمعاني بسبب ما يُبتلى به من انهدام صرح العدالة حين يرى الظلم يطارده أو يطارد من يحب ؟ وهذا التصعلك الذي ابتدأ به دعبل وانتهى إليه هو مصير كل رجل تحذله المقادير السياسية ، والمنهزمون في السياسة لا ينظرون إلى الأمور إلا من جانب واحد : لأن الهزيمة تذهب بأصول التفكير المعقول ، وتقف الرجل على أهوائه وآماله ، وتحوّل فلسفته في الحياة إلى أمشاج من الضغن والتلؤم والقنوط .

والوزراء الذين كان يكلف بهجائهم دعبل ، مَنْ هم ؟ لا نريد أن نسأل عن ذاتيتهم في حقيقة الأمر ، فقد يكون فيهم ناس نبلاء ، ولكن مَنْ هم في نفس دعبل ؟ هم ظمّة عاونوا الظالمين ، وخوّنة عاونوا الخائنين ، ويكفي أن تثور معاني الظلم والعدل في نفس شاعر ليصبح وهو ثائرٌ مغبول .

وما أريد بهذا أن أدافع عن دعبل ، ولكني أريد أن أفهم كيف اتفق أن يكون قلبه مسرحاً لحوادث العنف واللين ، وكيف صح له أن يجمع بين سَفَهٍ اللئيم ورفق الحليم ، وكيف جاز أن يكون أخطأ الناس وأشرف الناس ؟ وأظنني وصلت من ذلك إلى بعض ما أريد .

ولو كان الرواة فطنوا إلى ما كان في نفس دعبل من التعقد والاشتباك لم عدّوا عليه خيائته للرشيد ، فقد ذكروا أن الرشيد طرب حين غُنّي بين يديه :

لَا تَعْجِبِي يَا سَلَمُ مِنْ رَجُلٍ ضَحِكَ الْمَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى

وسأل عن صاحب الشعر فقيل له : دعبل بن عليّ ، وهو غلام نشأ من خِزاعة ، فأمر باحضار عشرة آلاف درهم وخلمة من ثيابه ، فأحضر ذلك فدفعه مع مركب من مراكبه إلى خادم من خاصته . وقال له : اذهب بهذا إلى خِزاعة فاسأل عن دعبل بن عليّ ، فإذا دُلّت عليه فأعطه هذا ، وقل له ليحضر إن شاء ، وإن لم يُحِبَّ ذلك فدعه فسار الغلام إلى دعبل وأعطاه الجائزة وأشار عليه بالمسير إليه ، وحضر دعبل إلى الرشيد فأمره بملازمته وأجرى عليه رزقا سنائيا .

ولكنه ما كاد يسمع بموت الرشيد حتى كافأه على ما صنع به من الغنى بعد الفقر والنباهة بعد الخمول أقيح مكافأة ، وقال فيه من قصيدة مدح بها أهل البيت وهجا الرشيد :

وَلَيْسَ حَتَّى مِنْ الْأَحْيَاءِ نَعْلَمُهُ	مِنْ ذِي يَمَانٍ وَمِنْ بَكْرِ وَمِنْ مُضَرَ
إِلَّا وَهُمْ شُرَكَاءُ فِي دِمَائِهِمْ	كَمَا تَشَارَكَ أَيْسَارُهُ عَلَى جُزُرٍ
قَتْلُ وَأَسْرُ وَتَحْرِيقُ وَمَنْهَبَةٌ	فِعْلَ الذُّرَةِ بِأَرْضِ الرُّومِ وَالْخَزَرِ
أَرَى أُمَّةً مَعْدُورِينَ إِنْ قَتَلُوا	وَلَا أَرَى لِابْنِ الْعَبَّاسِ مِنْ عُذْرِ
أَرْبَعِ بَطُوسٍ عَلَى الْقَبْرِ الزَّكِيِّ إِذَا	مَا كُنْتَ تَرْبَعُ مِنْ دِينٍ عَلَى وَطَرِ
قَبْرَانِ فِي طُوسٍ خَيْرَ النَّاسِ كُلِّهِمْ	وَقَبْرُ شَرِّهِمْ هَذَا مِنْ الْعَبَرِ
مَا يَنْفَعُ الرَّجْسَ مِنْ قُرْبِ الزَّكِيِّ وَلَا	عَلَى الزَّكِيِّ بِقُرْبِ الرَّجْسِ مِنْ ضَرَرِ
هَيْهَاتَ كُلِّ أَمْرٍ رَهْنٌ بِمَا كَسَبَتْ	لَهُ يَدَاهُ فَخُذْ مَا شِئْتَ أَوْ فَذَرِ

وهو يعنى قبر الرشيد ، وقبر على الرضا ، وكان يعرف ماسيلقى من أبناء الرشيد^(١) .
فهذه المرأة هى سمة التصوف فى الحب ، وأخذ هذا الشاعر لعطايا الرشيد
وذمه بعد ذلك لون من الانحراف ، ولكنه دليل على أن هوى الشاعر كان كله
موجهاً إلى أهل البيت ، ولولا ذلك الهوى لاستطاع أن ينعم بدنيا المأمون .
والتصوف فى ذاته خيال فى المقاصد الدنيوية ، ولكن جماله يرجع إلى الشجاعة
فى احتقار ما فى الدنيا من لذة ومتاع ، وهل هناك شجاعة أقوى من أن يخرج
المرء على الغالبين ليناصر المغلوبين ؟ وهل هناك زهد أبلغ من ترك دعبل طيبات
الحياة فى قصور الخلفاء ليدور فى الدنيا كما يدور الصماليك ؟

٥ — لقد كان لدعبل مدائح كثيرة فى أهل البيت ، ولكنها ضاعت ولم
يبق إلا القليل ، ومن جيد مابقى قواه فى رثاء الحسين :

رَأْسُ ابْنِ بِنْتِ مُحَمَّدٍ وَوَصِيِّهِ	يَا لِلرَّجَالِ عَلَى قَنَاءٍ تُرْفَعُ
وَالْمُسْلِمُونَ يَنْظُرُونَ وَيَسْمَعُونَ	لَا جَارِعَ مِنْ ذَا وَلَا مُنْخَشِعُ
أَيَقُظْتَ أَجْفَانَاوَكُنْتَ لَهَا كَرَى	وَأَنْتَ عَيْنَا لَمْ تَكُنْ بِكَ تَهْجِعُ
كُحِلَتْ يَنْظُرُكَ الْعُيُونُ عِمَامَةً	وَأَصَمَّ نَعِيمُكَ كُلُّ أُذُنٍ تَسْمَعُ
مَا رَوْضَةً إِلَّا تَمَنَّتْ أَنَّهَا	لَكَ مَضْجَعٌ وَلِحَظٌ قَبْرُكَ مَوْضِعُ

٦ — وأشهر قصائده وأبقاها على الزمان وأجدرها بالخلود هى التائية ذات
المطلع المفجع :

مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَّتْ مِنْ تِلَاوَةٍ وَمَنْزِلٌ وَحْنٍ مُفْقِرُ الْعَرَاصِ

وقد كان لهذه القصيدة صَدَى في أكثر العصور الأدبية عند العرب ، ويكفي أن نعرف أن ياقوتاً حين ترجم لابن لنكك البصرى ذكر من أخباره أنه كان يروى قصيدة دعبل التي مطلعها :

مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَّتْ مِنْ تِلَاوَةٍ

كأن رواية تلك القصيدة من مناقب الرجال .
وكان المأمون لا يجابه ببراعة دعبل في تلك التائية يتمنى أن يسمعها من الشاعر نفسه ، فتلطف لاحضار دعبل فلما دخل وسلم عليه تبسم في وجهه ، ثم قال أنشدني :

مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَّتْ مِنْ تِلَاوَةٍ وَمَنْزِلٌ وَحْيٍ مُقْفَرُ الْعَرَاصَاتِ

فجزع دعبل . فقال له المأمون : لك الأمان فلا تحف ! وقد رويتها ولكني أحب سماءها من فيك ، فأنشده إياها إلى آخرها ، والمأمون يبكي حتى أخضل لحيته بدمعه .

وكان أهل البيت يطربون لتلك القصيدة ويرون فيها العزاء عما أصابهم من الفواجع ، وقد حدث دعبل قال :

دخلت على علي بن موسى الرضا عليهما السلام فقال لي : أنشدني شيئاً مما أحدثت ، فأنشدته :

مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَّتْ مِنْ تِلَاوَةٍ وَمَنْزِلٌ وَحْيٍ مُقْفَرُ الْعَرَاصَاتِ

حتى انتهيت إلى قولي :

إِذَا وَتَرُوا مَدُّوا إِلَى وَاتِرِهِمْ أَكُفَّا عَنْ الْأَوْتَارِ مُنْقَبِضَاتِ

فبكى حتى أغمى عليه وأومأ إلى خادم كان على رأسه أن أسكت ، فسكت ساعة ثم قال لى : أعد ، فأعدت حتى انتهت إلى هذا البيت أيضاً ، فأصابه مثل الذى أصابه فى المرة الأولى ، وأومأ الخادم إلى أن اسكت فمكث ساعة أخرى ، ثم قال لى أعد ، فأعدت حتى انتهت إلى آخرها ، فقال لى : أحسنت ثلاث مرات ، ثم أمر لى بعشرة آلاف درهم مما ضرب باسمه ، ولم تكن وقعت إلى أحد بعد . فقدمت العراق فبعت كل درهم منها بعشرة آلاف درهم اشتراها منى الشيعة ، فحصل لى مائة ألف درهم^(١) .

وقد وثق دعبل نفسه بهذه التائية فتنة شديدة ، ومضى يحدث الناس بأن أخبارها طارت إلى الجن ، وأن أحدهم هبط إليه ليسمعا منه ، فلنسمع كلام دعبل فى هذا الخيال الطريف ، قال :

لما هربت من الخليفة بت ليلة بنيسابور وحدى ، وعزمت على أن أعمل قصيدة فى عبد الله بن طاهر فى تلك الليلة ، فأنى لنى ذلك إذ سمعت والباب مردود على :

« السلام عليكم ورحمة الله ! انج يرحمك الله »

فاقشعرت بدنى من ذلك ونالنى أمر عظيم . فقال لى : لا تُرغ عافاك الله ! فأنى رجل من إخوانك من الجن من ساكنى اليمين طراً إلينا طارى من أهل العراق فأنشدنا قصيدتك :

مَدَارِسُ آيَاتٍ خَدَّتْ مِنْ تِلَاوَةٍ وَمَنْزِلٌ وَحْيٍ مُقْفِرُ الْعَرَصَاتِ

فأحييت أن أسمعها منك .

قال دعبل : فأنشدته إياها ، فبكى حتى خرّ ، ثم قال : رحمك الله ! ألا أحدثك بحديث يزيد في نيتك ، ويمينك على التمسك بمذهبك ؟ قلت بلى ! قال مكثت حيناً أسمع بذكر جعفر بن محمد عليه السلام ، فصرت إلى المدينة فسمعتَه يقول : حدثني أبي عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : عليّ وشيعتهُ هم الفائزون .

قال دعبل : ثم ودعني لينصرف ، فقلت له : يرحمك الله ! إن رأيت أن تخبرني باسمك فافعل . فقال أنا : ظبيان بن عامر ^(١) .

والحكاية في ذاتها طريفة ، وهي تمثل سذاجة الناس من أنصار أهل البيت لذلك العهد .

والجن من أهل اليمن كانوا بعيدين عن مقر الدعوات الإسلامية ، فتَقَصَّلَ الرواة ونقلوها تارة إلى المدينة ، وتارة إلى العراق ، ولهم في كتب الأدب أخبار لا تخلو من طرافة وظرف .

٧ — ننتقل بعد ذلك إلى مواجهة تلك التائية ، ولنذكر أن ياقوتاً أثبت منها ٥٠ بيتاً ، وأنه أخبرنا أن نسخها مختلفة ، وأن في بعضها زيادات يُظنُّ أنها مصنوعة ألحقها بها أناس من الشيعة ، وتلك الخمسة والأربعون بيتاً هي ما صحَّ من القصيدة في نظر ياقوت ^(٢) .

وأهمية هذه القصيدة ترجع إلى ما فيها من التحزن والتفجع ، وهي لذلك من خير ما قيل في الانتصار لأهل البيت ، وفيها فوق ذلك تصريح عن عقيدة

(١) الأغاني ص ٣٩ . (٢) انظر معجم الأدباء ج ٤ ص ١٩٤ .

الشيعة في الامام المنتظر الذي يؤمن دعبل بأنه خارج لاحالة ، وأنه يقوم على اسم الله والبركات . ولترك الشاعر يحدثنا عما كان يضطرب في صدره من آلام وآمال :

مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَّتْ مِنْ تِلَاوَةٍ وَمَنْزِلٌ وَخِي مُقْفِرُ الْعِرَاصَاتِ
لَا لِرَسُولِ اللَّهِ بِالْخَيْفِ مِنْ مَنِي وَبِالرُّكْنِ وَالتَّعْرِيفِ وَالْجَمَرَاتِ
دِيَارُ عَلِيٍّ وَالْحَسَنِ وَجَعْفَرٍ وَخَمَزَةِ وَالسَّجَّادِ ذِي الثَّنَائَاتِ
دِيَارُ عَفَاكَ كُلُّ جَوْنٍ مُبَادِرٍ وَلَمْ تَعْفُ لِلْأَيَّامِ وَالسَّنَوَاتِ
قِفَا نَسْأَلِ الدَّارَ الَّتِي خَفَّ أَهْلُهَا مَتَى عَهْدُهَا بِالصَّوْمِ وَالصَّلَوَاتِ
وَأَيْنَ الْأَلَى شَطَّتْ بِهِمْ غَرْبَةُ النَّوَى أَفَانِينَ فِي الْآفَاقِ مُفْتَرِقَاتِ
هُمْ أَهْلُ مِيرَاثِ النَّبِيِّ إِذَا اعْتَزَوْا وَهُمْ خَيْرُ قَادَاتٍ وَخَيْرُ حِمَامَةٍ
وَمَا النَّاسُ إِلَّا حَاسِدٌ وَمُكَذِّبٌ وَمُضْطَفِّنٌ ذُو إِخْنَةٍ وَتِرَاتِ
إِذَا ذَكَرُوا قَتَلَى بِيَدٍ وَخَيْرٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ أَسْأَلُوا الْعِبَرَاتِ
قُبُورٌ بِكُوفَانٍ وَأُخْرَى بِطَبِيبَةٍ وَأُخْرَى بِفَخٍّ نَالَهَا صَلَوَاتِ
وَقَبْرٌ بِيَنْدَادٍ لِنَفْسٍ زَكِيَّةٍ تَضَمَّنَهَا الرَّحْمَنُ فِي التُّرُوتَاتِ
فَأَمَّا الْمُصِصَّمَاتُ الَّتِي لَسْتُ بِالنَّكَارِ مَبَالِغَهَا مِنِّي بِكُنْهِ صِفَاتِ
إِلَى الْحَشْرِ حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ قَائِمًا يُفَرِّجُ مِنْهَا أَلْهَمَ وَالْكُرْبَاتِ
نَفُوسٌ لَدَى النَّهْرَيْنِ مِنْ أَرْضِ كَرْبَلَا مُعَرَّسُهُمْ فِيهَا بِشَطِّ فُرَاتِ
تَقَسَّمُهُمْ رَبُّ الزَّمَانِ كَمَا تَرَى لَهُمْ عَفْرَةٌ مَغْشِيَةٌ الْحُجْرَاتِ

سِوَى أَنْ مِنْهُمْ بِالْمَدِينَةِ عُصْبَةٌ
 قَلِيلَةٌ زُورًا سِوَى أَنْ زُورًا
 لَهُمْ كُلَّ حِينٍ نَوْمَةٌ بِمَضَاجِعِ
 وَقَدْ كَانَ مِنْهُمْ بِالْحِجَازِ وَأَهْلِهَا
 تَنَكَّبُ لِأَوَاءِ السِّنِينَ جِوَارَهُمْ
 إِذَا وَرَدُوا خِيَلًا تَشْمَسُ بِالْقَنَا
 وَإِنْ نَفَرُوا يَوْمًا أَتَوْا بِمُحَمَّدٍ
 مَدَى الدَّهْرِ أَنْضَاءَ مِنَ الْأَرْمَاتِ
 مِنَ الضَّبْعِ وَالْعِقْبَانِ وَالرَّخْمَاتِ
 لَهُمْ فِي نَوَاحِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفَاتِ
 مَغَاوِيرُ يَخْتَارُونَ فِي السَّرَوَاتِ
 فَلَا تَصْطَلِبُهُمْ جَزَرَةُ الْجَمَرَاتِ
 مَسَاعِرَ جَرِ الْمَوْتِ وَالْفَعْرَاتِ
 وَجِبْرِيلَ وَالْفُرْقَانَ ذِي السُّورَاتِ

* *

مَلَامَكَ فِي أَهْلِ النَّبِيِّ فَإِنَّهُمْ
 تَخَيَّرَهُمْ رُشْدًا لِأَمْرِي فَإِنَّهُمْ
 فَيَارَبِّ زِدْنِي مِنْ يَقِينِي بِصِيرَةٍ
 بِنَفْسِي أَنْتُمْ مِنْ كُهُولٍ وَفِتْيَةٍ
 أَحِبُّ قَصِي الرَّحْمِ مِنْ أَجْلِ حُبِّكُمْ
 وَأَكْرِمُ حُبِّكُمْ خَفَافَةً كَأَشِحِ
 لَقَدْ حَفَّتِ الْأَيَّامُ حَوْلِي بِشَرِّهَا
 أَلَمْ تَرَ أَنِّي مِنْ ثَلَاثِينَ حِجَّةً
 أَرَى فَيْتَهُمْ فِي غَيْرِهِمْ مُتَمَمًّا
 قَالَ رَسُولُ اللَّهِ نُحِفُ جُسُومَهُمْ
 أَحْبَابَ مَا عَاشُوا وَأَهْلُ ثِقَاتِي
 عَلَى كُلِّ حَالٍ خَيْرُهُ الْخَيْرَاتِ
 وَزِدْ حُبَّهُمْ يَا رَبِّ فِي حَسَنَاتِي
 لِفَكَ عُنَاةٍ أَوْ لِحَمْلِ دِيَاتِ
 وَأَهْجُرُ فَيْكُمْ أُسْرَتِي وَبَنَاتِي
 عَنِيدٍ لِأَهْلِ الْخَيْرِ غَيْرِ مَوَاتِ
 وَإِنِّي لَأَرْجُو الْأَمْنَ بَعْدَ وَفَاتِي
 أَرْوَحُ وَأَغْدُو دَائِمَ الْحَسَرَاتِ
 وَأَيْدِيَهُمْ مِنْ فَيْتِهِمْ صَفَرَاتِ
 وَآلُ زِيَادٍ حُفُّ الْقَصَرَاتِ

بَنَاتُ زِيَادٍ فِي الْقُصُورِ مَصُونَةٌ وَآلُ رَسُولِ اللَّهِ فِي الْفَلَوَاتِ
إِذَا وَتَرُوا مَدُّوا إِلَى وَاتِرِهِمْ أَكْفًا عَنِ الْأَوْتَارِ مُنْقِبَضَاتِ

* * *

فَلَوْلَا الَّذِي أَرْجُوهُ فِي الْيَوْمِ أَوْغَدِ لَقَطَعَ قَلْبِي إِفْرَهُمْ حَسَرَاتِي
خُرُوجِ إِمَامٍ لَا مَحَالَةَ خَارِجُ يَقُومُ عَلَى أَسْمِ اللَّهِ وَالْبَرَكَاتِ
يَمَيِّرُ فِينَا كُلَّ حَقٍّ وَبَاطِلٍ وَيَجْزِي عَلَى النِّعْمَاءِ وَالنِّقَمَاتِ
سَافَصُرُ نَفْسِي جَاهِدًا عَنِ جِدَالِهِمْ كَفَانِي مَا أَلْقَى مِنْ الْعِبَرَاتِ
فَيَا نَفْسُ طِيبِي ثُمَّ يَا نَفْسُ أَبْشِرِي فَفَرُّ بَعِيدِ كُلِّ مَا هُوَ آتٍ
فَإِنْ قَرَّبَ الرَّحْمَنُ مِنْ تِلْكَ مَدَّتِي وَأَخَّرَ مِنْ عُمرِي لِطُولِ حَيَاتِي
شَفِيتُ وَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِي رَزِيَّةً وَدَوَيْتُ مِنْهُمْ مُنْطَلِي وَقَنَاتِي
أَحَاوِلْ نَقْلَ الشَّمْسِ مِنْ مُسْتَقَرِّهَا وَأُسْمِعْ أَحْجَارًا مِنَ الصَّلَدَاتِ
فِنْ عَارِفٍ لَمْ يَنْتَفِعْ وَمُعَانِدٍ يَعْمَلُ مَعَ الْأَهْوَاءِ وَالشُّبُهَاتِ
قُصَارَايَ مِنْهُمْ أَنْ أَمُوتَ بِنُصَّةٍ تُرَدِّدُ بَيْنَ الصَّدْرِ وَاللَّهْوَاتِ
كَأَنَّكَ بِالْأَضْلَاعِ قَدْ ضَاقَ رَحْبُهَا لِمَا ضَمِنْتَ مِنْ شِدَّةِ الزَّفَرَاتِ

٨ - هذا ، ولدعبل أخبار كثيرة يجدها القارىء في الجزء الثامن عشر من الأغاني ، وجاءه الحنف بسبب أهاجيه لمالك بن طوق ، وكانت وفاته سنة ٢٤٦ رحمه الله وعفا عنه !

الفصل السادس

قصائد الشريف الرضى

في صريع كربلاء

١ - للشريف الرضى قصائد كثيرة في مدح أهل البيت ، وهى فى جلّتها من آثار التصوف ، وإن كانت المصيبة تغلب عليها فى بعض الأحيان فتنتقلها من رقة الوفاء ، إلى عنجهية الفخر والخيلاء ، من ذلك قوله فى رثاء أمه :

آبَاؤُكَ الذُّرُّ الَّذِينَ تَفَجَّرَتْ	بِهِمْ يَتَابِعُ مِنْ النِّعَمَاءِ
مِنْ نَاصِرٍ لِلْحَقِّ أَوْ ذَاعٍ إِلَى	سُبُلِ الْهُدَى أَوْ كَاشِفِ النِّعَمَاءِ
تَزَلُّوا بِمُرْعَرَةِ السَّمَامِ مِنَ الْعَلَا	وَعَلَوْا عَلَى الْأَنْبَاجِ وَالْأَمْطَاءِ ^(١)
مِنْ كُلِّ مُسْتَبَقٍ إِلَيْهِ إِلَى النَّدَى	وَمُسَدَّدِ الْأَفْوَالِ وَالْآرَاءِ
يُرْجَى عَلَى النَّظَرِ الْحَدِيدِ تَكَرُّمًا	وَيُخَافُ فِي الْأَطْرَاقِ وَالْإِغْضَاءِ
دَرَجُوا عَلَى أَثَرِ الْقُرُونِ وَخَلَفُوا	طُرُقًا مُمَبَّدَةً مِنْ الْعَلَمَاءِ

(١) عرعره كلّ شيء ، بالضم : رأسه ومعظمه ، والأنباج جمع نبع بالتحريك ، وهو ما بين الكاهل إلى الظهر ، والأمطاء جمع مطا ، وهو الظهر .

فهذا من جيد القول في مدح أهل البيت ، ولكنه لم يقصد لمعناه الروحي ، وإنما أريد به التمدح بشرف الأنساب كالذي جاء في قصيدة :

* لنا كل يوم رنة خلف ذاهب *

التي رثى بها خاله أحمد بن الحسين ، ومن ذلك ما جاء في بائته القوية :

* لغير الملا منى القلا والتجنب *

إذ قال :

أَهْذَبُ فِي مَدْحِ الثَّامِ خَوَاطِرِي	فَأَصْدُقُ فِي حُسْنِ الْمَاكِ وَأَكْذِبُ
وَمَا الْمَدْحُ إِلَّا فِي النَّبِيِّ وَآلِهِ	يُرَامُ وَبَعْضُ الْقَوْلِ مَا يُتَجَنَّبُ
وَأُولَى بِمَدْحِي مَنْ أَعَزُّ بِفَخْرِهِ	وَلَا يَشْكُرُ النِّعْمَاءَ إِلَّا الْمُهَذَّبُ
أَرَى الشُّعْرَ فِيهِمْ بَاقِيَا وَكَأَنَّمَا	تُحَلَّقُ بِالْأَشْنَارِ عَنَقَاهُ مُغْرَبُ
وَقَالُوا تَعِيبٌ مُجَبُّ مِثْلِي بِنَفْسِهِ	وَأَنْ عَلَى الْآيَاتِ مِثْلُ أَبِي أَبُ
لَعَمْرُكَ مَا أُعْجِبْتُ إِلَّا بِمَدْحِهِمْ	وَيُحْسَبُ أُنَى بِالْقَصَائِدِ مُعْجَبُ
أَعِذْ لِفَخْرِي فِي الْمَقَامِ مُحَمَّدًا	وَأَدْعُو عَلِيًّا لِلْمَلَا حِينَ أُرَكَّبُ

وهذا ليس من التصوف في شيء ، وإنما هو زهو بقوة العصبية .

ومن ذلك قوله في رثاء أهل البيت :

سَقَى اللَّهُ الْمَدِينَةَ مِنْ مَحَلٍّ	لُبَابَ الْمَاءِ وَالنُّطَافِ الْمِدَابِ
وَجَادَ نَعْلَى الْبَقِيعِ وَسَاكِنِيهِ	رَخِيئُ الذَّنْبِلِ مَلَانُ الْوِطَابِ (١)

(١) رخی الذنیل : هو السحاب الثقيل ، والوطاب جمع وطب ، وهو سقاء من جلد .

وَأَغْلَامَ الْغُرَىِّ وَمَا اسْتَبَاحَتْ مَعَالِمَهَا مِنْ الْحَسْبِ اللَّبَابِ^(١)
وَقَبْرًا بِالطَّفُوفِ يَضُمُّ شُلُوعًا قَضَى ظَمًا إِلَى بَرْدِ الشَّرَابِ
وَسَامِرًا وَبَغْدَادًا وَطُوسًا هَطُولَ الْوَذْقِ مُنْخَرِقَ الْمُبَابِ
قُبُورُهُ تَنْطَفُ الْمَبْرَاتُ فِيهَا كَمَا نَطَفَ الصَّيْرُ عَلَى الرَّوَابِي^(٢)
فَلَوْ بَحَلَ السَّحَابُ عَلَى ثَرَاهَا لَذَابَتْ فَوْقَهَا قِطْعُ السَّرَابِ
سَقَاكَ فَكَمْ ظَمِئْتُ إِلَيْكَ شَوْفَا عَلَى عُدُوءٍ دَارِي وَأَقْرِابِي

إلى أن يقول :

بِكُمْ فِي الشَّعْرِ نَفْرَى لَا بِشِعْرِي وَعَنْكُمْ طَالَ بَاعِي فِي الْخِطَابِ
أَجَلٌ عَنِ الْقَبَاحِ غَيْرَ أَنِّي لَكُمْ أَرْبَى وَأَرْمَى بِالسَّبَابِ
فَأَجْهَرُ بِالْوَلَاءِ وَلَا أَوْرَى وَأَنْطِقُ بِالْبَرَاءِ وَلَا أُحَابِي
وَمَنْ أَوْلَى بِكُمْ مِنِّي وَلِيًّا وَفِي أَيْدِيكُمْ طَرْفُ انْتِسَابِي

ولا مزية في أن نزع الفخر أغلب على مثل هذا الشعر من نزع التصوف ،
وأصرح منه في الفخر قوله يردّ على جماعة افتخروا على ولد علي بن أبي طالب :

وَلَوْلَا عَلِيٌّ مَا عَلَوْا سُرُوتَاهَا وَلَا جَمَعُوا مِنْهَا بَرَعَى وَمُورِدِ^(٣)
أَخَذْنَا عَلَيْهِمُ الْبَلِيَّةَ وَالْفَاطِمِ طِلَاعَ الْمَسَاعِي مِنْ مَقَامٍ وَمَقْعَدِ

(١) الغرى في الأصل البناء الجيد ، وهو هنا موضع بظاهر الكوفة بقرب قبر علي بن أبي طالب .

(٢) الصير : السحاب الذي بعضه فوق بعض .

(٣) السروات : الظهور ، والجمعية تحريك الابل للاناخة أو النهوض .

وطلنَّا بِسِبْطِي أَحْمَدٍ وَوَصِيهِ رِقَابَ الْوَرَى مِنْ مُتَّهِمِينَ وَمُنْجِدِ
وَحُزْنَاعَتِيقًا وَهُوَ غَايَةُ فَخْرِكُمْ بِمَوْلِدِ بِنْتِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ
خَجْدُ نَبِيِّنَا جَدُّ خَلِيفَةٍ فَمَا بَعْدَ جَدِّينَا عَلِيٍّ وَأَحْمَدِ

٢ - وتظهر طلائع التصوف في قصيدته التي أثنى فيها على رفيق عمر بن عبد العزيز بأهل البيت ، وقد نقل إليه أن جعفر الصادق قال : « كان العبد الصالح أبو حفص يهدي إلينا الدراهم والدنانير في زقاق العسل خوفًا من أهل بيته » ولنواجه أنفاس الخزان في هذا الشعر الرقيق :

يَا ابْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ لَوْ بَكَتِ الْعَيْنُ فَنَتَى مِنْ أُمِّيَّةٍ لَبَسَكِيتُكَ
غَيْرَ أَنِّي أَقُولُ إِنَّكَ قَدْ طِبْتَ وَإِنْ لَمْ يَطِبْ وَلَمْ يَزْكُ يَبْنُوكُ
أَنْتَ نَزَّهْتَنَا عَنِ السَّبِّ وَالْقَذِّ فِي فَلَوْ أَمْكَنَ الْجَزَاءُ جَزَايُكَ
وَلَوْ أَنِّي رَأَيْتُ قَبْرَكَ لَأَسْتَخَيَّيْتُ مِنْ أَنْ أُرَى وَمَا حَيَّيْتُكَ
وَقَلِيلُ أَنْ لَوْ بَدَلْتُ دِمَاءَ الْبُذْنِ حُزْنَاعَتِيقًا عَلَى الدَّرَى وَسَقَيْتُكَ
دِرْزَ سَمْعَانَ لَا أَعْيَبَكَ غَادٍ خَيْرُ مَيِّتٍ مِنْ آلِ مَرْوَانَ مَيِّتُكَ
أَنْتَ بِالذِّكْرِ بَيْنَ عَيْنِي وَقَلْبِي إِنْ تَدَانَيْتُ مِنْكَ أَوْ قَدْ نَأَيْتُكَ
وَإِذَا حَرَّكَ الْحَشَا خَاطِرُهُ مِنْكَ تَوَهَّيْتُ أَنَّنِي قَدْ رَأَيْتُكَ
وَعَجِيبُ أَنِّي قَلَمْتُ بَنِي مَرْوَانَ طُرًّا وَأَنْبَنِي مَا قَلَمْتُكَ
قَرَّبَ الْعَدْلُ مِنْكَ لَمَّا نَأَى الْجَوْزُ رُبَّهِمْ فَأَجْتَوَيْتَهُمْ وَأَجْتَبَيْتُكَ
فَلَوْ أَنِّي مَلَكَتُ دَفْعًا لَمَّا نَأَى بِكَ مِنْ طَارِقِ الرَّدَى لَفَدَيْتُكَ

٣ - ولم يظهر توجع الشريف على أهل البيت ظهوراً قوياً إلا في قصائده التي بكى بها الحسين ، وقد جمعت بين حرارة العصبية وصدق الوفاء .

وللشريف الرضى في بكاء الحسين خمس قصائد طوال . الأولى رائية قالها في سنة ٣٧٧ ، والثانية لامية قالها سنة ٣٨٧ ، والثالثة دالية قالها سنة ٣٩٠ ، والرابعة دالية أيضاً قالها سنة ٣٩٠ ، والخامسة مقصورة لم يذكر لها تاريخ .

٤ - بدأ الشاعر قصيدته الرائية بأبيات في وصف ما يغمره من الحزن والقلق ، ثم اندفع يذكر ما يساوره لذكرى عاشوراء ، فقال :

وَرُبَّ قَائِلَةٍ وَاهِمٌ يُتَحَفُّنِي	بِنَاطِرٍ مِنْ نِطَافِ الدَّمْعِ مَمْطُورٍ
خَفُضْ عَيْنَكَ فَلَا حَزَانَ آوِنُهُ	وَمَا الْمُقِيمُ عَلَى حُزْنٍ بِمَمْدُورٍ
فَقُلْتُ هَيْهَاتَ فَاتَ السَّمْعُ لَأُئِمُّهُ	لَا يَفْهَمُ الْحُزْنَ إِلَّا يَوْمَ عَاشُورٍ
يَوْمَ حَدَى الطَّغْنِ فِيهِ بَابُنِ فَاطِمَةَ	سِنَانُ مُطَرِّدِ السَّكَمَيْنِ مَطْرُورٍ ^(١)
وَحَرَّ لِلْمَوْتِ لَا كَفَّ تُقَلِّبُهُ	إِلَّا بَوَاطِءَ مِنَ الْجُرْدِ الْمُحَاضِرِ ^(٢)
ظُلْمَانُ سَلَّى نَجِيعُ الطَّغْنِ غُلَّتُهُ	عَنْ بَارِدٍ مِنْ عُبَابِ الْمَاءِ مَقْرُورٍ ^(٣)

وفي هذه الأبيات يسمى الحسين « ابن فاطمة » لتكون الذكرى أوجع ، ويذكر أنه مات ظلماً لم يسله عن الماء إلا الدم النجيع ، وسرى كيف يحرص الشاعر في سائر قصائده على هذه الذكرى الأليمة ، وهي موت الحسين وهو ظلماً .

(١) السنان المطرور : المحدد . (٢) الجرد جمع أجرد ، وهو الفرس القصير الشعر ، والمحاضر جمع

محضر ، وهو الفرس المرتفع في عدوه . (٣) مقرور : بارد .

ثم قال في التوجع لمصرع ذلك السبط النبيل :

كَأَنَّ بَيْضَ الْمَوَاضِي وَهِيَ تَنْهَبُهُ نَارُ تَحَمُّكُمْ فِي جَنَمٍ مِنَ النُّورِ
لِلَّهِ مُلْتَقًى عَلَى الرَّمَضَاءِ عَضَّ بِهِ فَمِ الرَّدَى بَيْنَ إِفْدَامٍ وَتَشْمِيرِ
تَحْنُو عَلَيْهِ الرُّبَا ظِلًّا وَتَسْتُرُهُ عَنِ النَّوَاطِرِ أَذْيَالُ الْأَعَاصِيرِ
تَهَابُهُ الْوَحْشُ أَنْ تَذْنُو لِمَصْرَعِهِ وَقَدْ أَقَامَ ثَلَاثًا غَيْرَ مَقْبُورِ

وهو يصفه بالكرامة في الممات ، فيذكر أن الربا أظلمته ، وأن أذيال الأعاصير سترته عن العيون ، وأن الوحش هابه فلم ينهش لحمه ، مع أنه أقام ثلاث ليال غير مقبور .

ثم قال يذم بني أمية ، ويهدد بالنار لأهل البيت :

بَنِي أُمَيَّةَ مَا الْأَسْيَافُ نَائِمَةٌ عَنْ شَاهِرٍ فِي أَقَاصِي الْأَرْضِ مَوْثُورِ
وَالْبَارِقَاتُ تَلْمُوزِي فِي مَغَامِدِهَا وَالسَّابِقَاتُ تَعْطِي فِي الْمَضَامِيرِ
إِنِّي لَأَرْقُبُ يَوْمًا لَا خِفَاءَ لَهُ عُرْيَانٌ يَقْلُقُ مِنْهُ كُلُّ مَعْرُورِ
وَاللِّصَوَارِمِ مَا شَاءَتْ مَضَارِبُهَا مِنَ الرِّقَابِ شَرَابٌ غَيْرُ مَنْزُورِ
أَكُلُّ يَوْمٍ لَيْلٍ الْمُسْطَقَى قَرُّ يَهْوِي بِوَقْعِ الْعَوَالِي وَالْمَبَاتِيرِ
وَكُلُّ يَوْمٍ لَهُمْ بَيْنَاءٌ صَافِيَةٌ يَشُوبُهَا الدَّهْرُ مِنْ رَنَقٍ وَتَكْدِيرِ
مِنْغَوَارُ قَوْمٍ يَرُوعُ الْمَوْتُ مِنْ يَدِهِ أُمْسَى وَأَصْبَحَ نَهْبًا الْمَقَادِيرِ
وَأَبْيَضُ الْوَجْهِ مَشْهُورٌ تَغَطَّرُهُ مَضَى يَوْمٌ مِنَ الْأَيَّامِ مَشْهُورِ
مَالِي تَعَجَّبْتُ مِنْ هَمِّي وَنُفْرَتِهِ وَالْحُزْنُ جُرْحٌ بَقْلِي غَيْرُ مَسْبُورِ

ومهاجة بنى أمية لا موجب لها في هذا الوطن ، لأن دولتهم كانت دالت ،
وإنما يهدد خلفاء بنى العباس .

ثم قال يخاطب الحسين :

يَا جَدُّ ، لَا زَالَ لِي هَمْ يُحَرِّضُنِي عَلَى الدُّمُوعِ وَوَجَدْتُ غَيْرُ مَقْهُورٍ
وَالدَّمْعُ تَحْفِزُهُ عَيْنُ مُورَقَةٍ حَفَزَ الْحَنِيَّةَ عَنْ تَرْعٍ وَتَوَاتِيرٍ^(١)
إِنَّ السُّلُوءَ لَمَحْظُورٌ عَلَى كَبْدِي وَمَا السُّلُوءُ عَلَى قَلْبٍ بِمَحْظُورٍ

٥ - وفي قصيدته الالامية يبدأ فيتحدث عن الدنيا وفتكها بالناس فيقول :

رَاحِلُ أَنْتَ وَاللَّيَالِي زُرُوءٌ وَمُضِرُّ بِكَ الْبَقَاءُ الطَّوِيلُ
لَا شُجَاعٌ يَبْقَى فَيَمْتَنِقُ الْبَيْضَ وَلَا آمِلٌ وَلَا مَأْمُولُ
غَايَةُ النَّاسِ فِي الزَّمَانِ فَنَاءٌ وَكَذَا غَايَةُ الْفُصُونِ الدُّبُولُ
إِنَّمَا الْمَرْءُ الْإِمْنِيَّةَ تَحْبُو ۖ وَلِلطَّعْنِ تَسْتَجِمُّ الْخِيُولُ
مِنْ مَقِيلٍ بَيْنَ الضُّلُوعِ إِلَى طُو لِي عَنَاءٌ وَفِي التُّرَابِ مَقِيلُ
فَهُوَ كَأَنَّمِ الْفَتَةُ جَنُوبُ يَوْمَ دَجْنٍ وَمَرْقَتُهُ قَبُولُ
حَادَّةٌ لِلزَّمَانِ فِي كُلِّ يَوْمٍ يَتَنَاءَى خِلٌ وَتُبْكِي طُلُوعُ
فَاللَّيَالِي عَوْنٌ عَلَيْكَ مَعَ الْبَيْنِ كَمَا سَاعَدَ الدَّوَابِلِ طُلُوعُ^(٢)
رُبَّمَا وَافَقَ الْفَتَى مِنْ زَمَانٍ فَرَحٌ غَايَرُهُ بِهِ مَتَبُولُ

هِيَ دُنْيَا إِنِ وَاصَلْتَ ذَا جَفَتْ هَذَا مَلَا لَا كَأَنَّهَا عُطْبُولٌ^(١)
 كُلُّ بَاكِ يَبْكِي عَلَيْهِ وَإِنْ طَا لَ بَقَاةً وَالتَّاكِلُ الْمَذْكُولُ
 * وَالْأَمَانِيُّ حَسْرَةٌ وَعَنَاءٌ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهَا تَعْلِيْلٌ

وفي هذه القطعة يتكلم الشريف كلام الحكيم المحزون ، والحكمة أحياناً
 يخلقها الحزن البليغ ، والقارئ يعجب من وفرة الخيال في هذه الأبيات : فنعيم
 الدنيا غيم ألفته ريح الجنوب ، ثم مزقته ريح القبول ، والناس يستريحون حيناً
 ليواجهوا بعد الراحة تعب الموت ، كما تستجم الخيول لأيام الطعان ، وغاية
 الناس الفناء كما أن غاية الغصون الذبول ، والليالي عون على المرء مع البين ،
 فكانها الطول في الرماح الذوابل ، والدنيا كالحساء الغادرة تواصل هذا
 وتجفو ذاك ، وكل باك سيبكى عليه وإن طال البقاء ، وكل ثا كل سيصبح
 يوماً وهو مشكول ، والأمانى حسرة وعناء لمن يحسب لجهله أنها لهو وتعليل .
 ثم أخذ في خطاب الحسين ورمى قاتليه بنقض عهد الرسول :

يَا ابْنَ بَيْتِ الرَّسُولِ ضَيَّعْتَ الْعَهْدَ رِجَالُ وَالْحَافِظُونَ قَلِيلُ
 مَا أَطَاعُوا النَّبِيَّ فِيكَ وَقَدْ مَا لَتَ بِأَرْمَاحِهِمْ إِلَيْكَ الدُّحُولُ^(٢)
 وَأَحَالُوا عَلَى الْمَقَادِيرِ فِي حَزْ بِكَ لَوْ أَنَّ عُذْرَهُمْ مَقْبُولُ
 وَأُسْتَقَالُوا مِنْ بَعْدِ مَا أَجْلَبُوا فِيهَا أَلَا لَأَنْ أَتِيَهَا الْمُسْتَقِيلُ ؟
 إِنَّ أَمْرًا قُتِّعَتْ مِنْ دُونِهِ السَّيْفُ لِمَنْ حَازَهُ لَمَرَعَى وَبَيْلُ

(١) العطبُول : المرأة الفتية الجميلة الممتلئة الطويلة العنق . (٢) الدحول جمع دحل ، وهو النار .

يَا حُسَامًا فَلْتِ مَضَارِبُهُ الْهَامَ وَقَدْ فَلَّهٗ الْحُسَامُ الصَّقِيلُ
يَا جَوَادًا أَذْنَى الْجَوَادِ مِنَ الطَّنِّينِ وَوَلَّى وَنَحْرُهُ مَبْلُوكُ
أَتُرَانِي أُعِيرُ وَجْهِي صَوْنًا وَعَلَى وَجْهِهِ تَجُولُ الْخِيُولُ
* أَتُرَانِي أَلَذُّ مَاءٍ وَلَمَّا يُرَوِّ مِنْ مُهْجَةٍ الْإِمَامِ الْغَلِيلُ

وفي هذه الآيات إثارة لأكرم المواطف الدينية ، فالشاعر يذكر أن قاتلي
الحسين ضيعوا العهد ، وخفروا ذمة النبي ، ولم يقاتلوا الحسين في سبيل الحق ،
وإنما قاتلوه في سبيل الذحول ، وليتأمل القارئ دقة هذا البيت :

إِنَّ أَمْرًا قُتِعَتْ مِنْ دُونِهِ السَّيْفُ يَفَ لِمَنْ حَازَهُ لَمَزَعَى وَبِيلُ

يريد أن الدنيا التي لا تصفو لأصحابها إلا بقتل الحسين دنیا كدرة لن يكون
لها صفاء .

ثم شرع يصف مصرع الحسين ، وفزع نسائه يوم ذلك الهول . فقال :

قَبْلَتُهُ الرِّمَاحُ وَأُتْنَضَلْتُ فِيهِ فِي الْمَنَآيَا وَطَاقَتُهُ النُّصُولُ^(١)
وَالسَّبَايَا عَلَى النَّجَائِبِ نُسْتَا قُ وَقَدْ نَالَتْ الْجُيُوبَ الذُّيُولُ
مِنْ قُلُوبٍ يَذْمِي بِهَا نَاطِرُ الْوَجْهِ بِدِ وَمِنْ أَدْمَعٍ مَرَاهَا الْهُمُوكُ
قَدْ سُلِبْنَ الْقِنَاعَ عَنْ كُلِّ وَجْهِ فِيهِ لِلصَّوْنِ مِنْ قِنَاعٍ بَدِيلُ
وَتَنَقَّبْنَ بِالْأَنَامِلِ وَالْدَّمِ حُ عَلَى كُلِّ ذِي نِقَابٍ دَلِيلُ

(١) النصول جمع نصل ، وهو السيف .

وَتَشَاكَيْنَ وَالشَّكَاةُ بُكَاءٌ وَتَنَادَيْنَ وَالنَّدَاءُ عَوِيلٌ

وللقارئ أن يتأمل البيت الثالث من هذه الأبيات فهو يذكر أن القلوب لها نواظر هي نواظر الوجد ، وفي البيت الرابع يذكر أن الصون بديل من القناع في أوجه من سلبن القناع من نساء الحسين . والتنقب بالأنامل من صور الهول ، وكذلك التشاكي بالبكاء ، والتنادى بالعويل .

ولينظر القارئ رقة المناجاة في هذه الأبيات :

يَا غَرِيبَ الدِّيَارِ صَبْرِي غَرِيبٌ وَقَتِيلَ الْأَعْدَاءِ نَوْبِي قَتِيلٌ
بِي نِزَاعٍ يَطْغَى إِلَيْكَ وَشَوْقٌ وَغَرَامٌ وَزَفَرَةٌ وَعَوِيلٌ
لَيْتَ أَنِّي ضَجِيعُ قَبْرِكَ أَوْ أَنَّ تَرَاهُ بِمَدْمَعِي مَطْلُوكٌ

وعاد إلى المناجاة بطلب الثَّار . فقال :

يَا بَنِي أَحْمَدِ إِلَيْكُمْ سِنَانِي غَائِبٌ عَنْ طِعَانِهِ مَمْطُوكٌ
وَجِيَادِي مَرْبُوطَةٌ وَالْمَطَايَا وَمَقَامِي يَرُوعُ عَنْهُ الدَّخِيلُ
كَمْ إِلَى كَمْ تَعْلَوُ الطَّغَامُ وَكَمْ يَخْشَكُمُ فِي كُلِّ فَاضِلٍ مَفْضُولُ؟
قَدْ أَذَاعَ الْغَمْلِيلُ قَلْبِي وَلَكِنْ غَيْرُ بَذْعٍ أَنْ أُسْتَطَبَّ الْعَلِيلُ
لَيْتَ أَنِّي أَبْقَى فَأَمْتَرِقَ النَّأَى سَ وَفِي الْكَفِّ صَارِمٌ مَسْلُوكٌ
وَأَجْرُ الْقَنَاءِ لِنَارَاتِ يَوْمِ الطُّفِّ يَسْتَلْحِقُ الرَّعِيلَ الرَّعِيلُ

والثَّار الذي يدعو إليه في هذه الأبيات لا يقف عند بني أمية ، ولكنه يحتاج إلى العباسي ، ألا ترونه يقول :

كَمْ إِلَى كَمْ تَمَلُّو الطَّغَامَ وَكَمْ يَحْكُمُ فِي كُلِّ فَاضِلٍ مَفْضُولٌ؟

وكانت للرضى وثبات نفسية تسوبه إلى المطالبة بعرش الخلافة الاسلامية ، وكان دم الحسين من الوسائل إلى ذلك الارث المضاع .

وقد ختم الشريف لاميته هذه بآيات في الفخر أضاءت روعة البكاء ، وإن كنا نستعيد منها هذا البيت :

أَتَرَكُ الشَّيْءَ عَازِرِي فِيهِ كُلُّ النَّاسِ مِنْ أَجْلِ أَنْ لِحَانِي عَذُولُ؟!

٦ - أما الدالية فقد افتتحها بخمسة عشر بيتاً في النسيب ، ثم تخلص إلى بكاء الحسين . فقال :

شَغَلَ الدُّمُوعَ عَنِ الدِّيَارِ بُكَاءُهَا	بُكَاءُ فَاطِمَةَ عَلَى أَوْلَادِهَا
أَتَرَى دَرَّتْ أَنْ الْحُسَيْنَ طَرِيدَهُ	لَقْنَا بَنِي الطَّرْدَاءِ عِنْدَ وَلَادِهَا
كَانَتْ مَاتِمٌ بِالْعِرَاقِ تَعْدُهَا	أُمَوِيَّةٌ بِالسَّامِ مِنْ أَغْبَادِهَا
مَا رَاقَبْتُ غَضَبَ النَّبِيِّ وَقَدْ غَدَا	زَرَعُ النَّبِيِّ مَظْنَةً لِحَصَادِهَا
بَاعَتْ بِصَارٍ دِينَهَا بِضَلَالِهَا	وَشَرَتْ مَعَاطِبَ غَيْهَا بِرِشَادِهَا
جَعَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ مِنْ خُصَمَائِهَا	فَلَبِثُ مَا ذَخَرْتَ لِيَوْمِ مَعَادِهَا
نَسَلُ النَّبِيِّ عَلَى صِعَابٍ مَطِيَّهَا	وَدَمُ النَّبِيِّ عَلَى رُءُوسِ صِعَادِهَا

وهو في هذه القطعة يعيد ما قال من قبل ، فيذكر أن بني أمية لم يراقبوا غضب

الرسول ، فجعلوا زرعه من بعض ما يحدون ، ويدكر أن النبي سيكون
 خصمهم يوم المعاد ، وبئس ما يذخرون !
 ثم أخذ في هجاء بني أمية ومدح العلويين . فقال :

إِنَّ الْخِلَافَةَ أَصْبَحَتْ مَرْوِيَّةَ	عَنْ شَعْبِهَا بِيَاضِهَا وَسَوَادِهَا
طَمَسَتْ مَنَابِرَهَا عُلُوجُ أُمِيَّةٍ	تَنْزُو ذَنَابُهُمْ عَلَى أَعْوَادِهَا
هِيَ صَفْوَةُ اللَّهِ الَّتِي أَوْحَى لَهَا	وَقَضَى أَوَارِهُ إِلَى أَنْجَادِهَا
أَخَذَتْ بِأَطْرَافِ الْفَخَّارِ فَمَازَرَتْ	أَنْ يُصْبِحَ الثَّقَلَانِ مِنْ حُسَّادِهَا
الرُّهْدُ وَالْأَخْلَامُ فِي فُتَّاكِهَا	وَالْفَتْكَ لَوْلَا اللَّهُ فِي زُهَادِهَا
عُصْبُ يَقْمَطُ بِالنَّجَادِ وَيَدُهَا	وَمُؤَدُّ صَبِيئِهَا ظُهُورُ جِيَادِهَا
تَرَوِي مَنَاقِبَ فَضْلِهَا أَعْدَاؤُهَا	أَبَدًا وَتُسْنِدُهُ إِلَى أَضْدَادِهَا
يَا غَيْرَةَ اللَّهِ أَغْضَبِي لِنَبِيِّهِ	وَتَرْخِزِحِي بِالْبَيْضِ عَنْ أُنْعَامِهَا
مِنْ عُصْبَتِهِ ضَاعَتْ دِمَاءُ مُحَمَّدٍ	وَبَنِيهِ يَنْ يَزِيدِهَا وَزِيَادِهَا
صَفَدَاتُ مَالِ اللَّهِ مِلءُ أَكْفِهَا	وَأَكْفُ آلِ اللَّهِ فِي أَصْفَادِهَا
ضَرَبُوا بِسَيْفِ مُحَمَّدٍ أَبْنَاءَهُ	ضَرَبَ الْفَرَائِبَ عُذْنَ بَعْدَ ذِيَادِهَا

وللقارئ أن يتنسم روح الفتوة في هذا الشعر البليغ ، وأن يتأمل كيف يكون
 النجاد قماط الوليد ، وكيف تكون ظهور الجياد مهاد الأطفال ، وأن يعجب
 بقوة العزم في هذا البيت :

الرُّهْدُ وَالْأَخْلَامُ فِي فُتَّاكِهَا وَالْفَتْكَ لَوْلَا اللَّهُ فِي زُهَادِهَا

ثم لدعته الذكرى فدمدم بهذه الآيات وقد ماوده خيال (الطف) و (عاشوراء):

قِفْ بِي وَلَوْ لَوْتَ الْإِزَارِ ، فَإِنَّمَا هِيَ مُهَجَّةٌ عَلِقَ الْجَوَى بِفُؤَادِهَا
بِالْطَّفِّ حَيْثُ غَدَا مُرَاقٍ دِمَائِهَا وَمُنَاخٌ أَيْقَمَهَا لِيَوْمِ جِلَادِهَا
الْقَفْرِ مِنْ أَرْوَاقِهَا وَالطَّيْرِ مِنْ طَرَائِفِهَا وَالْوَحْشِ مِنْ عَوَادِهَا
تَجْرِي لَهَا حَبُّ الدَّمُوعِ وَإِنَّمَا حَبُّ الْقُلُوبِ يَكُنُّ مِنْ أُمْدَادِهَا
يَا يَوْمَ عَاشُورَاءَ كَمْ لَكَ لَوْعَةٌ تَتَرَقَّصُ الْأَخْشَاءُ مِنْ إِيقَادِهَا
مَا عُدْتُ إِلَّا عَادَ قَلْبِي غُلَّةٌ حَرَّى وَلَوْ بَالَنْتُ فِي إِبرَادِهَا
مِثْلَ السَّائِمِ مَضِضَةً آثَاؤُهُ خُزُرُ الْعَيُونِ تَعْمُودُهُ بِمِدَادِهَا

ثم قال يخاطبه بمثل ما خاطبه به في الرائية :

يَا جَدُّ لَا زَالَتْ كِتَابُ حَسْرَةٍ تَتَمَشَّى الضَّيِيرَ بِكَرَّهَا وَطَرَادِهَا
أَبَدًا عَلَيْكَ وَأَذْمَعُ مَنُفُوحَةٌ إِنْ لَمْ يَرَاوَحْهَا الْبُكَاءُ يُغَادِهَا
هَذَا النَّدَاءُ وَمَا بَلَغْتُ وَإِنَّمَا هِيَ حَلَبَةٌ خَلَعُوا عِذَارَ جَوَادِهَا
أَقُولُ جَادَكُمْ الرَّيْعُ وَأَنْتُمْوُ فِي كُلِّ مَنَزَلَةٍ رَيْعُ بِلَادِهَا
أَمْ أَسْتَزِيدُ لَكُمْ غَلًّا بِمَدَائِحِي أَيْنَ الْجِبَالُ مِنَ الرُّبَا وَوِهَادِهَا

٧ - والدالية الثانية ابتدأها الشاعر أيضاً بالنسيب ، وتلك سنة قديمة لم تخل منها قصائد الرثاء ، والنسيب في أمثال هذه القصائد يخلو من النزق

والطيش ، ويقف فيه الشاعر عند حدود الشكوى والحزن ، كأن يقول عن
شاك قليل المواد :

يُرَاعِي نُجُومَ اللَّيْلِ وَالْهَمَّ كُلَّمَا مَضَى صَادِرٌ عَنِّي بِأَخِيرِ وَارِدِ
تَوَزَّعَ بَيْنَ النَّجْمِ وَالْذَّمِّ طَرْفُهُ بِمَطْرُوفَةٍ إِنْسَانَهَا غَيْرُ رَاقِدِ
وَمَا يَطْبِئُهَا النَّمِصُ إِلَّا لِأَنَّهُ طَرِيقٌ إِلَى طَيْفِ الْخَيَالِ الْمَعَاوِدِ
ذَكَرْتُكُمْ وَذَكَرَ الصَّبَابُ بَعْدَ عَهْدِهِ قَضَى وَطَرًا مِنِّي وَلَيْسَ بِمَأْدِ
إِذَا جَانِبُونِي جَانِبًا مِنْ وَصَالِهِمْ عَلِقْتُ بِأَطْرَافِ الْمُنَى وَالْمَوَاعِدِ
فِيَا نَظْرَةً لَا تَنْظُرُ الْبَيْنُ أَخْتَهَا إِلَى الدَّارِ مِنْ رَمْلِ اللُّوَى الْمُتَقَاوِدِ
هِيَ الدَّارُ لِأَشَوْقِي الْقَدِيمِ بِنَاقِصِ إِلَيْهَا وَلَا دَمْعِي عَلَيْهَا بِجَامِدِ
وَلِي كَبِدٌ مَقْرُوحَةٌ لَوْ أَضَاعَهَا مِنْ السَّقَمِ غَيْرِي مَا بَنَاهَا بِنَاشِدِ
أَمَا فَارَقَ الْأَخْبَابَ قَبْلِي مُفَارِقُ وَلَا شَيْعَ الْأَظْمَانِ مِثْلِي بِوَاجِدِ

ثم تخلص إلى ذكرى الحسين ، فقال :

تَأَوَّبَنِي دَالَهُ مِنْ أَلْهَمٍ لَمْ يَزَلْ بِقَلْبِي حَتَّى عَادَنِي مِنْهُ عَائِدِي
تَذَكَّرْتُ يَوْمَ السَّبْطِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ وَمَا يَوْمُنَا مِنْ آلِ حَرْبٍ بِوَاحِدِ

وتوجع لموت الحسين ظمآن كما فعل في القصائد الماضية ، فقال :

وظَلَمَ يُرْبِغُ الْمَاءَ قَدْ حِيلَ دُونَهُ سَقَوُهُ ذُبَابَاتِ الرِّقَاقِ الْبَوَارِدِ
أَتَاخُوا لَهُ مُرَّ الْمَوَارِدِ بِالثَّقَا عَلَى مَا أَتَاخُوا مِنْ عَذَابِ الْمَوَارِدِ

وقال يصف انتقال ميراثهم إلى بنى أمية :

وَيَارُبَّ سَاعٍ فِي اللَّيْلِ لِقَاعِدٍ عَلَى مَا أَرَى بَنَ كُلِّ سَاعٍ لِقَاعِدٍ
أَصَاعُوا نَفُوسًا بِالرَّمَاكِ ضِيَاعُهَا يِعَزُّ عَلَى الْبَاغِينَ مِنَّا النَّوَاشِدِ
أَلَّهِ مَا تَنَفَّكَ فِي صَفَحَاتِهَا حُمُوشٌ لِكَلْبٍ مِنْ أُمِّيَّةَ عَاقِدِ
لَنْ رَقَدَ النُّصَارُ عَمَّا أَصَابَنَا فَمَا اللَّهُ عَمَّا نِيَلَ مِنَّا بِرَاقِدِ
لَقَدْ عَلَقُوهَا بِالنَّبِيِّ خُصُومَةً إِلَى اللَّهِ تُغْنِي عَنْ يَمِينٍ وَشَاهِدِ

وهو في هذا المعنى يكرر ما قاله من قبل .

ولم يرضه أن يقف عند هجاء بنى أمية ، فغمز بنى العباس بهذه الآيات :

وَيَارُبَّ أَدْنَى مِنْ أُمِّيَّةَ لُحْمَةً رَمَوْنَا عَلَى الشَّنَّانِ رَمْيَ الْجَلَامِدِ
طَبَعْنَا لَهُمْ سَيْفًا فَكُنَّا لِحْدِهِ ضَرَّابَ عَنْ أَيْمَانِهِمِ وَالسَّوَاعِدِ
أَلَا لَيْسَ فِعْلُ الْأَوَّلِينَ وَإِنْ عَلَا عَلَى فُبُجِ فِعْلِ الْآخِرِينَ بَرَّادِ

٨ - بقيت المقصورة وهي ضعيفة بالقياس إلى هذه القصائد ، وقد وصف

بها الشاعر مصرع الحسين ، وما لقي نساؤه من فزع وهول ، واستنار إشفاق الرسول للسيط الشهيد ، وتوجع لأهل البيت ، وعجب كيف أمهل الله الظالمين فلم تنقلب بهم الأرض ولم ترجمهم السماء .

وخلاصة القول : أن نكبة الحسين كانت ميداناً لقراش القصاص والكتاب والت شعراء ، ومن آثارها هذه القصائد الخمس . والفتنة والقتل من أسباب البعث في الآداب والفنون .

الفصل السابع

قصائد مريار

في أهل البيت

١ - لمهيار في أهل البيت عشر قصائد طوال ، وجوّ تلك القصائد يشعر بأن معاصريه كانوا يستكثرون عليه أن يعن في مدح آل الرسول ، كأن العصبية لأهل البيت كانت تعتمد على الجنسية العربية ، فانا نراه يقول :

أَنَا الْمَبْدُ وَالْآكُمُ عَقْدُهُ إِذَا الْقَوْلُ بِالْقَلْبِ لَمْ يُعْقَدِ
وَفِيهِ وَدَادِي وَدِينِي مَعَا وَإِنْ كَانَ فِي «فَارِسٍ» مَوْلَدِي
خَصَمْتُ ضَلَالِي بِكُمْ فَاهْتَدَيْتُ وَلَوْلَاكُمْ لَمْ أَكُنْ أَهْتَدِي

وعبارة « وإن كان في فارس مولدي » تعين أن تشيع الفرس كان يقابل في بعض البيئات بشيء من الاستغراب ، ويؤيد هذا ما جاء في التمهيد لياثيته في رثاء أهل البيت إذ يقول جامع الديوان .

« وقال يرثي أهل البيت ، وبلغه أن بعض حاسديه يستكثر مدحه إياهم ، ويدعى عليه أنه بما يظهر من المخالفة في الأصول لا يجوز أن يخلص في مدحهم ويدكر ذلك في آخر القصيدة » .

ومعنى هذا الكلام أن مياراً كان يتعصب للفرس ، والتعصب للفرس
ينافى التشيع لأهل البيت ، ويكاد يكون من المعقول أن لا يجتمع تشيع
وشعوية ، ويوضح هذا قول ميار في اليائية :

هَذَا لَهُمْ وَالْقَوْمُ لَا قَوْمِي مُهُ جِنْسًا وَعَقْرُ دِيَارِهِمْ لَا دَارِيَا
إِلَّا الْمَحَبَّةَ فَالْكَرِيمُ بِطَبْعِهِ يَجِدُ الْكَرَامَ الْأَبْعَدِينَ أَذَانِيَا

وقوله في خطاب علي بن أبي طالب :

وَبِرَغْمِهِمْ لَا سِيرَتَهَا سُورَدَا وَلَا تُبْعَثُ مِنْهَا بَدِيئًا تَالِيَا
غُرًّا أَقْدُ مِنَ الْجَمَالِ مَعَانِيَا فِيهَا وَالْتَقَطُ النُّجُومَ قَوَافِيَا
شُكْرًا لِصُنْعِكَ عِنْدَهُ فَارِسُ أَسْرَتِي وَبِمَا سَلِمْتَ تَفَاوُلًا وَأَيَادِيَا
وَتَمَصُّبًا وَمَوَدَّةً لَكَ صَيَّرَا فِي حُبِّكَ الشَّيْعَى مِنْ إِخْوَانِيَا

وهذا نص في أن التشيع كان يوجب لذلك العهد وحدة العصبية العربية ، وإن
كان من العسير أن نجزم بأن الحال كان كذلك في جميع البيئات الاسلامية ، فقد
صارت فارس بعد ذلك من المعادل الشيعية .

٢ - كان مياراً يُننى بمدح آل البيت ، وكانت تقترح عليه القصائد في
مدحهم ، فقد حدثنا جامع الديوان أنه أنشد قصيدة في مرثي أهل البيت من
مرذول الشعر ، وسئل أن يعمل أياتاً في وزنها وقافيتها (١) .

وأنه سئل عمل أبيات في مرثي أهل البيت عليهم السلام على هذا الوزن والروى ، وهما مما تقل مساعدة الكلام المختار على مثله ، ولم يجد لاجابة المُتَمَسِّسِ لذلك بدءاً - على ما فيه من اللين والانحطاط - فقال ارتجالاً على جهة الاملاء ، ومقتضى إجابة السائل ^(١) .

وهذا وذلك يدلان على أمرين . الأول : أن الشعر في أهل البيت كان يطلب . والثاني : أن مياراً كان معروفاً بحب أهل البيت .

ولا يفوتنا من الوجهة الفنية أن نشير إلى تَنَبُّهُ ميار إلى خطر الوزن والقافية في التعبير عن مختلف الأغراض ؛ وهذا مَدَحَظُّ سَبْقِهِ إليه أبو الفضل ابن العميد ، فقد حدث صاحب بن عباد أنه كان « يتجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات ، ولا يرضى بهذيب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن » وأنه سمعه يقول : « إن أكثر الشعراء ليس يدرون كيف يجب أن يوضع الشعر ، ويتبدأ النسيج : لأن حق الشاعر أن يتأمل الغرض الذي قصده والمعنى الذي اعتمده ، وينظر في أيّ الأوزان يكون أحسن استمراراً ، ومع أيّ القوافي يحصل أجمل اطراد ، فيركب مركباً لا يخشى انقطاعه ، والنتيئة عليه ^(٢) » :

أما القصيدة فظلمها :

يَا أَبْنَةَ الْقَوْمِ تَرَاكِ بَايَغُ قَتْلِي رِضَاكِ

وهي في وزن مرقص ، وقافية تعتمد على رقة الخطاب ، وهما لا يصلحان لمصاولة

(١) ديوان ميار ج ٢ ص ٣٦٧ . (٢) راجع كتاب النثر الفني ص ٢٥٦ ج ٢ .

خصوم أهل البيت ، ولذلك رأينا الشاعر ينظم اثنين وثلاثين بيتاً في النسيب وفي التمهيد لبكاء أهل البيت ، ثم ينظم ثلاثة وعشرين بيتاً في الغرض الذي أنشئ فيه هذا القصيد ، فجاء الغرض وكأنه تبع - من حيث الكمية - لشعر النسيب .

٣ - والولاء لأهل البيت ظاهر الصدق في شعر مهيار ، وهو يذكر أنه اهتدى بهداه حين انتقل من الشرك إلى الاسلام ، فيقول :

رَكِبْتُ لَكُمْ لُقْمِي فَاسْتَنْتَنْتُ وَكُنْتُ أَخَاطِبُهُ مَجْهَلًا
وَفُكَّ مِنْ الشَّرِكِ أُسْرَى وَكَأَ نَ غُلًّا عَلَى مَنْكِبِي مُقْفَلًا
أَوَالِيكُمْ مَا جَرَتْ مُزْنَةٌ وَمَا أَصْطَحَبَ الرَّعْدُ أَوْ جَلَجَلًا
وَأَبْرَأُ مِمَّنْ يُمَادِيكُمْ فَإِنَّ الْبَرَاءَةَ أَصْلُ الْوَلَا
وَمَوْلَاكُمْ لَا يَخَافُ الْعِقَا بِفَكُونُوا لَهُ فِي غَدٍ مَوْثَلًا

ويقول :

يَا هُدَاةَ اللَّهِ وَالنَّجْوَةَ فِي يَوْمِ الْهَلَاكِ
بِكُمْ اسْتَدَلَلْتُ فِي حَيْرَةٍ أَمْرِي وَأَذْتَبَاكِ
أَظْلَمَ الشَّكُّ وَكُنْتُمْ لِي مَصَائِيحَ الْمَشَاكِ

ويقول في خطاب علي بن أبي طالب :

عَادَيْتُ فِيكَ النَّاسَ لَمْ أَحْفِلْ بِهِمْ حَتَّى رَمَوْنِي عَنْ يَدٍ إِلَّا الْأَقْلُ
تَفَرَّغُوا يَمْتَرِفُونَ غِيْبَةً لَحْمِي وَفِي مَدْحِكَ لِي عَنْهُمْ شُعْلُ^(١)

(١) يمترونون : يترعون ما على العظم من لحم ، وهو تصوير لخطر الاغتيال .

عَدَلْتُ أَنْ تَرْضَى بِأَنْ يَسْخَطَ مَنْ تُبَلِّغُهُ الْأَرْضُ عَلَى فَأَعْتَدَلَنْ
وَلَوْ يُشَقُّ الْبَحْرُ ثُمَّ يَلْتَقِي فَلِقَاءَهُ فَوْقِي فِي هَوَاكَ لَمْ أَبَلْ
عَلَاقَةً بِي لَكُمْ سَابِقَةٌ لِمَجْدِ «سَلْمَانَ» إِلَيْكُمْ تَتَّصِلُ

وسلمان في البيت الأخير : هو سلمان الفارسي ، وكان معروف الولاء لأهل البيت ، وهو يكثر من الإشارة في شعره إلى ما جرّ عليه ولاؤه من المحن والأرزاء بسبب الأحقاد ، فيقول :

هَلْ يَبْلُغُكَ يَا أَبَا الْحَسَنِ الَّذِي جُوزِيَتْ فِيكَ وَكَانَ ضِدَّ جَزَائِيَا
مِنْ مَعْشَرٍ لَمَّا مَدَحْتُكَ غِظُّهُمْ فَتَنَّاوَسُوا عِرْضِي وَشَانُوا شَانِيَا
أَسْمَعُ - لِيُنْصِفَنِي أَنْتَقَامُكَ - إِنْهُمْ بِالْجَوَرِ رَاضُونَ فَجِئْتُكَ شَاكِيًا
لَمَّا رَأَوْا مَا غَاظَ مِنِّي شَنَعُوا حَاشَاكَ أَنْي قُلْتُ فِيكَ مُدَاجِيًا
لَا كَانِ إِلَّا مَيْتًا مِثْلَهُ مَنْ سَرَّهُ أَنْ كَانَ بِعَدِّكَ بَاقِيًا

وهذا نهاية التصوف في الولاء .

ولم يار نظرة سياسية دقيقة فيما أصاب الحسين : فهو يرى أن ما وقع بين الصحابة يوم السقيفة كان تمهيداً لمصرعه في كربلاء ، وانظر هذين البيتين :

فَيَوْمُ السَّقِيفَةِ يَا ابْنَ النَّبِيِّ طَرَّقَ يَوْمَكَ فِي كَرْبَلَا
وَعَصَبُ أَبِيكَ عَلَى حَقِّهِ وَأُمُّكَ حَسَنَ أَنْ تُقْتَلَا

يريد أن اجتراء القوم على زجحة عليّ عن حقه في الخلافة وحرمان فاطمة من

حقها في الميراث كان مما هوّن شأن أهل البيت ، وأغرى خصومهم بدم الحسين ، ولو جرى الأمر من أول يوم على حفظ الحقوق لأصحاب الحقوق لبقيت هبة أهل البيت ، وعزّ على خصومهم أن يطمعوا في دماءهم الزكية ، ومكانهم مانع من حب الرسول .

٥ - أكثر مبيار من التوجع لفقد الحسين ، ورأى قتله قريباً من الشرك . فقال :

أَرَى الدِّينَ مِنْ بَعْدِ يَوْمِ الْحُسَيْنِ	غَلِيلاً لَهُ الْمَوْتُ بِالْمَرْصَدِ
وَمَا الشَّرْكَ بِاللهِ مِنْ قَبْلِهِ	إِذَا أَنْتَ قِيتَ بِمُسْتَبْمَدٍ
وَمَا آلُ حَرْبٍ جَنَوْا إِعْمَا	أَعَادُوا الضَّلَالَ عَلَى مَنْ بُدِيَ
سَيَعْلَمُ مَنْ (فَاطِمٌ) خَصْمُهُ	بِأَيِّ نَسَالٍ غَدًا يَرْتَدِي
وَمَنْ سَاءَ (أَحْمَدُ) يَا سَبِطُهُ	فَبَاءَ بِقَتْلِكَ مَاذَا يَدِي؟
فِذَاؤُكَ نَفْسِي وَمَنْ لِي بِذَا	كَ لَوْ أَنَّ مَوْتِي بِعَبْدٍ فُدِي

٦ - وأتم قصائد مبيار في مدح آل البيت هي العينية التي دافع بها عن حق علي بن أبي طالب ، وهي من عيون القصائد ، وتذكرُ بعينية حسان في الحاماة عن الرسول .

تتبع هذه القصيدة في تسعة وأربعين بيتاً ، منها أربعة عشر في النسب ، ولكن أيّ نسب ، إنها تفحة من الشعر الوجداني الرعيني ، ولننظر كيف يقول :

هَلْ بَعْدَ مُتَرَقِّ الْأَخْمَانِ مُجْتَمِعٌ أَمْ هَلْ زَمَانٌ بِهِمْ قَدْ فَاتَ يُرْتَجِعُ

تَحْمَلُوا تَسْعُ الْبَيْدَاءُ رَكَبَهُمْ وَيَحْمِلُ الْقَلْبُ فِيهِمْ فَوْقَ مَا بَسَعُ
مُغْرِبِينَ هُمْ وَالشَّمْسُ قَدْ أَلْفُوا أَنْ لَا تَغِيبَ مَغِيْبًا حَيْثُمَا طَلَعُوا
شَاكِبِينَ لِلْبَيْنِ أَجْفَانًا وَأَفْدَةً مُفَجِّعِينَ بِهِ أَمْثَالَ مَا جَعَلُوا
تَخْطُو بِهِمْ فَارَاتُ فِي أَرْمَتِهَا أَعْنَانَهَا تَحْتَ إِكْرَاهِ النَّوَى خُضْعُ
تَشْتَاكُ نَعْمَانًا لَا تَرْضَى بِرَوْضَتِهِ دَارًا وَلَوْ طَابَ مُصْطَافُ وَتُرْتَبِعُ
فِدَاءً وَافِينَ تَمُشِي الْوَاثِيَاتُ بِهِمْ دَمْعُ دَمٍ وَحَشَا فِي إِنْزِهِمْ قِطْعُ
الَّلَّيْلُ بَمَدِّهِمْ كَالْمَجْرِ مُتَّصِلُ مَا شَاءَ وَالنَّوْمُ مِثْلُ الْوَصْلِ مُنْقَطِعُ
لَيْتَ الَّذِينَ أَصَاخُوا يَوْمَ صَاحَ بِهِمْ دَاعِيَ النَّوَى ثَوْرُوا، صَمُّوا كَمَا سَمِعُوا
أُولَيْتَ مَا أَخَذَ النَّوْدِيعُ مِنْ جَسَدِي قَضَى عَلَى فَلَائِمَ ذَيْبٍ مَا يَدْعُ

ولما انتهى إلى مدح أهل البيت ضرب الغادرين بالقواصم ، فقال :

هَذِي قَضَايَا رَسُولِ اللَّهِ مُهْمَلَةٌ غَدْرًا وَشَمْلُ رَسُولِ اللَّهِ مُنْصَدِعُ
وَالنَّاسُ لِلْهَمْدِ مَا لَاقُوا وَمَا قَرُّوا وَلِلْخِيَانَةِ مَا قَابُوا وَمَا شَسَعُوا^(١)
وَأَلَهُ وَهُمْ آلُ الْإِلَهِ وَهُمْ رُحَاهُ ذَا الدِّينِ صَبِيحُوا بَنَدَهُ وَرُغُوا
مِثْلَهُ فِيهِمْ مُلْتَقَى وَأُمْتُه مَعَ مَنْ بَغَاهُمْ وَقَادَاهُمْ لَهُ شَيْعُ

ثم انتقل إلى ما أضاعوا من بيعة يوم الغدير، وكانوا يرون أن النبي خطب الناس عنده ، فقال : « من كنت مولاه فعليّ مولاه » ، وقد استغلّ الشيعة هذا

« التصريح » وعبر عن هواهم مبيّار حين قال :

تَضَاعُ بَيْعَتُهُ يَوْمَ الْغَدِيرِ لَهُمْ بَعْدَ الرِّضَا وَتُحَاطُ الرُّومُ وَالْبَيْعُ^(١)
 مُقَسَّمِينَ بِأَيْمَانٍ هُمْ جَدَّبُوا يَبُوعَهَا وَيَأْسِيَفُ هُمْ طَبَعُوا
 مَا يَنْ نَاسِرِ حَبْلِ أَمْسٍ أَبْرَمَهُ تَمُدُّ مَنُونَةً مِنْ بَعْدِهِ الْبِدْعُ
 وَيَنْ مُقْتَنَصٍ بِالْمَكْرِ يَخْدَعُهُ عَنْ آجِلٍ عَاجِلٍ حُلُوهُ فَيَخْدَعُ
 وَقَائِلٍ لِي عَلَيَّ كَانَتْ وَارِثُهُ بِالنَّصِّ مِنْهُ فَهَلْ أَعْطَوْهُ أَمْ مَنَعُوا؟
 فَقُلْتُ كَأَنْتَ هُنَا لَسْتُ أَذْكُرُهَا يَجْزِي بِهَا اللَّهُ أَقْوَامًا بِمَا صَنَعُوا

واندفع يصول خصوم أهل البيت مصالوة الفحول ، فقال :

أُبْلِغَ رِجَالًا إِذَا سَمِعْتُمْ عُرِفُوا لَهُمْ وَجُوهٌ مِنَ الشَّحَنَاءِ تَمْتَقِعُ
 تَوَافَقُوا وَتَنَاهَ الَّذِينَ مَائِلَةٌ خَبْنٌ قَامَتْ تَلَا حَوَاهِيهِ وَأَفْتَرَعُوا
 أَطَاعَ أَوْلَهُمْ فِي الْغَدْرِ ثَابِتُهُمْ وَجَاءَ ثَابِتُهُمْ يَقْفُو وَيَتَّبِعُ
 قِفُوا عَلَى نَظَرٍ فِي الْحَقِّ نَفَرِيَّةُ وَالْعَقْلُ يَفْصِلُ وَالْمَدْحُ يُجْ يَنْقَطِعُ
 بِأَيِّ حُكْمٍ بَنُوهُ يَتَّبِعُونَكُمْ وَفَخَرُّكُمْ أَنْكُمْ صَحْبٌ لَهُ تَبَعُ
 وَكَيْفَ صَافَتْ عَلَى الْأَهْلِينَ تَرْبَتُهُ وَلِلْأَجَانِبِ مِنْ جَنْبِهِ مَضْطَجِعُ
 وَفِيمَ صَيَّرْتُمْ الْإِجْمَاعَ حُجَّتَكُمْ وَالنَّاسُ مَا اتَّفَقُوا طَوْعًا وَلَا اجْتَمَعُوا

وهذه القوة في الحجاج تُذَكِّرُنا بوثبات الكمية في قصائده الهاشميات .

وقد ختم هذه القصيدة الرائعة بهذا الولاء وهو يخاطب علي بن أبي طالب :

(١) يريد أن حقوق على تضع على حين تحفظ حقوق الأجانب الأبعدين .

آبَايَ فِي فَارِسٍ وَالَّذِينَ دِينُكُمْ حَقًّا لَقَدْ طَابَ لِي أَسْمُكُمْ وَتَبِعُ
مَا زِلْتُ مُذْ يَفْعَتُ سِنِّي الْوُدُّ بِكُمْ - حَتَّى مَحَاقِثُكُمْ شَكِّي - وَأَنْتَجِعُ
وَقَدْ مَضَتْ فَرَطَاتٌ إِنْ كَفَلَتْ بِهَا فَرَقْتُ عَنْ مُصْحَفِي الْبَاسَ الَّذِي جَمَعُوا
سَوَّلْتُ نَفْسِي غُرُورًا إِنْ ضَمَنْتُ لَهَا أَنِّي بِذُخْرِ سِوَى حُبِّكَ أَتَفِيعُ



الفصل الثامن

بردة البوصيرى

حياة البوصيرى ، وشعره فى الموظفين — عماذج من شعره
الفكاهى — سبب نظم البردة — الاكثار من العبارة على الرسول
— شاهد من القصيدة المضرية — أثر البردة فى أحلام الصوفية
— تعليل تلك الأحلام .

تعدّ قصيدة البردة أهمّ القصائد بين المدائح النبوية ، فهي أولاً : قصيدة
جيدة ، وهى ثانياً : أسيرُ قصيدة فى هذا الباب ، وهى ثالثاً : مصدر الوحي
لكثير من القصائد التى أنشئت بعد البوصيرى فى مدح الرسول .
ولهذا كله نرى من الواجب أن نعرض للبوصيرى وقصيدته بشيء
من التفصيل .

١ — والبوصيرى : هو محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله بن صنهاج . كان
أحد أبويه من (أبوصير) ، والآخر من (دلاص) من قرى بنى سويف ،
فركت له منهما نسبة ، وقيل : (الدلاصيرى) لكنه اشتهر بالبوصيرى ، وكان
يمانى صناعة الكتابة والتصرف ، ويياشر الشرقية ببليس ^(١) .

(١) [راجع فوات الوفيات] ولد البوصيرى فى دلاص سنة ٦٠٨ ، وتوفى بالاسكندرية سنة ٦٩٧
وله قبر مشهور فى الاسكندرية يتصل به مسجد كبير تدرس به العلوم الدينية .

والبوصيرى شاعر مصرى ظريف من شعراء القرن السابع تجرى في شعره النكت المستملحة . وله فى شكوى حاله والتذمر من الموظفين قصائد لا تخلو من ذكاء . وفى شعره وصف للحالة الاجتماعية فى عصره ، وأحسبه من الصادقين ، فهو يذكر أن الموظفين كانوا يسرقون الغلال ، وأنهم لولا ذلك مالبسوا الحرير ، ولا شربوا الخمر ، وأن من الكتاب طائفة تنسكت وعدت من الزهاد مع أنها تملأ بطونها بالسحت ، وتأكل مال الأيتام ، ويذكر أن القضاة خانوا الأمانة ، وبرروا خيانتهم بتأويل القرآن والحديث ، ويذكر أن المسلمين والأقباط كانوا مختلفين ، فكان المسلمون يقولون : لنا بمصر حقوق ، ونحن أولى الآخذين ، وكان القبط يقولون : نحن ملوك مصر ، ومن سوانا هم الغاصبون ، وكان اليهود يستحلون مال الطوائف أجمعين ، وفى ذلك يقول :

نَقَذْتُ طَوَائِفَ الْمُسْتَخْدِمِينَ	قَلَمْ أَرَ فِيهِمْ حُرًّا أَمِينًا
فَقَدْ عَاشَرْتُهُمْ وَلَبِثْتُ فِيهِمْ	مَعَ التَّجْرِبِ مِنْ عُمرِ سِنِينَا
فَكُتَّابُ الشَّمَالِ هُمُ جَمِيعًا	فَلَا صَحِبْتُ شِمَالَهُمُ الْيَمِينَا
فَكَمْ سَرَقُوا الْغِلَالَ وَمَاعَرَفْنَا	بِهِمْ فَكَأَنَّهُمْ سَرَقُوا الْعِيُونَا
وَلَوْلَا ذَاكَ مَا لَبَسُوا حَرِيرًا	وَلَا شَرَبُوا مُخْمُورَ الْأَنْدَرِينَا
وَلَا رَبَّوْا مِنَ الْمُرْدَانِ مُرْدًا	كَأَغْصَانٍ يَمِلُّنَ وَيَتَحَنِينَا
وَقَدْ طَلَعْتُ لِبَعْضِهِمْ دُقُونٌ	وَلَكِنْ بَمَدٍّ مَا حَلَقُوا دُقُونَا
وَأَقْلَامُ الْجَمَاعَةِ جَائِلَاتٌ	كَأَسْيَافٍ بِأَيْدِي لَاعِينَا
وَقَدْ سَاوَمْتُهُمْ حَرْفًا بِحَرْفٍ	وَكُلُّ أُنْثَى يَخْطُوا مِنْهُ سِينَا

أَمْوَالَى الْوَزِيرِ غَفَلَتْ عَمَّا يَتِمُّ مِنَ اللَّثَامِ الْكَاتِبِينَ
تَنَسَّكَ مَعْشَرُ مِنْهُمْ وَعُدُّوا مِنَ الزُّهَادِ وَالْمُتَوَرِّعِينَ
وَقِيلَ لَهُمْ دُعَاؤُ مُسْتَجَابٌ وَقَدْ مَلَأُوا مِنَ الشَّحْتِ الْبُطُونَا
تَقَفَّهَتْ الْقَضَاةُ فَخَانَ كُلُّ أَمَانَتِهِ وَسَمَّوْهُ الْأَمِينَا
وَمَا أَخْشَى عَلَى أَمْوَالٍ مِصْرٍ سِوَى مِنْ مَعْشَرٍ يَتَأَوَّلُونَا
يَقُولُ الْمُسْلِمُونَ لَنَا حُقُوقٌ بِهَا وَلَنَحْنُ أَوْلَى الْآخِذِينََا
وَقَالَ الْقَبِيضُ نَحْنُ مُلُوكُ مِصْرٍ وَإِنْ سِرَاهُمُوهُمْ غَاصِبُونَا
وَحَلَّاتِ الْيَهُودُ بِحِفْظِ سَبْتٍ لَهُمْ مَالِ الطَّوَائِفِ أَجْمَعِينََا
وَمَا ابْنُ قُطَيْبَةَ إِلَّا شَرِيكُ لَهُمْ فِي كُلِّ مَا يَخْطِفُونَا
أَغَارَ عَلَى قُرَى (فَاقُوسَ) مِنْهُ بِجُورٍ يَمْنَعُ النَّوْمَ الْجُفُونَا
وَصَيَّرَ عَيْنَهَا جَمَلًا وَلَكِنْ لِمَنْزِلِهِ وَغَلَّتْهَا خَزِينَا
وَأَصْبَحَ شُغْلُهُ تَحْصِيلُ تَبَرٍ وَكَانَتْ رَأُوهُ مِنْ قَبْلُ ثُونَا
وَقَدَّمَهُ الَّذِينَ لَهُمْ وَصُولُ فَتَمَّ نَقْصُهُ حِلَّةُ الدِّينَا
وَفِي دَارِ الْوَكَالَةِ أَيْ نَهَبٍ فَلَيْتَكَ لَوْ نَهَبْتَ النَّاهِبِينََا
فَقَامَ بِهَا يَهُودِيٌّ خَبِيثٌ يَسُومُ الْمُسْلِمِينَ أَذَى وَهُونَا
إِذَا أَلْقَى بِهَا مُوسَى عَصَاهُ تَلَقَّفَتِ الْقَوَافِلَ وَالسَّافِينََا
وَشَاهِدُهُمْ إِذَا اتَّهَمُوا يُودَى عَنِ الْكُلِّ الشَّهَادَةَ وَالْيَمِينََا

يذكر أنها كانت مشهورة ، وشهرتها فيما نرى لا ترجع إلى قيمتها الأدبية ، لأنها قصيدة ضعيفة يغلب عليها الابتذال ، وإنما ترجع شهرتها إلى ما فيها من التنديد بالموظفين ، والناس يعضون الموظفين حين يعرفون بالطمع والاستبداد . ولهذه القصيدة قيمتها من الوجهة التاريخية ، فهي شاهد على اختلاف الطوائف في مصر ، وعلى ما كان يجري إذ ذاك بين الساميين والنصارى واليهود ، وهي كذلك شاهد على عيوب الإدارة في ذلك الحين .

والظاهر أنه كان مغرماً بثلث الموظفين ، فقد قال من قصيدة أخرى يخرّص عليهم أحد كبار المالك :

فَلَا تُدْنِ مِنْهُمْ وَاحِدًا مِنْكَ سَاعَةً وَلَوْ فَاحَ مِنْ بُرْدَيْهِ مَسْكٌ وَعَنْبَرُ
وَبَرْدُ فُؤَادِي بِأَنْتِقَامِكَ مِنْهُمْ فَقَدْ كَادَ قَلْبِي مِنْهُمْ يُتَفَطَّرُ
مُبْنِعْتُ بِهِمْ حَظِي شُهُورًا وَلَمْ أَصِلْ إِلَى حَظِّهِمْ حَتَّى مَضَتْ لِي أَشْهُرُ
أَمَّا فِيهِمْ - لَا بَارَكَ اللَّهُ فِيهِمْ - أَخُو قَلَمٍ إِلَّا يَخُوتَ وَيَغْدِرُ

وفي هذه الأيات ما يشعر بأن الموظفين كانوا يماطلونه في دفع المرتب ، وقد صرح بذلك في قصيدة أخرى إذ يقول :

مَنْ لَمْ يَقُمْ لِي مِنْهُمْ بِوِظِيفَتِي جَرَسَتْهُ بِعِلَامَتِي تَجَرِيسًا

٣ - ومن شعر البوصيري فيما يجري مجرى الدعابة قوله في الحديث عن جارية راودها عن نفسها فأنكرت عليه الشيب والضعف :

أَهْوَى وَالْمَشِيبُ قَدْ حَالَ دُونَهُ وَالتَّصَايِ بَعْدَ الْمَشِيبِ رُعُونَةٌ
أَبَتْ النَّفْسُ أَنْ تُطِيعَ وَقَالَتْ إِنَّ حَيَّ لَا يَدْخُلُ الْقَيْنَةُ

كَيْفَ أَغْصَى الْهُوَى وَطِينَةَ قَلْبِي بِالْهُوَى قَبْلَ آدَمَ مَعْجُونَةً
 سَلَبَتْهُ الرُّقَادَ بَيْضَةً خَذِرٍ ذَاتُ حُسْنٍ كَالدَّرَةِ الْمَكُونَةِ
 سُمَّتْهَا قُبْلَةً تُسَرُّ بِهَا النَّفْسُ فَقَالَتْ كَذَا أَكُونُ حَزِينَةً
 قُلْتُ لَا بَدَّ أَنْ تَسِيرِي إِلَى الدَّارِ فَقَالَتْ عَسَى ! أَنَا مَجْنُونَةٌ !
 قُلْتُ سِيرِي فَإِنِّي لَكَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي رَاحِمٍ وَأُمِّ حَنُونَةٍ
 أَنَا نِعَمَ الْقَرِينِ إِنْ كُنْتَ تَبْغِينَ حَلَالًا وَأَنْتَ نِعَمَ الْقَرِينَةِ
 قَالَتْ أَضْرِبْ عَنْ وَصْلِ مِثْلِي صَفْحًا وَأَضْرِبِ الْخَلَّ أَوْ يَصِيرَ طَحِينَةً
 لَا أَرَى أَنْ تَمَسَّنِي يَدُ شَيْخٍ كَيْفَ أَرْضَى بِهِ لَطَشَتِي مَشِينَةً
 قُلْتُ إِنِّي كَثِيرٌ مَالٍ فَمَاتَ هَبْكَ أَنْتَ الْمُبَارِزُ الْقَارُونَةَ

وهذا أيضاً شعر ضعيف ، ولكن فيه « حكاية ظريفة » من حكايات مولانا
 الشيخ رضى الله عنه وأرضاه ! . وأظرف من هذه القطعة أبياته التى بعث
 بها إلى ناظر الشرقية ، وكانت له حمارة استعارها منه الناظر فأعجبته ، فكتب
 على لسانها إليه :

يَا أَيُّهَا السَّيِّدُ الَّذِي شَهِدْتَ أَخْلَاقُهُ لِي بِأَنَّهُ فَاضِلٌ
 مَا كَانَ ظَنِّي يَبْدِيهِ أَحَدٌ قَطُّ وَلَكِنَّ صَاحِبِي جَاهِلٌ
 لَوْ جَرَسُوهُ عَلَى مَنْ سَفَهَ لَقُلْتُ غَيْظًا عَلَيْهِ يَسْتَاهِلُ
 أَقْصَى مُرَادِي لَوْ كُنْتُ فِي بَلَدِي أَرْغَى بِهَا فِي جَوَابِ السَّاحِلِ

وَبَعْدَ هَذَا فَمَا يَحِلُّ لَكُمْ أَخْذِي لِأَنِّي مِنْ سَيِّدِي حَامِلٌ

وقد استظرف ناظر الشرقية هذه الآيات ، وردّ إليه الحمارة ، ولم يكن فيها من الزاهدين ! . ونحن نستملح كذلك قصيدته التي بعث بها إلى أحد الوزراء في شكوى حاله ، وهى قصيدة طريفة يذكّر فيها أنه فقير ، وأن أبنائه لا يجدون ما يأكلون ، وأنهم يحسرون لفقد الكعك أيام الأعياد ، وأن امرأته زارت أختها ، وشكت إليها سوء الحال ، فأشارت عليها بضربه ، وتنف ذقنه شعرة شعرة ! وفى تفصيل ذلك يقول ، وهو يخاطب ذلك الوزير :

إِلَيْكَ نَشْكُو حَالَنَا إِنَّا	حَاشَاكَ مِنْ قَوْمٍ أُولَى عُمْرَةٍ
فِي قِلَّةٍ نَحْنُ وَلَكِنْ لَنَا	قَائِلَةٌ فِي غَايَةِ الْكَثَرَةِ
أُحَدِّثُ الْمَوْلَى الْحَدِيثَ الَّذِي	جَرَى لَهُمْ بِالْخَيْطِ وَالْإِبْرَةِ
صَامُوا مَعَ النَّاسِ وَلَكِنَّهُمْ	كَانُوا لِمَنْ أَبْصَرَهُمْ عِبْرَةَ
إِنْ يَشْرَبُوا فَالْبَيْتُ زِيرٌ لَهُمْ	مَا بَرَحَتْ وَالشَّرْبَةُ الْجَرَّةُ
لَهُمْ مِنَ الْخُبَيْرِ مَسْلُوقَةٌ	فِي كُلِّ يَوْمٍ تُشْبِهُ النَّشْرَةَ
أَقُولُ مَهْمَا اجْتَمَعُوا حَوْلَهَا	تَنْزَهُوا فِي الْمَاءِ وَالْخَضْرَةِ
وَأَقْبَلَ الْعِيدُ وَمَا عِنْدَهُمْ	قَمَحٌ وَلَا خُبْرٌ وَلَا فُطْرَةٌ
فَارْجَمَهُمْ إِنْ عَاينُوا كَمْسَكَةَ	فِي كَفِّ طِفْلِ أَوْ رَأَوْا تَمْرَةَ
تَشْخَصُ أَبْصَارُهُمْ نَحْوَهَا	بِشَهْقَةٍ تَتَّبِعُهَا زَفْرَةٌ
كَمْ قَائِلٍ يَا أَبَتَا مِنْهُمْ	قَطَمَتْ عَنَّا الْخُبْرَ فِي كَرَّةٍ

مَا صِرْتَ تَاتِينَا بِفَلْسٍ وَلَا بِدِرْهَمٍ وَرِقٍ وَلَا نُقْرَةٍ
وَأَنْتَ فِي خِدْمَةِ قَوْمٍ فَهَلْ تَخْدُمُهُمْ يَا أَبْتَ سُخْرَةٍ
وَيَوْمَ زَارَتْ أُمُّهُمْ أُخْتَهَا وَالْأَخْتُ فِي الْغَيْرَةِ كَالضَّرَةِ
وَأَقْبَلَتْ تَشْكُو لَهَا حَالَهَا وَصَبَرَهَا مِنِّي عَلَى الْعِشْرَةِ
قَالَتْ لَهَا كَيْفَ تَكُونُ النِّسَاءُ كَذَا مَعَ الْأَزْوَاجِ يَا عُرَّةُ !
فُؤَيْ أَطْلُبِي حَقَّكَ مِنْهُ بِلَا تَخْلُفِي مِنِّي وَلَا فَتْرَةٍ
وَإِنْ تَأْبَى فَخُذِي ذَقْنَهُ أَوْ ائْتِفِيهَا شَعْرَةً شَعْرَةٍ
قَالَتْ لَهَا مَا هَذَا عَادَتِي فَإِنْ زَوْجِي عِنْدَهُ ضَجْرَةٌ
أَخَافُ إِنْ كَلَّمْتُهُ كَلِمَةً طَلَّقَنِي قَالَتْ لَهَا بَعْرَةٌ
وَهَوَّنتُ قَدْرِي فِي نَفْسِهَا فَجَاءَتْ الزَّوْجَةَ مُجْتَرَّةً
فَقَا تَلَشَّنِي فَتَهَذِّدْنِي فَأَسْتَقْبَلْتُ رَأْسِي بِأَجْرَةٍ
وَحَقُّ مَنْ حَالَتُهُ هَذِهِ أَنْ يَنْظُرَ الْمَوْلَى لَهُ أُمْرَةً

وفي هذه القصيدة كثير من التعابير المصرية ، ولا تزال بقاياها موجودة

في بلبس .

ع — وقد حدثنا البوصيري عن سبب وضعه للبردة فقال : « كنت قد نظمت قصائد في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم منها ما كان اقترحه على صاحب زين الدين يعقوب بن الزبير ، ثم اتفق بعد ذلك أن صاحبي فالج

أبطل نصفي ، ففكرت في عمل قصيدتي هذه فعملتها ، واستشفمت بها إلى الله تعالى في أن يعافيني ، وكررت إنشادها ، ودعوت ، وتوسلت ، ونمت فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فمسح وجهي يده المباركة ، وألقى عليّ بردة ، فانتبهت ووجدت في نهضة ، فقممت وخرجت من بيتي ، ولم أكن أعلمت بذلك أحداً فلقيني بعض الفقراء فقال لي : أريد أن تعطيني القصيدة التي مدحت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : أيها ؟ فقال : التي أنشأتها في مرضك وذكر أولها ، وقال : والله لقد سمعتها البارحة وهي تنشد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمايل وأعجبه ، وألقى علي من أنشدها بردة ، فأعطيته إياها ، وذكر الفقير ذلك ، وشاع المنام .

وفي هذه القطعة دلالة على عقلية البوصيري : فهو رجل فيه طيبة وسذاجة كأكثر الصوفية ، فليس من المعقول أن يبرأ مريض من مرضه لآية يتلوها أو قصيدة ينشدها كما يرى البوصيري بقصيدته ، ولو مرض مفتي الديار المصرية - لاسمح الله - ما استغنى بالبردة عن الطيب^(١) ، ولعل حكاية البوصيري هذه هي سبب ماسار بجانب البردة من الخرافات ، فقد ذكر بعض الشراح لكل بيت من أبياتها فائدة : فبعضها أمان من الفقر ، وبعضها أمان من الطاعون ! وهذا النوع من الغفلة قديم ، فقد كان الزمخشري يذكر شيئاً من مثل هذا عن سور القرآن . ونلاحظ كذلك أن البوصيري كرر عبارة « صلى الله عليه وسلم » خمس مرات في هذه الفقرة الصغيرة ، وتكرار الصلاة على النبي كلما

(١) كذلك قلنا في كتاب : (الموازنة بين الشعراء) ، ونرى الآن أن البوصيري صادق في رؤياه ، لأن قوة الإيمان تؤثر أبلغ التأثير على الجسم ، ولا سيما إذا تكررنا أنه لم يزد على أن قال : انه وجد في جسمه نهضة ، وذلك أقل ما ينتظر لرجل مؤمن يرى الرسول في المنام ويسمع منه كلمات التشجيع .

ذكر اسمه من وساوس المتأخرين ، وقد زاد البوصيرى على ذلك فى القصيدة المضرية ، فهو يدعو الله أن يصلى على النبيّ وشيعته وصحبه عدد الحصى والثرى والمدر ، وعدد نجم السماء ، ونبات الأرض ، وعدد وزن مثاقيل الجبال ، وقطر جميع الماء والمطر ، وما حوت الأشجار من ورق ، وعدد الجن والانس والأملاك ، وعدد الذرّ ، والنمل ، والحبوب ، والشعر ، والصوف ، والريش ، والوبر ، وعدد ما أحاط به العلم المحيط ، وما جرى به القلم والقدر ، وعدد نعم الله على الخلائق مذكّانوا ، ومذحشروا ، وعدد ما كان فى الأكوان ، وما يكون إلى يوم البعث ، وتكون هذه الصلاة بهذا التحديد :

فِي كُلِّ طَرْفَةِ عَيْنٍ يَطْرُقُونَ بِهَا أَهْلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ أَوْ يَذَرُوا
مِلَّةَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ مَعَ جَبَلٍ
وَالْفَرَشِ وَالْعَرْشِ وَالْكُرْسِيِّ وَمَا حَصَرُوا

مَا أَعَدَّ اللَّهُ مَوْجُودًا وَأَوْجَدَ مَعْدُومًا صَلَاةً دَوَامًا لَيْسَ تَنْحَصِرُ
تَسْتَعْرِقُ الْعَدَمَ مَعَ جَمْعِ الدُّهُورِ كَمَا تُحِيطُ بِالْحَدِّ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ

وهذا النمط من الصلاة على النبيّ لم يكن معروفًا فى صدر الاسلام ، وإنما هو تصرف من غلاة الصوفية أمثال صاحب « دلائل الخيرات » .

ه — ومنام البوصيرى كانت له أطياف فى أذهان الصوفية ، فقد استحبوا أن يقرأ المرء هذا البيت :

مولاي صلّ وسلم دائماً أبداً على حبيبك خير الخلق كلهم

بعد كل بيت من آيات البردة ، وذكروا أن الغزنوى كان يقرأها في كل ليلة ليرى النبي في منامه ، فلم تيسر له الرؤيا ، فشكا ذلك إلى شيخ كامل ، فقال له : لعلك لا تراعى شرائطها ! فقال : لا ، بل أراعيها . فراقبه الشيخ ثم قال له : إنك لا تصلى بالصلاة التي كان يصلى بها الامام البوصيرى على النبي صلى الله عليه وسلم ، وهى قوله :

مولاي صل وسلم (البيت)

قالوا : وحكمة اختياره هذا البيت دون غيره أنه رحمه الله لما أنشأ هذه القصيدة رأى النبي في المنام ، فأنشدها بين يديه ، فكان يتمايل طرباً كتمايل الأغصان ، فاما انتهى إلى قوله : « فبلغ العلم فيه أنه بشر » لم يقدر على تكميل البيت ، فقال له عليه الصلاة والسلام : اقرأ ، فقال : إني لم أوفق للمصراع الثانى يا رسول الله فقال له الرسول قل : « وأنه خير خلق الله كلهم » ، فأدرج البوصيرى هذا المصراع الذى قاله النبي في البيت المتقدم ، وجعله صلاة مكررة بعد كل بيت حرصاً على لفظ النبي عليه السلام .

وهذه المنامات تعليلها سهل ، فحب البوصيرى للرسول خلق منه قيثاره نبوية . وإيمان الصوفية بمعظمة البوصيرى وبأن قصيدته وجه أحلامهم إلى تصور الرسول في المنام بفضل الاكثار من تلاوة البردة مصحوبة بتلك الصلاة . والبردة في ذاتها لا تمكن كل إنسان من الكرامات ، وإنما تنفعل النفس بما تؤمن به في صدق وإخلاص ، فتتمثل الغرائب والأعاجيب ، وكذلك كانت البردة عند بعض الناس مفتاحاً للمثول بين يدي الرسول . ورؤيا النبي حق : عند الصوفية ، وعند الفقهاء .

الفصل التاسع

عناصر البردة

١ - تقع البردة في اثنين وثمانين ومائة بيت ، فهي من القصائد الطوال ، وأغلب الظن عندى أن البوصيري استأنس عند نظمها بيمية ابن الفارض ، ، ودليل ذلك تشابه المطلعين ، فان مطلع قصيدة ابن الفارض :

هَلْ نَارُ لَيْلَى بَدَتْ لَيْلًا بِذِي سَلَمٍ أَمْ بَارِقُ لَاحٍ فِي الزَّوْرَاءِ فَأَلْعَلِمَ
أَرْوَاحَ نَعْمَانَ هَلَّا نَسَمَةً سَحَرًا وَمَاءَ وَجَرَةٍ هَلَّا تَهْمَلَةً بِفَمٍ

ومطلع قصيدة البوصيري :

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِبْرَانٍ بِذِي سَلَمٍ مَزَجَتْ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمٍ
أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تِلْقَاءِ كَاظِمَةٍ وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الظُّلُمَاءِ مِنْ إِضْمٍ

فدو سلم ، وهبوب الريح ، وإيماض البرق : مما اشترك فيه الشاعران ، مع وحدة الوزن والقافية ، يضاف إلى هذا أن ابن الفارض قال :

يَا لَأَنَّمَا لَأَمَنِي فِي حُبِّهِمْ سَفَهًا كَفَّ الْمَلَامَ فَلَوْ أُحْيَيْتَ لَمْ تَلَمْ

فتابعه البوصيرى فقال :

يَا لَأَعْيٍ فِي الْهَوَى الْعُذْرِيَّ مَعْدِرَةً مِئْنَى إِلَيْكَ وَلَوْ أَنْصَفْتَ لَمْ تَلْمِ

كما تابع شوقي البوصيرى حين قال :

يَا لَأَعْيٍ فِي هَوَاهُ وَالْهَوَى قَدَرُ لَوْ مَسَّكَ الشَّوْقُ لَمْ تَعْذِلْ وَلَمْ تَلْمِ

وقال ابن الفارض :

طَوْعًا لِقَاضِيٍّ أُنَى فِي حُكْمِهِ عَجَبًا أَفْتَى بِسَفْكَ دَمِي فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ
أَصَمَّ لَمْ يَسْمَعْ الشُّكْوَى وَأَبْكَمَ لَمْ يُحْرِجُوا بَابًا وَعَنْ حَالِ الْمَشُوقِ عَمِي

فدار البوصيرى حول هذا المعنى إذ قال :

عَدَّتْكَ حَالِي لَا سِرِّي بِمُسْتَتِرٍ عَنْ الْوُشَاةِ وَلَا دَائِي بِمُنْخَسِمِ
مَحْضَتِي النُّصْحَ لَكِنْ لَسْتُ أَنْتُمْ إِنْ الْمُحِبِّ عَنِ الْمُدَالِ فِي صَمَمِ

٢ -- وتشتمل البردة على عدة عناصر : ففي صدرها النسيب ، يليه

التعذير من هوى النفس ، ثم مدح النبي ، والكلام عن مولده ومعجزاته ، ثم القرآن والأسراء والمعراج والجهاد ، ثم التوسل والمناجاة .

والنسيب في البردة يتصل بالشوق إلى العالم العربية ، وكنت ملت البوصيرى على هذا في كتاب « الموازنة بين الشعراء » ثم تبينت أنه اختار تلك المواطن لصلتها بمولد الرسول ، وخاصة إذا لاحظنا أن النسيب لم يقصد لذاته حتى يتحدث الشاعر عن هواد في بليس أوقافوس ، وإنما هو نسيب وقع

موقع التهيد لقصيدة دينية ، ولولا حرص الشاعر على متابعة القدماء في افتتاح القصائد بالنسيب لما كان للتغزل في مثل هذه القصيدة مكان .
ومع أن الشاعر كان فارغ القلب من الصبوات الحسية ، فانا نراه قارب الاجادة في التعبير عن لوعة الوجد حين قال :

أَحْسَبُ الصَّبَّ أَنَّ الْحُبَّ مُنْكَمِّمْ مَا يَنْ مَنَسَجِمٍ مِنْهُ وَمُضْطَرِمٍ
لَوْلَا الْهُوَى لَمْ تُرَقْ دَمْعًا عَلَى طَلَلٍ وَلَا أَرَقْتَ لِذِكْرِ الْبَانِ وَالْعَلَمِ
فَكَيْفَ تُنْكِرُ حُبًّا بَعْدَ مَا شَهِدْتَ بِهِ عَلَيْكَ عُدُولُ الدَّمْعِ وَالسَّقَمِ
وَأَثَبْتَ الْوَجْدُ خَطِيئَةَ عَبْرَةٍ وَضَنَى مِثْلَ الْبَهَارِ عَلَى خَدَّيْكَ وَالْعَنَمِ
نَعَمْ سَرَى طَيْفٌ مِنْ أَهْوَى فَأَرَقَنِي وَالْحُبُّ يَنْعَرِضُ اللَّذَاتِ بِالْأَلَمِ

٣ - أما التحذير من هوى النفس فقد ابتدأه الشاعر بالكلام عن عدل الشيب ، وفي ذلك دليل على أن الشاعر نظم البردة في أيام الاكتهال ، وأياته في هذا المعنى جيدة . وفيها شطرات تجرى مجرى الأمثال ، كقوله :

وَالشَّيْبُ أَبَعْدُ فِي نُصْحٍ عَنِ التَّهَمِ

وقوله :

إِنَّ الطَّعَامَ يُقَوِّ شَهْوَةَ النَّهَمِ

وقوله :

إِنَّ الْهُوَى مَا تَوَلَّى يُضْمِرُ أَوْ يَصِمِ

وقوله :

فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِنْ التُّخْمِ

وقوله :

وَمَا اسْتَقَمْتُ فَا قَوْلِي لَكَ اسْتَقِمْ

وله نظرات في سياسة النفس على جانب من الدقة : كالتحذير من دسائس الشيع والجوع ، وتشبيه النفس بالطفل « إن تهمله شبّ على حب الرضاع وإن تطفئه ينفطم » وهو يرى أن أداء الفرائض رتبة صغيرة لا تصل به إلى درجات الأصفاء ، ويقول :

وَلَا تَزَوَّدْتُ قَبْلَ الْمَوْتِ نَافِلَةً وَلَمْ أَصَلِّ سِوَى فَرَضٍ وَلَمْ أَصُحِّرْ

٤ - وفي مدح النبي يتحدث عن تهجده ، فيذكر أنه أدام قيام الليل حتى تورمت قدماه ، ويتحدث عن إشاره الجوع فيذكر أنه كان يشد أحشاءه من السغب ، ويتكلم عن زهده فيذكر أن جبال الذهب راودته عن نفسه فاستعصم . ثم يذكر أنه سيد الكونين والثقلين والفريقين من عرب ومن عجم وأنه الأمر الناهي ، وأنه لا أحد أبرّ منه في قول : (لا) و (نعم) ، وأنه مرجوّ الشفاعة ، وأن المستمسكين به مستمسكون بجبل غير منفصم ، وأنه فاق النبيين في الخلق والخلق ، ولم يدانوه في علم ولا كرم ، ويعمن في ذلك فيقول :

وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ مُلْتَمِسٌ غَرَفًا مِنَ الْبَحْرِ أَوْ رَشْفًا مِنَ الدِّيمِ

وَوَاقِفُونَ لَدَيْهِ عِنْدَ حَدِّهِمْ مِنْ نُقْطَةِ الْعِلْمِ أَوْ مِنْ شَكْلَةِ الْحِكْمِ
ويحكم بأنه هو « الذي تم معناه وصورته » وأنه منزله عن الشريك في محاسنه ،
ويقول :

دَعِ مَا أَدَّعَتْهُ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِمْ وَأَحْكُمْ بِمَا شِئْتَ مَدْحًا فِيهِ وَأَحْتَكُمِ
وله في مدح النبي آيات جيدة حقا من الوجهة الشعرية ، وانظر هذا البيت
البارع الجميل :

لَوْ نَاكَبَتْ قَدْرُهُ آيَاتُهُ عِظَامًا أَحْيَا أَسْمُهُ حِينَ يُدْعَى دَارِمَ الرَّئِمِ
وانظر هذه الوثبة الشعرية في تصوير شخصية الرسول :

أَعْيَا الْوَرَى فَهُمْ مَعْنَاهُ فَلَيْسَ يُرَى	لِلْقُرْبِ وَالْبُعْدِ مِنْهُ غَيْرُ مُنْفَعِمِ
كَالشَّمْسِ تَظْهَرُ لِلْعَيْنَيْنِ مِنْ بُعْدٍ	صَغِيرَةً وَتُسَكِلُ الطَّرْفَ مِنْ أَمِّ
وَكَيفَ يُدْرِكُ فِي الدُّنْيَا حَقِيقَتَهُ	قَوْمٌ نِيَامٌ تَسْأَلُوا عَنْهُ بِالْحِلْمِ
فَبَلَغَ الْعِلْمَ فِيهِ أَنَّهُ بَشَرٌ	وَأَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللَّهِ كُلِّهِمْ
أَكْرَمَ بِخَلْقِ نَبِيِّ زَانَهُ خَلْقُ	بِالْحُسْنِ مُشْتَمِلٍ بِالْبَشَرِ مُتَّهِمِ
كَالزَّهْرِ فِي تَرْفٍ وَالبَدْرِ فِي شَرَفٍ	وَالْبَحْرِ فِي كَرَمٍ وَالْدَّهْرِ فِي هِمَمِ
كَأَنَّهُ وَهُوَ فَرْدٌ فِي جَلَالَتِهِ	فِي عَسْكَرٍ حِينَ تَلْقَاهُ وَفِي حَشَمِ

وهذه آيات في غاية من القوة ، وإن كانت أخيلتها مقتسبة من معان قديعة ،
وقوله بعد ذلك :

كَأَنَّمَا اللَّهُ لَوْلَا الْمَسْكُونُ فِي صَدَفٍ مِنْ مَعْدِنِي مَنْطِقٍ مِنْهُ وَمُبْتَسَمٍ

من المعاني التي أكثر منها الشعراء ، وقد نقلها البوصيري من النسيب إلى المديح . وقوله :

لَا طِيبَ يَعْدِلُ تَرْبَا ضَمَّ أَعْظَمَهُ طُوبَى لِمُنْتَشِقٍ مِنْهُ وَمُتْلِمٍ

من الأخيلة العامة . وقوله في تفضيل النبي على سائر الأنبياء :

وَكُلُّ آيٍ أَنَّى الرُّسُلُ الْكِبْرَامُ بِهَا فَإِنَّمَا أَتَصَلَّتْ مِنْ نُورِهِ بِهِمْ
فَإِنَّهُ شَمْسٌ فَضْلٌ مُمَّ كَوَا كِبَاهَا يُظْهِرُنْ أَنْوَارَهَا لِلنَّاسِ فِي الظُّلَمِ

هذا المعنى ينافي الأدب الجميل في رعاية حقوق الأنبياء ، وهو يساير به نزعة ساذجة لا يقرها عقل ، ولا يدعو إليها دين ، وليس مما ينقص مجد النبي أن يكون لمن سبقوه من الأنبياء شخصية مستقلة عنه كل الاستقلال .

٥ - ثم تكلم عن مولد النبي فذكر أن إيوان كسرى انصدع ، وأن نار الفرس خمدت ، وأن بحيرة ساوة فاضت ، وأن الشهب اتقضت فوق الأصنام . ولم يعرف لشيء من ذلك سند صحيح من التاريخ ، ولا نعرف متى نشأت هذه الأخبار عند المسلمين ، وأغلب الظن أنها من وضع القصاص الذين أرادوا أن يصوروا مولد الرسول بالصور التي أثرت عن أنبياء الهنود . وقد أكثر مؤرخو المولد من هذه الأخبار ، وطاف بها جمهور الناظمين في المدائح النبوية .

٦ - وتحدث عن المعجزات ، فذكر سجود الأشجار للرسول ، ومشيا إليه ، وسير الغمامة أنى سار لتقيه حر الهجير ، وما صنع الحمام والعنكبوت بالغار

وكيف كان لمس راحته يبرئ المريض ، ويشفى من الجنون ، وكيف كانت دعوته ترسل الأمطار في السنة الشهباء .

وبعض هذه الأخبار يحتاج إلى تحقيق .

٧ - وتكلم عن القرآن فقال : إنه ظهر « ظهور نار القرى ليلا على علم » وأن المديح لا يتناول إلى ما فيه من كرم الأخلاق والشيم ، وأن آياته :

لَمْ تَقْتَرِنْ بِرَمَانٍ وَهِيَ تُخْبِرُنَا عَنْ الْمَعَادِ وَعَنْ عَادٍ وَعَنْ إِرَمٍ .
وأنها :

دَامَتْ لَدَيْنَا فَفَاقَتْ كُلَّ مُعْجَزَةٍ مِنَ النَّبِيِّينَ إِذْ جَاءَتْ وَلَمْ تَدْمِ

وهذا أجمل ما يوصف به القرآن ، فهو المعجزة الباقية ، وهو أيضاً المعجزة الصريحة التي يعتز بها العقل ، ويصح للمسامين أن يواجهوا بها العالم غير مترددين . أما نبع الماء بين يدي الرسول ، وتظليل الغمام إياه ، وسجود الأشجار له ، وما إلى ذلك من المعجزات ، فهي مسائل يحتاج عرضها إلى مخاطرة ، وهي غشبية الضر قبل أن تكون مرجوة النفع .

وقوله في وصف آي القرآن :

مَا حُورِبَتْ قَطُّ إِلَّا عَادَ مِنْ حَرْبٍ أَعْدَى الْأَعَادِي إِلَيْهَا مُنَاقِي السَّلَامِ
رَدَّتْ بِلَاغَتِهَا دَعْوَى مُعَارِضِهَا رَدَّ النُّيُورِ يَدَ الْجَانِي عَنِ الْحُرْمِ

كلمة صدق ، ويكفي أن تقرأ القرآن بحيدة ونزاهة لتلمس هذه الحقيقة ، فهو

كتاب على جانب عظيم جدًّا من القوة ، وليس عليه بعزير أن يحمل عدوه على الإيمان بما فيه من روعة وجلال .

والمعاني الشعرية قليلة فيما وصف البوصيرى به آى القرآن ، ومع ذلك نستعيد له هذين البيتين :

لَا تَعَجَبَنَّ لِحُسُودِ رَاحٍ يُنْكِرُهَا تَجَاوَلًا وَهُوَ عَيْنُ الْحَاقِقِ الْفَهْمِ
فَأَلَمَيْنِ تُشْكِرُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ وَيُنْكِرُ الْفَهْمُ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمِ

٨ - ثم تحدث عن الاسراء بأيات خفيفة الروح :

يَا خَيْرَ مَنْ يَمَّمُ الْعَافُونَ سَاحَتَهُ سَعْيًا وَفَوْقَ مَثَوْنِ الْأَيْتُقِ الرُّسْمِ
وَمَنْ هُوَ الْآيَةُ الْكُبْرَى لِمُعْتَبِرٍ وَمَنْ هُوَ النِّعْمَةُ الْمُظْمَى لِمُنْتَبِرِ
سَرَيْتَ مِنْ حَرَمٍ لَيْلًا إِلَى حَرَمٍ كَمَا سَرَى الْبَدْرُ فِي دَاجٍ مِنَ الظُّلَمِ
وَبِتَّ تَرَقَّى إِلَى أَنْ نِلْتَ مَنْزِلَةً مِنْ قَابِ قَوْسَيْنِ لَمْ تُدْرِكْ وَلَمْ تَرْمِ

ثم وقع في أيات لم يصقلها الذوق حين قال :

وَقَدَّمْتُكَ جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ بِهَا وَالرُّسُلِ تَقْدِيمَ مَخْدُومٍ عَلَى خَدَمِ
وَأَنْتَ تَحْتَرِقُ السَّبْعَ الطَّبَاقَ بِهِمْ فِي مَوْكِبٍ كُنْتَ فِيهِ صَاحِبَ الْعَلَمِ
حَتَّى إِذَا لَمْ تَدْعُ شَأْوًا لِمُسْتَبِقٍ مِنَ الدُّنُوِّ وَلَا مَرَقَى لِمُسْتَنِمِ
خَفَضْتُ كُلَّ مَقَامٍ بِالْإِضَافَةِ إِذْ نُودِيتَ بِالرَّفْعِ مِثْلَ الْمُفْرَدِ الْعَلَمِ

والبيت الأخير ثقيل أضرت به التورية النحوية .

٩ - وتكلم عن الجهاد فوصف النبي وأصحابه بالبأس والقوة ، وبين أن الأعداء سقطوا من صدمة الرعب والفرع :

رَأَيْتُ قُلُوبَ الْعِدَا أَنْبَاهُ بِمَشْتَبِهٍ كَنِبَاءٍ أَجْفَلَتْ عُفْلًا مِنْ النَّعَمِ
مَا زَالَ يَلْقَاهُمْ فِي كُلِّ مُمْتَرَكٍ حَتَّى حَكَّوْا بِالْقَنَا لَحْمًا عَلَى وَضَمِ
وَدُّوا الْفِرَارَ فَكَادُوا يَنْبْطُونَ بِهِ أَشَلَّاءَ شَالَتْ مَعَ الْعِقْبَانِ وَالرَّحِمِ
تَمْضِي اللَّيَالِي وَلَا يَذُرُونَ عِدَّتَهَا مَا لَمْ تَكُنْ مِنْ لَيْلَى الْأَشْهُرِ الْحُرَمِ

ويعجبنا قوله في وصف جند الرسول :

كَأَنَّمَا الدِّينُ ضَيْفٌ حَلَّ سَاحَتَهُمْ يَجْرُ بِحَزَرٍ خَمِيسٍ فَوْقَ سَاحِجَةٍ
مِنْ كُلِّ مُتَنَدِّبٍ لِلَّهِ مُخْتَسِبٍ بَرَزِي بِمَوْجٍ مِنَ الْأَبْطَالِ مُلْتَطِمِ
حَتَّى غَدَتْ مِلَّةُ الْإِسْلَامِ وَهِيَ بِهِمْ يَسْطُو عُسْتَأْصِلٌ لِلْكَفْرِ مُضْطَلِمِ
هُمْ الْجِبَالُ فَسَلَّ عَنْهُمْ مُصَادِمُهُمْ مِنْ بَعْدِ غُرَبَتِهَا مَوْصُولَةَ الرَّحِمِ
الْمُصْدِرِ الْبَيْضِ خُمْرًا بَعْدَ مَا وَرَدَتْ مَاذَا رَأَى مِنْهُمْ فِي كُلِّ مُسْطَدِمِ
وَالْكَاتِبِينَ بِسْمِ الْخَطِّ مَا تَرَكَتْ مِنَ الْعِدَا كُلِّ مُسَوِّدٍ مِنَ اللَّعَمِ
شَاكِيَ السَّلَاحِ لَهُمْ سِيَمَا تُمَيِّزُهُمْ أَفْلَا لَهُمْ حَرْفُ جِسْمٍ غَيْرِ مُنْعَجِمِ
كَأَنَّهُمْ فِي ظُهُورِ الْخَيْلِ نَبْتُ رُبَا وَالْوَرْدُ يَمْتَازُ بِالسِّيَا مِنَ السَّلَمِ
طَارَتْ قُلُوبُ الْعِدَا مِنْ بَأْسِهِمْ فَرَقَا مِنْ شِدَّةِ الْحَزْمِ لَا مِنْ شِدَّةِ الْحُزْمِ
وَمَنْ تَكُنْ بِرَسُولِ اللَّهِ نُصْرَتُهُ فَمَا تَفَرَّقُ بَيْنَ النَّهْمِ وَالْبُهْمِ
إِنْ تَلَقَّهُ الْأَسَدُ فِي آجَامِهَا تَجِمِ إِنْ تَلَقَّهُ الْأَسَدُ فِي آجَامِهَا تَجِمِ

أَحَلَّ أُمَّتَهُ فِي حَرِّهِ مِلَّتَهُ كَاللَّيْلِ حَلَّ مَعَ الْأَشْبَالِ فِي أَجَمٍ .

وهذه الأبيات تخيرناها مما وصف به الجهاد والمجاهدين ، وهي تمتاز بقوة السبك وروعة الخيال ، وهي أيضاً من نواذر الشعر في قصيدة البردة ، لأن الشعر لا يتفق لهذا الرجل في جميع المقامات .

١٠ - وقد ظهرت نفحات التصوف ظهوراً قوياً في الجزء الأخير من

البردة ، وهو التوسل بالرسول :

يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مَا لِي مِّنْ أَلُوذٍ بِهِ سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الْحَادِثِ الْعَمَمِ .
وَلَأَن يَضِيقَ رَسُولَ اللَّهِ جَاهُكَ بِي إِذَا الْكَرِيمُ تَحَلَّى بِأَسْمٍ مُنْتَقِمِ .
فَإِنَّ مَن جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتْهَا وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ .

ويخاطب نفسه ، ويدعوره ، فيقول :

يَا نَفْسُ لَا تَقْنَطِي مِّنْ زَلَّةٍ عَظُمَتْ لَعَلَّ رَحْمَةَ رَبِّي حِينَ يَقْسِمُهَا تَأْتِي عَلَى حَسَبِ الْعِصْيَانِ فِي الْقِدَمِ .
يَا رَبِّ وَأَجْمَلُ رَجَائِي غَيْرُ مُنْعَكِسٍ لَدَيْكَ وَأَجْعَلْ حِسَابِي غَيْرَ مُنْخَرِمِ .

ولنقيد أن الشطر الأخير من البردة ضعيف من الوجهة الشعرية ، ولكنه لا يخلو من صدق ، والصدق من أعم عناصر البيان .

الفصل العاشر

أثر البردة

في اللغة العربية

أثرها في الجماهير الشعبية - أثرها في التأليف - أثرها في الدرس -
عناية الشعراء بتضمينها ، وتثنيها ، وتحميسها ، ومعارضتها -
ابتكار ابن جابر لفن البديعيات - فضل البردة في نشأة البديعيات
ونشر الثقافة الأدبية .

يمكن رجوع أثر البردة في اللغة العربية إلى خمس نواح : أثرها في الجماهير الشعبية ، وأثرها في التأليف ، وأثرها في الدرس ، وأثرها في الأشعار ، وأثرها في البديعيات .

١ - أما أثرها في الجماهير الشعبية فواضح جداً ، ونستطيع الجزم بأن الجماهير في مختلف الأقطار الإسلامية لم تحفظ قصيدة مطولة كما حفظت البردة ، فقد كانت ولا تزال من الأوراد : تقرأ في الصباح ، وتقرأ في المساء ، وكنت أرى لها مجلساً يعقد في ضريح الحسين بعد صلاة الفجر من كل يوم جمعة ، وكان لذلك المجلس رهبة تأخذ بمجامع القلوب . والذي يزور ساحة المولد

النبوى بالقاهرة يرى المئات يرتلون في هية وخشوع . وكثير من الناس كانوا يجمعون الأطفال لقراءتها في الجنازات . ومن كتبة الأحجية والتمائم من يعرف لكل بيت فائدة : فهذا البيت يشقى من الصرع ، وذلك ينفع في حفظ المزارع والمنازل من التلف والحريق ، وذلك يفيد في الجمع بين النافرين من الأحياب ، إلى آخر ما ابتدعوا لها من الفوائد الحسية والمعنوية .

ومن أدلة هذا الذيوع ما نراه من تعدد الطبعات ، فقد طبعت في فينا والأستانة ، ومكة ، وبغاي ، وطبعت في القاهرة نحو خمسين مرة ، وأكثر الطبعات كتبت بخط جميل ، وحفظت في رواصم لطبع منها عند الطلب ، وهى تطلب بالألوف . وفي دار الكتب المصرية نسخ من البردة حليت كتابتها بالذهب ، على نحو ما يصنع المفتشون بنسخ المصحف الشريف .

والبوصيرى بهذه البردة : هو الأستاذ الأعظم لجماهير المسلمين ، ولقصيدته أثر في تعليمهم الأدب والتاريخ والأخلاق ، فمن البردة تلقى الناس طوائف من الألفاظ والتعابير غنيت بها لغة التخاطب ، وعن البردة عرفوا أبوابا من السيرة النبوية ، وعن البردة تلقوا أبلغ درس في كرم الشرائع والخلال ، وكذلك استطاع البوصيرى بتصوفه أن يؤثر في الأدب والأخلاق تأثيراً لا يدرك كنهه إلا من رأى كيف تدور البردة على ألسنة العوام ، وكيف تهذب ما انطبعوا عليه من عنجهية الخصال ، وليس من القليل أن تنفذ هذه اللقصيدة بسحرها الأخاذ إلى مختلف الأقطار الإسلامية ، وأن يكون الحرص على تلاوتها وحفظها من وسائل التقرب إلى الله والرسول .

٢ - وأما أثرها في التأليف فيظهر فيما وضع لها من الشروح ، فقد

شرحها ابن الصائغ المتوفى سنة ٧٧٦ ، وشرحها على بن محمد القلصاي - بفتحات -
المتوفى سنة ٨٩١^(١) ، وشرحها شهاب الدين بن العماد المتوفى سنة ٨٠٨ ، وشرحها
الشيخ خالد الأزهرى المتوفى سنة ٩٠٥ ، وشرحها علاء الدين البسطامى المتوفى
سنة ٨٧٥ ، وشرحها يوسف بن أبي اللطف القدسي المتوفى بعد الألف للهجرة
وشرحها يوسف البسطامى من علماء القرن التاسع ، وشرحها ملاّ على المتوفى
سنة ١٠١٤ ، وشرحها شيخ زاده محي الدين ، ولم نعرف تاريخ وفاته ، ولكن
أقدم نسخة من شرحه يرجع تاريخها إلى سنة ٩٤٩ ، وشرحها جلال الدين المحلى
المتوفى سنة ٨٦٤ ، وشرحها محمد بن أحمد المرزوق المتوفى سنة ٨٨١ ، وشرحها
عبد الحق بن عبد الفتاح من علماء القرن الثانى عشر ، وشرحها محمد المصرى
من علماء القرن الحادى عشر ، وشرحها ملاّ محمد من علماء القرن الحادى عشر ،
وشرحها زكريا الانصارى المتوفى سنة ٩٢٦ ، وشرحها عمر الخربوتى من علماء
القرن الثالث عشر ، وشرحها القسطلانى المتوفى سنة ٩٢٣ وهو شارح البخارى
وشرحها محمد بن مصطفى المدرنى من علماء القرن الثانى عشر ، وشرحها محمد
عثمان المبرغنى من علماء القرن الثالث عشر ، وشرحها الشيخ حسن العدوى
الحزواى المتوفى سنة ١٣٠٣ ، وشرحها الباجورى المتوفى سنة ١٢٧٦ .

وفى دار الكتب المصرية شروح أخر لم يعرف مؤلفوها .

ولأكثر هذه الشروح أسماء شعرية ، مثل : (الرقم على البردة) و (راحة
الأرواح) و (الجوهرة الفردة ، فى شرح البردة) و (الزبدة الرائقة ، فى شرح

(١) انظر ترجمته فى نفح الطيب ج ١ ص ٩٣٥ طبع ليدن .

البردة الفائقة) و (عصيدة الشهدة ، في شرح البردة) و (وردة المليح ، في شرح بردة المديح) .

والبردة نفسها سماها المؤلف (الكواكب الدرية ، في مدح خير البرية) .
وعند النظر في هذه الشروح نراها مجموعات نفيسة تزخر بالفقرات اللغوية ، والأدبية ، والتاريخية ، وشغل هؤلاء الشراح بالأدب واللغة والتاريخ يرجع الفضل فيه إلى تصوف ذلك الشاعر المجيد .

٣ - وأما أثرها في الدرس ، فيتمثل في تلك العناية التي كان يوجهها العلماء الأزهريون إلى عقد الدروس في يومى الخميس والجمعة لدراسة حاشية الباجورى على البردة ، وهى دروس كانت تلقاها جماهير من الطلاب ، وإنما كانوا يتخيرون يومى الخميس والجمعة لأن مثل هذا الدرس لم يكن من المقررات ، فكانوا يتخيرون له أوقات الفراغ .

ولتذكر أنه مضت سنون لم يكن يعرف فيها الأزهري كيف تكون دروس التاريخ الاسلامى ، فكانت البردة وشروحها مما يسدّ النقص الفاحش في معهد دينى يحهل أهله غزوات الرسول .

٤ - وأما أثر البردة في الشعر والشعراء ، فعظيم جداً ، فقد ضمنوها ، وشطروها ، وخمسوها ، وسبعوها ، وعشروها ، وعارضوها ، فن الذين ضمنوها الشيخ قاسم (ولم نقف له على ترجمة) وأول تضمينه :

أَمِنْ تَذَكُّرِ أَوْطَانٍ عَلَى عِلْمٍ أَمْ مِنْ تَفَنُّدِ جِبْرَانٍ بِذِي سَلَمٍ
مَزَجَتْ دَمْعًا جَرَى كَالْفَطْرِ مِنْهُمْ مِرًّا يَجْزَى عَلَى وَجْنَةٍ مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمٍ

ومن الذين شطروها أحمد بن شرقاوى الخلقى - نسبة إلى قرية يقال لها : الخليفة ملاسقة لمدينة جرجا ، وبها توفى فى سحر ليلة الجمعة التاسع عشر من شهر ذى القعدة سنة ١٢٥٠ - وأول التشطير :

أَمِنْ تَذَكَّرِ جِبْرَانَ بِذِي سَلَمٍ أَصْبَحْتَ ذَا خَلَدٍ بِالْوَجْدِ مُصْطَلَمٍ
أَمْ مِنْ تَفَتَّتِ قَلْبٍ فِي الْحَشَا شَغَفَا مَرَجْتَ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقَلَّةٍ بِدَمٍ

وأحمد بن عبد الوهاب الجرجاوى المتوفى سنة ١٢٥٤ ، وأول التشطير :

أَمِنْ تَذَكَّرِ جِبْرَانَ بِذِي سَلَمٍ تَصَبَّبَ الدَّمْعُ يُجْرِي حَاكِى الدِّيمِ

وأحمد بن عثمان العوامى المدفون بجرجا (ولم يعلم تاريخ وفاته) وأول التشطير :

أَمِنْ تَذَكَّرِ جِبْرَانَ بِذِي سَلَمٍ جَزَمْتَ أَنَّكَ مَقْصُورٌ عَلَى الْآلَمِ
وَعِنْدَ مَا هَاجَتْ الدُّكْرَى وَلَوْعَتْهَا مَرَجْتَ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقَلَّةٍ بِدَمٍ

ورمضان حلاوة من علماء آخر القرن الثالث عشر ، وأوائل الرابع عشر .
وأول تشطيره :

أَمِنْ تَذَكَّرِ جِبْرَانَ بِذِي سَلَمٍ لَبَسْتَ ثَوْبًا مِنَ الْأَشْوَاقِ وَالْآلَمِ
أَمْ مِنْ عُمُودٍ ظِلَاءٍ بِالْعَقِيقِ بَدَتْ مَرَجْتَ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقَلَّةٍ بِدَمٍ

وأبو الهدى الصيادى ، وأحمد الحفظى ، وعبد الرحيم الجرجاوى ، ومحمد فرغلى الطهطاوى ، وشطرها أخيراً سعادة عبد العزيز بك محمد ، ومطلع تشطيره :

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِبْرَانٍ بِذِي سَلَمٍ فَاضَتْ شُؤْنُكَ مُلْتَمَا لِيَنِيهِمْ
أَمْ مِنْ فَوَادِكَ مَكْلُومًا لِحُشْتِهِمْ مَرَجَتْ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقَلَّةٍ بِدَمٍ

وقد نالته بركتها فَمُئِنَّ وزيراً للأوقاف ، ولعله يَحْمَسُهَا فَيُؤَيِّنُ رئيساً للوزراء .

٥ - وأما الذين خمسوها فيبلغ عدد من عرفنا أخبارهم نحو الثمانين . وفي دار الكتب المصرية مجموعة في تخاميس البردة تشتمل على تسعة وستين تخميساً ومن أمثلة ذلك قول ناصر الدين الفيومي :

مَا بَالُ قَلْبِكَ لَا يَنْفَكُ ذَا أَلَمٍ مُذْ بَانَ أَهْلُ الْحِمَى وَالْبَانِ وَالْعَلَمِ
وَأُنْحَلَّ مَدْمُوكَ الْقَانِي بِمُنْسَجِمٍ أَمِنْ تَذَكُّرِ جِبْرَانٍ بِذِي سَلَمٍ
مَرَجَتْ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقَلَّةٍ بِدَمٍ

ولم نر موجباً لعرض مطالع تلك التخميسات ، فهي كثيرة ، وقد شغلت نحو خمس صفحات من فهرس الأدب بدار الكتب المصرية ، فمن احتاج إلى بيانها فليرجع إليها هناك .

ولكن لا بد من التنبيه إلى أن الذين خمسوا البردة لم يكونوا جميعاً مصريين فقيهم رجال من المغرب والشام والعراق ، وفي هذا مايدل على أنها شغلت الشعراء في أكثر الأقطار الإسلامية .

٦ - ومن الذين سبعوها شهاب الدين أحمد بن عبد الله المكي ، وقد التزم في أول كل تسبيح لبيت من أبيات البردة أن يذكر لفظ الجلالة ، وأول التسبيح :

اللَّهُ يَعْلَمُ كَمَ بِالْقَلْبِ مِنْ أَلَمٍ وَمِنْ غَرَامٍ بِأَحْشَائِي وَمِنْ سَقَمٍ

عَلَى فِرَاقِ فَرِيقٍ حَلَّ فِي الْحَرَمِ فَقُلْتُ لَمَّا هَمَى دَمْنِي بِمُنْسَجِمِ
عَلَى الْأَمِيقِ عَقِيقًا غَيْرَ مُنْسَجِمِ أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ الخ

وسبغها محمد المصري ، وقد تقدم أنه من شراح البردة ، والتزم في التسبيع أن يذكره أولاً مصدراً بلفظ محمد ، كقوله في المطلع :

مُحَمَّدٌ جَاءَ بِالْآيَاتِ وَالْحُكَمِ مُبَشِّراً وَتَذِيراً مُجْمَلَةَ الْأَنْهَمِ

وهو معارضة للمكي الذي التزم لفظ الجلالة في أول تسبيع لكل بيت .
٧ - وليس لتعشير البردة شواهد كثيرة ، ولا نعرف غير نسخة ضمن مجموعة مخطوطة بدار الكتب المصرية ، والناظم مجهول . وهذا النمط من توشية الشعر قليل .

٨ - أما الذين عارضوا البردة ، فيعدون بالعشرات ، منهم والد مؤلف كتاب الكشكول^(١) ، ويمكن القول بأن جميع المدائح النبوية التي قيلت بعد البوصيري على الوزن والقافية كان أصحابها مسوقين بالروح البوصيرية ، ولم يعض عصر إلا وللبردة فيه طراز ، وأشهر من عارضوها أخيراً محمود سامي البارودي الذي سمي قصيدته : « كشف الغمة ، في مدح سيد الأمة » وعدد آيات هذه القصيدة ٤٧ ، والمطلع :

يَا رَأْدَ الْبَرْقِ يَمَّمْ دَارَةَ الْعَلَمِ وَأُخِذُ الْغَمَامِ إِلَى حَيِّ يَذِي سَلَمِ

وأحمد شوقي ، وسمى قصيدته « نهج البردة » وقد نظمها في سنة ١٣٢٧ والمطلع :

(١) انظر قصيدته في الكشكول ص ٩٨ - ٩٩ .

رِيمٌ عَلَى الْقَاعِ يَنْزِلُ الْبَانِ وَالْعَلَمِ . أَحَلَّ سَفَكَ دَمِي فِي الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ .

وكان المرحوم الشيخ أحمد الحملاوي أسمعنا في درسه قصيدة سماها : « منهاج البردة » نظمها في طريقه إلى الحج ، والمطلع :

يَا غَافِرَ الذَّنْبِ مِنْ جُودٍ وَمِنْ كَرَمٍ وَقَابِلَ التَّوْبِ مِنْ جَانٍ وَمُجْتَرِمٍ .
وَمُسْبِلَ السُّتْرِ لِحَسَنَانَا وَمَرْحَمَةً عَلَى الْفُفَاءِ بِفَيْضِ الْفَضْلِ وَالْكَرَمِ .
أَقْبَلَ مَتَابِي وَأَغْفِرَ مَا جَنَّتُهُ يَدِي وَأَسْتَرْ عِيُوبِي وَبَاعِدْنِي عَنِ الثَّهَمِ .

٩ - مات البوصيري سنة ٦٩٦ ، وبعد موته بسنتين ولد أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بابن جابر الأندلسي ، وكان ضريراً ، ولكن لم تمنعه تلك العاهة القاسية من الرحلة إلى المشرق ، فدخل مصر والشام ، واستوطن حلب ، ثم رجع إلى الأندلس فتوفي في ألبيرة في جمادى الآخرة سنة ٧٨٠^(١) .

وقد افتتن ابن جابر بقصيدة البردة وظهر أثرها في شعره كقوله :

يَا أَهْلَ طَيْبَةٍ فِي مَعْنَا كُمُورٍ قَرَمَ يَهْدِي إِلَى كُلِّ مَحْمُودٍ مِنَ الطَّرْقِ
كَالْنَيْثِ فِي كَرَمٍ وَاللَّيْثِ فِي حَرَمٍ وَالْبَذْرِ فِي أَفْقٍ وَالزَّهْرِ فِي خُلُقِ

وقوله :

أَمَّا مَعَانِي الْمَعَانِي فَهِيَ قَدْ جُمِعَتْ فِي ذَاتِهِ فَبَدَتْ نَارًا عَلَى عِلْمِ .
كَالْبَذْرِ فِي شَيْمٍ وَالْبَحْرِ فِي دِيمٍ وَالزَّهْرِ فِي نِعَمٍ وَاللَّهْرِ فِي نِقَمِ .

(١) انظر ترجمة ابن جابر في فتح الطب ج ١ ص ٩١٦ - ٩١٨ ، وانظر الكلام على شارح
يديته في ص ٩٢٣ - ٩٢٥ من فتح الطب ج ١ طبع ليدن .

وقد شغل نفسه بمعارضة البردة ، ولكن أى معارضة ؟ لقد ابتكر فنًا جديدًا هو « البديعيات » ، وذلك أن تكون القصيدة فى مدح الرسول ، ولكن كل بيت من أبياتها يشير إلى فن من فنون البديع ، ومطلع هذه البديعية :

بَطْيَبَةِ أَنْزَلِ وَيَمِّمْ سَيِّدَ الْأُمَمِ وَأَنْشُرْهُ الْمَدْحَ وَأَنْشُرْ أَطِيبَ الْكَلِمِ

وقد رأى معاصرو ابن جابر قيمة هذا الفن الجديد ، فتقدم صديقه أبو جعفر الأليبرى لشرح بديعته ، واعترف له بالسبق إذ قال فى مقدمة الشرح :

« نادرة فى فنها ، فريدة فى حسنها ، تجنى ثمر البلاغة من غصنها ، وتنهل سواكب الاجادة من مزنها ، لم ينسج على منوالها ، ولا سمحت قريحة بمثالها .

وشرحها أبو جعفر أحمد بن يوسف الغرناطى الأندلسى المتوفى سنة ٧٧٩ واختصر هذا الشرح محمد بن إبراهيم البشتكى المتوفى سنة ٨٣٠ .

وهذه الشروح تمثل الحفاوة التى قوبلت بها تلك البديعية .

وفى عصر ابن جابر وضع صنى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ قصيدة سماها :

« الكفاية البديعية فى المدايح النبوية » وأنشأ عز الدين الموصلى المتوفى سنة ٧٨٩

قصيدة بديعية ، عقبها بشرح سماه : « التوصل بالبديع ، إلى التوصل بالشفيع » ،

وجاء ابن حجة الحموى المتوفى سنة ٨٣٧ ، فنظم بديعية سنتكلم عنها بشئ من

التفصيل ، وجاء ابن المقرئ المتوفى سنة ٨٣٧ ، فأنشأ بديعية سماها : « الجواهر

اللامعة ، فى تجنيس الفرائد الجامعة للمعانى الرائعة » ثم جاء السيوطى ، فعارض

ابن حجة ببديعية سماها : « نظم البديع ، فى مدح خير شفيع » ، ثم اندفع الناس

فى هذا الفن : فللسيدة الباعونية بديعتان ، ولأبى الوفاء بن عمر الفرضى بديعية

وللسيد عبد الهادى الايارى بديعية ، وللشيخ طاهر الجزائرى بديعية ، ولابن

خير الله الخطيب العمرى بديعية ، ولعبد الغنى النابلسى بديعتان ، ولقاسم بن محمد الحلبي بديعية ، ولصدر الدين الحسينى بديعية ، ولشعبان الآثارى بديعية^(١)

١٠ - ولأكثر هذه البديعيات شروح فيها الوسيط والوجيز والمبسوط وأكثر هؤلاء الشراح من المتفوقين فى العلوم العربية ، وفى شروحهم من الفوائد النحوية ، والصرفية ، والبلاغية ، واللغوية ، والأدبية ، والتاريخية : فنون أكثرها من المستملح المستطاب .

أرأيت أيها القارئ ، كيف أثرت قصيدة البردة فى اللغة العربية ، وكيف ساد سلطانها بين العوام والخواص ؟

إن الاخلاص هو الذى مكن البوصيرى من ناصية المجد الأدبى ، وهو الذى رفعه إلى منزلة الخلود .



(١) جميع هذه البديعيات محفوظة بدار الكتب المصرية وأكثرها بقسم البلاغة ، وقد تكون هناك بديعيات أخرى لم تعرفها دار الكتب المصرية .

الفصل الحادى عشر

بديعية ابن حجة الحموى^(١)

موجز ترجمة الحموى — خزانة الأدب — كيف نظم الحموى
بديعته — اهتمامه بالمدايح النبوية — زموه واختياله — أحكام
ذوقية -- نظراته فى النقد — نموذج من نثره — أهمية خزانة
الأدب — نقد بديعية الحموى .

١ — ولد أبو بكر تقي الدين بن على بن عبدالله الحموى الأززارى^(٢) فى
حماة سنة ٧٦٧، وتوفى بها سنة ٨٣٧، وقد زار القاهرة واتصل بعلمائها وشعرائها
وله فى ذلك رسائل وأخبار يجردها القارئ مفرقة فى كتابه : (خزانة الأدب)
الذى طبع بمطبعة بولاق سنة ١٣٣٧ هـ .

٢ — ترك ابن حجة طائفة من المؤلفات أكثرها موجود ، بين مطبوع
ومخطوط^(٣)، والذى يهمنا هو قصيدته البديعية وشرحها الذى سماه : (خزانة
الأدب) ، وتلك القصيدة وذلك الشرح أهمية عظيمة ، أما القصيدة فلجودتها

(١) أهمية هذا الفصل ترجع إلى ما فيه من بيان أثر البديعيات فى الفنون الأدبية ، والبديعيات فرع
من المدايح النبوية ، والأدب عليها أغلب .

(٢) الأززارى : لقب غلب عليه ، لأنه كان اتخذ عمل الحرير وعقد الأزرار صناعة له فى صباه .

(٣) انظر كتاب الاعلام للأستاذ خير الدين الزركلى ج ١ ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

بين البديعيات ، وأما الشرح فلجمعه طرائف كثيرة من أدب القرن الثامن ،
وتكاد خزانة الأدب تعدّ من أجل ما صنف في ذلك العهد ، ولا يوازيها في
الجمال إلا شرح لامية العجم للصفدى ، فهذان المصنفان جمعا أخباراً كثيرة
من أدب القرن الثامن ، وهو في الواقع أدب هزيل ، ولكن مؤرخ الأدب
يحتاج إلى التعرف إلى جميع الفنون الأدبية ، الفث منها والسمين .

ومن غريب ما لاحظت أننى أجد أنساً بهذين الكتائين قد لا أجدّه عند
قراءة كتاب الأغاني ، وقد جهدت في تعليل ذلك ، ثم تبينت أن غرابة هذا
الأدب من أسباب جاذبيته ، فأكثر ما درسناه وما تلقيناه عن الأساتذة
لا يكاد يخرج عما صنف في العصور الذهبية ، ولو شئت لأضفت إلى ذلك أن
هذين المصنفين يهتمان في الأغلب بأدب أهل مصر ، وأهل الشام ، ومزاج
الأدب المصرى مكوّن من هذين الأديين ، فلا بدع أن يجد عند الحموى
والصفدى روحاً لا يجدّه عند الأصفهاني .

٣ - يحدثنا الحموى في صدر «خزانة الأدب» عن الظروف التي نظم فيها
بديعته فيقول :

« وبعد فهذه البديعة التي نسجتها بمدحه صلى الله عليه وسلم على منوال
(طرز البردة) كان مولانا المقرّ الأشرف العالى المولوى القاضى المخدومى
الناصرى سيدى محمد بن البارزى الجهنى الشافعى صاحب ديوان الانشاء
الشريف بالممالك الاسلامية المحروسة - جل الله الوجود بوجوده - هو الذى
ثقف لى هذه الصعده ، وحلب لى ضرعها الحافل لحصول هذه الزبده ، وما ذاك
إلا أنه وقف بدمشق المحروسة على قصيدة بديعية للشيخ عز الدين الموصلى رحمه

الله تعالى التزم فيها بتسمية النوع البديعي ، وورّى بها من جنس الغزل لتمييز ذلك على الشيخ صفيّ الدين الحلي ، تعمد الله تعالى برحمته ، لأنه ما التزم في بديعيته بحمل هذا العبء الثقيل . غير أن الشيخ عز الدين ما أعرب عن بناء بيوت أذن الله أن ترفع ، ولا طالت يده لابهام العقادة إلى شيء من إشارات ابن أبي الأصبع ، وربما رضى في الغالب بتسمية النوع ، ولم يعرب عن المسمى وثر شمل الألفاظ والمعاني لشدة ماعقده نظما . فاستخار الله مولانا الناصري المشار إليه ، ورسم لي بنظم قصيدة أطرز حلتها ببديع هذا الالتزام ، وأجاري الحلي برقة السحر الحلال الذي ينفت في عقد الأقلام ، فصرت أشيد البيت ، فيرسم لي بهدمه ، وخراب البيوت في هذا البناء صعب على الناس ، ويقول بيت الصفيّ أصنى مورداً ، وأنور اقتباس ، فأسنّ كل ما حده الفكر ، وأراجعه بيت له على المناظرة طاقة ، فيحكم لي بالسبق وينقلني إلى غيره وقد صار لي فكرة إلى الغايات سباقة ، فجاءت بديعية هدمت بها ما نحتته الموصلى في بيوته من الجبال ، وجاريت الصفيّ مقيداً بتسمية النوع وهو من ذلك محلل العقال « وفي هذه الكلمات تصريح بأن نظم البديعية كان مما اقترحه الفقيه الكاتب محمد بن البارزى بعد أن وقف بدمشق على بديعية عز الدين الموصلى وفيها أيضاً تعريف بالطريقة التي نظمت بها البديعية ، فقد كان الحموى ينظم والبارزى ينقد ، وكانت المفاضلة بين بديعية الموصلى والحلى والحموى مما يهتم به ذلك الفقيه الأديب ، فكان لا يسمح للناظم بالانتقال من بيت إلى بيت إلا بعد الاطمئنان إلى تفوقه على الموصلى والحلى ، وذلك كله يبين ما في بديعية الحموى من التكلف والافتعال .

٤ - والحموى - وإن نظم البديعية إجابة لاقتراح البارزى - كان من المولعين بنظم المدائح النبوية ، وله فى ذلك قصيدة اسمها : (أمان الخائف) قال فى أولها :

شدت بكمُ المشاقُ لما تَرَمَّوْا ففَعَّرُوا وَقَدْ طَابَ المَقَامُ وَزَمَزَمُ
وضاعَ شذاكمُ بينَ سَلْعٍ وَحَاجِرٍ فَكَانَ دَلِيلَ الطَّاعِنِينَ إِلَيْكُمْ
وَجُزْئُكُمْ بِوَادِى الْجَزَعِ فَأَخْضَرُوا التَّوَى عَلَى خَدِّهِ بِاللَّبَتِ صُدْغٌ مُنْعَمُ
وَلَمَّا رَوَى أَخْبَارَ نَشْرِ ثُغُورِكُمْ أَرَاكَ الحِمَى جَاءَ الهَوَى يَتَنَسَّمُ
ومنها :

فِيَا عَرَبَ الوَادِى الْمَنِيْعِ حِجَابُهُ وَأَغْنِي بِهٖ قَلْبِي الَّذِى فِيهِ خَيَمُوا
رَفَعْتُمْ قِيَابًا نَصَبَ عَيْنِي وَنَحَوَهَا تَجَرُّ ذُيُولَ الشَّوْقِ وَالْقَلْبُ يَجْزِمُ^(١)
وَيَا مَنْ أَمَانُونَا أَشْتَدَّ أَفَاكًا وَصَيَّرُوا مَدَامِعَنَا غُسْلًا لَنَا وَتَيَمَّمُوا
مَنْعَتُمْ تَحِيَّاتِ السَّلَامِ لِمَوْتِنَا غَرَامًا وَقَدْ مِتْنَا فَصَلُّوا وَسَلِّمُوا
يَقُولُونَ لِي فِي الْحَيِّ أَيْنَ قِيَابُهُمْ وَمَنْ هُمْ مِنَ السَّادَاتِ قُلْتُ هُمْ هُمْ
عَرِيبٌ لَهُمْ طَرَفٌ فِي خِيَابِهِ مُطَنَّبٌ بِدَمْعِي وَقَلْبِي نَارُهُمْ حِينَ تُضْرَمُ
أُورَى بِذِكْرِ الْبَاكِ وَالرَّيْدِ وَالنَّقَا وَسَفَحِ اللَّوَى وَالْجَزَعِ وَالْقَصْدِ أَنْتُمْ

وفىها يقول فى التخلص إلى مدح الرسول :

(١) لاحظ ما فى هذا البيت من الأخيلة ، النحوية ولاحظ ما فى الآيات التالية من الأخيلة الفقهية .

تَقَمَّنتُ فِي حُبِّي لَهُمْ فَتَمَصَّبُوا عَلَى وَهُمْ سَاذَاتُ مَنْ قَدْ تَلَثَّمُوا
لَهُمْ حَسَبُ عَالٍ يَبْطَحَاءُ مَكَّةَ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ فِي الْأَصْلِ مِنْهُمْ

ويقول في ختام هذه القصيدة :

عَسَى وَفَقَّةٌ أَوْ قَعْدَةٌ لِأَبْنِ حِجَّةٍ عَلَى بَابِكُمْ يَسْعَى بِهَا وَهوَ مُحْرِمٌ
فَقَدْ جَاءَ بِشَكْوَى مِنْ دُؤُوبٍ تَعَاظَمَتْ وَقَدْرُكَ فِي يَوْمِ الشَّفَاعَةِ أَعْظَمُ
وَقَدْ نَالَهُ فِي عُنْفُوَانٍ شَبَابِهِ هُمُومٌ وَسَيْفُ الْهَمِّ لِلظَّهْرِ يَقْصِمُ
وَعَارِضُهُ قَدْ شَابَ فِي زَمَنِ الصَّبَا عَسَى بِكَ مِنْ ذَا الْعَارِضِ الصَّعْبِ يَسْلَمُ
فِيَا وَرَدْنَا الصَّافِي طُبُورُ قُلُوبِنَا عَلَيْكَ إِذَا مَا نَابَهَا الضِّيمُ حُومٌ
عَلَيْكَ سَلَامٌ نَشْرُهُ كُلَّمَا بَدَا بِهِ يَتَعَالَى الطَّيِّبُ وَالْمِسْكُ يَخْتِمُ

ولم تقف على هذه القصيدة كاملة ، وما أثبتناه هنا ليس إلا شذرات جمعناها مما تفرق منها في خزانة الأدب ، ولم نشر إلى هذه القصيدة إلا لندل على أن الحموى كان يتجه إلى هذا الفن ، فان بديعته لم توضع في الأصل لمدح الرسول ، وإنما هي قصيدة فنية مدح بها النبي مدحا صناعيا لتلحق بأمثالها من البديعيات ، ويان ذلك أن الشاعر لم يكن يهيمه عند نظم البيت أن يبلغ مبالغ الصادقين في مدح الرسول ، وإنما كان يهيمه أن يجيد الافصاح عما يقصد إليه من فنون البديع ، وآية ذلك أنه لم يهتم في شرح البديعية بشيء يذكر من السيرة النبوية وإنما وقف عند الفنون البديعية ، ومجاراته للموصلى والحلى وقفت أيضاً عند هذه الغاية ، فلم ينظر فيها إلى المدح كما نظر إلى الفن ، أعنى علم البديع .
والخلاصة أن خزانة الأدب ، وهي مجلد ضخيم يقع في ٥٧٠ صفحة من القطع

الكبير ، لا يمكن على الإطلاق أن تعدّ كتاباً في السيرة أو الشمايل النبوية ، إنما هي كتاب في الأدب الصرف الذي قام على أساس المحسنات البديعية . ولم يفت هذا مصنفى فهارس دار الكتب المصرية ، فقد وضعوها في فهرس البلاغة ، ولم يرد لها ذكر في فهرس الأدب ولا فهرس التاريخ :

٥ - والحموى في خزائنه يزهو بنفسه ويختال ، وهو يذكّر بابن الأثير في كتاب المثل السائر ، وإن كان ابن الأثير بالنسبة إليه من المتواضعين ، وزهو الحموى يدلنا على أن النقد في عصره لم يكن قويا ، ولو كان للنقد في زمانه سلطان لما أسرف في الاختيال . وإلى القارئ بعض الشواهد :

١ - قال في براعة المطلع :

« وأذكرني ميار بحسن براعته ما كتبت به إلى سيدنا ومولانا قاضى القضاة : صدر الدين ، ملك المتأدين ، أبى الحسن على بن الآدى وهى رسالة مشتملة على نظم وثر ، فصدرت الجواب بقصيدة ترفل في حلل النسيب على طريق ميار ، وكلها براعة استهلال ، أولها :

وَصَلَّتْ وَلَكِنْ بَعْدَ طَوْلٍ تَشْوِيقٍ وَدَنْتُ وَقَدْ رَقَّتْ لِقَلْبِي انْشِقَاقٌ

وما أحلى ماقلت بعده :

فَتَمَلَّيْتُ مِنْ طَرَبٍ بِرَجْعِ حَدِيثِهَا فَكَأَنَّمَا قَدْ نَادَمْتُ بِمُعْتَقِي^(١)

ب - وقال في الحديث عن إحدى قصائده النبوية :

« ومن أَلطف الإشارات إلى أن هذا التنزل صدر قصيدة نبوية قولى :

أَوْرَى بِذِكْرِ الْبَاكِ وَالرَّيْدِ وَالنَّقَا
وَسَفَحِ اللَّوَى وَالْجَزْعِ وَالْقَصْدِ أَنْتُمْ

ولم أزل في براعة الاستهلال أستهل أهلة هذه المعاني إلى أن وصلت إلى حسن التلخيص» ^(١).

ج - وقال في تفضيل بديعته :

« وأما براعة بديعتي ، فانها ببركة ممدوحها صلى الله عليه وسلم نور هذه المطالع ، وقبلة هذا الكلام الجامع ، فاني جمعت فيها بين براعة الاستهلال ، وحسن الابتداء بالشرط المقرر لكل منهما ، وأبرزت تسمية نوعها البديعي في أحسن قوالب التورية ، وشفت بأقراط غزلها الأسماع . الخ » ^(٢).

د - وقال يتحدث عن إحدى قصائده :

« وقلت بعد المطلع أخاطب النسيم بما هو أرق منه » ^(٣) :

ه - ويقول عن بعض مؤلفاته :

« وقد عنّ لي أن أورد هنا ما سارت في الخافقين حكمه وأمثاله ، وأنقاد أهل الذوق السليم لطاعته لما ورد عليهم مثاله ، وهو تأليني الذي وسمته بتغريد الصادح » ^(٤).

ولهذه الكلمات نظائر كثيرة في خزانة الأدب ، وأرجو أن لا يضجر القارئ من هذا الزهو ، فهو صورة نفسية لشاعر ، وكاتب ، ومؤلف كان في زمانه من الأعلام ، وليست مهمة الباحث أن يقدم مايروق ، ولكن مهمته أن يقيّد المحاسن والعيوب .

(١) ص ١٥ . (٢) ص ١٦ . (٣) ص ٣٩ . (٤) ص ١١٧ .

٦ - وللحموى أحكام ذوقية وأدبية لا تقبلها اليوم ، فهو مثلاً يستعذب هذا البيت :

يَزِيدُ الْهَوَى دَمْعِي وَفَأَبِي الْمَعْنَفُ وَيُخَيِّجُنِي الْوَجْدُ وَهُوَ الْمَكْلَفُ^(١)
ويستجيد هذا البيت :

أَخْرَجَ حَدِيثَكَ مِنْ سَمْعِي فَمَا دَخَلَ لَا تَزِمِ بِالْقَوْلِ سَهْمًا رُبَّمَا قَتَلَ
وفي التعليق على هذا المطلع :

زَارَ الصَّبَاحُ فَكَيْفَ حَالُكَ يَا دُجِي قُمْ فَاسْتَدِمَّ بِفِرْعِهِ أَوْ فَالْتَجَا
يقول : « انظر إلى حسن هذا الابتداء ، كيف جمع مع اجتناب الحشو بين رقة النسيب ، وطرب النشيب ، وتناسب القسمين ، وغرابة المعنى ! »^(٢) .
ويرى مطلع ابن نباتة :

مَا بَثَّ فِيكَ بِدَمْعٍ عَيْنِي أَشْرَقُ إِلَّا وَأَنْتَ مِنَ الْغَزَالَةِ أَشْرَقُ
أجود من مطلع المتنبي :

أَرْقُ عَلَى أَرْقٍ وَمِثْلِي يَأْرُقُ وَجَوَى يَزِيدُ وَعَبْرَةٌ تَتَرَقُّ

٧ - وله مع هذا نظرات دقيقة في النقد ، من ذلك إنكاره أن يستهل ابن نباتة الخطيب خطبته في وفاة النبي بقوله : « الحمد لله المنتقم من خالفه ، المهلك من آسفه »^(٣) ، وإن لم يكن أول من أنكر هذا الاستهلال . ومن ذلك

أيضاً استكراه الجناس إذ يقول : « أما الجناس فانه غير مذهبي ، ومذهب من نسجت على منواله من أهل الأدب ، وكذلك كثرة اشتقاق الألفاظ ، فان كلا منهما يؤدي إلى العقادة ، والتقيد عن إطلاق عنان البلاغة في مضمار المعاني المبتكرة »^(١) .

ويقول فيمن يؤثرون الجناس :

« ولم يحتج إليه بكثرة استعماله إلا من قصرت همته عن اختراع المعاني التي هي كالنجوم الزاهرة في أفق الألفاظ ، وإذا خلت بيوت الألفاظ من سكان المعاني تنزلت منزلة الأطلال البالية »^(٢) .

وهو يرى - كما رأى ابن جني من قبله بأجيال - أن المؤتدين يستشهد بهم في المعاني كما يستشهد بالقدماء في الألفاظ ، ويؤكد أن لكل زمان بديعاً ، وأنه « ما ربيع الآخر من ربيع الأول بعيد »^(٣) .

واهتمامه بتدوين ما أثر عن أهل زمانه يؤيد هذا الرأي ، فهو يوجز حين يستشهد بكلام القدماء ، ويطنب حين يستشهد بكلام المحدثين .

٨ - أما ثر الحموى فهو مملوء بالصنعة والزخرف ، وفيه إشارات كثيرة إلى مصطلحات النحو والفقه والعروض ، ويكفي هذا الشاهد في وصف البحر حين ركبه من الشام إلى مصر سنة ٨٠٢ .

« وأبئك ما لاقيت من أهوال البحر ، وأحدث عنه ولا حرج ، فكم وقع المملوك من أعاريضه في زحاف تقطع منه القلب لما دخل إلى دوائر تلك اللجج وشاهدت منه - لظاناً جائراً يأخذ كل سفينة غصباً ، ونظرت إلى الجوارى

(١) ص ٢٥ . (٢) ص ٢٦ ، وانظر كلامه عن التقويف ص ١٤٠ . (٣) ص ٥ .

الحسان ، وقد رمت أزر قلعها وهى بين يديه لقله رجالها تسبى ، فتحققت أن رأى من جاء يسعى فى الفلك غير صائب ، واستصوبت هنا رأى من جاء يعشى وهو راكب ، وزاد الظمأ بالملوك وقد اتخذ فى البحر سبيله ، وقد قلت من شدة الظمأ : ياترى قبل الحفرة أطوى من البحر هذه الشقة الطويلة !

وَهَلْ أَبَا كِرْ بِحَجَرِ النَّيْلِ مُنْشَرِحًا وَأَشْرَبُ الْخُلُومِ مِنْ أَكْوَابِ مَلَّاحٍ؟

بحر تلاطمت علينا أمواجه حتى متنا من الخوف ، وحملنا على نعش الغراب ، وقامت واوات دوائره مقام مع فنصبنا للغرق لما استوت المياه والأخشاب ، وقارن العبد فيه سوداء استرقت مواليها وهى جارية ، وغشيه منها فى اليمّ ماغشيه ، فهل أذاك حديث العاشية ، واقعها الريح فملت بنا ، ودخلها الماء نجاءها المخاض ، وانشق قلبها لفقد رجالها ، وجرى ما جرى على ذلك القلب ففاض ، وتوشجت بالسواد فى هذا المأتم ، وسارت على البحر وهى مثل ، وكم سمع فيها للمغاربة على ذلك التوشيح زجل ، إن تقر الموج على دفوفها لعبت أنامل قلعها بالعود ، وترقصنا على آلتها الحدياء فتقوم قيامتنا من هذا الرقص الخارج ونحن قعود ، وتتشام وهى كما قيل : أنف فى السماء وأست فى الماء ، وكم تطيل الشكوى إلى قامة صاريها عند الميل وهى الصعدة الصماء ، فيها الهدى وليس لها عقل ولا دين ، وتتصايب إذا هبت الصبا وهى ابنة مائة وثمانين ، وتوقف أحوال القوم ، وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ، وتدعى براءة الذمة ، وكم أغرقت لهم من أموال . هذا وكم ضعف نخيل خصرها عن تناقل أرداف الأمواج ، وكم وجلت القلوب لما صار لأهداب مجاديفها على مقلة

البحر اختلاج ، وكم أسبلت على وجنة البحر طرة قلعها فبالغ الريح في تشويشها
وكم مرّ على قريتها العامرة فتركها وهي خاوية على عروشها ... الخ» (١) .
وتلك كتابة كثيرة الاقتان ، ولكنها قليلة المحصول .

٩ - قلت : إن خزانة الأدب تمتاز بجمعها لطرائف كثيرة من أدب القرن
الثامن ، فلنذكر من شواهد ذلك ما أشار إليه المؤلف من معاني ابن نباتة التي
أخذها الصلاح الصفدى . قال ابن نباتة :

وَمَوْلَعٌ بِفَخَّاحٍ يَمْدُهَا وَشِبَاكِ
قَالَتْ لِي الْإِئْتِنُ مَاذَا يَصِيدُ قُلْتُ كَرَّاكِ

أخذه الصفدى فقال :

أَفَارَ عَلَى سَرَحٍ الْكَرَى عِنْدَ مَا رَمَى الْكَرَّاكِ غَزَالٌ لِلْبُدُورِ يُحَاكِ
فَقُلْتُ أُرْجِعِي يَا عَيْنُ عَنْ وَرْدٍ حُسْنِهِ أَلَمْ تَنْظُرِيهِ كَيْفَ صَادَ كَرَّاكِ
وقال ابن نباتة :

اسْعُدِيهَا يَا قَمْرِي بَرْزَةٍ سَمِيدَةٍ الطَّالِعِ وَالْغَارِبِ
صَرَغْتَ طَيْرًا وَسَكَنْتِ الْحَشَا فَمَا تَعْدَيْتِ عَنِ الْوَاجِبِ

أخذه الصفدى فقال :

قُلْتُ لَهُ وَالطَّيْرُ مِنْ فَوْقِهِ يَصْرَعُهُ بِالْبُنْدُقِ الصَّائِبِ
سَكَنْتَ فِي قَلْبِي فَحَرَّ كَتَهُ فَقَالَ لَمْ أَخْرُجْ عَنِ الْوَاجِبِ

وقال ابن نباتة :

وَبِمُهْجَتِي رَشَا يَمِيسَ قَوَامُهُ فَكَأَنَّهُ نَشْوَانُ مِنْ شَفَتَيْهِ
شُفِّفَ الْمِدَارُ بِحَدِّهِ وَرَأَهُ قَدْ نَمَتَ لَوَاحِظُهُ فَدَبَّ عَلَيْهِ

أخذه الصفدى فقال :

وَأَهْيَفَ كَالْغُصْنِ الرَّطِيبِ إِذَا انْقَنَى تَمِيلُ حَمَامَاتُ الْأَرَاكِ إِلَيْهِ
لَهُ عَارِضٌ لَمَّا رَأَى الطَّرْفَ نَاعِيسًا أَتَى خَدَّهُ سِرًّا فَدَبَّ عَلَيْهِ

وقال ابن نباتة :

بِرُوحِي عَاطِرِ الْأَنْفَاسِ أَلَمَى مَلَى الْحُسْنِ حَالِي الْوَجْنَتَيْنِ
أَهُ خَالَانٍ فِي دِينَارٍ خَدَّ تُبَاعُ بِهِ الْقُلُوبُ بِحَبَّتَيْنِ

أخذه الصفدى فقال :

بِرُوحِي خَدَّهُ الْمُحَمَّرَ أَضْحَتَ عَلَيْهِ شَاكِمَةٌ شَرَطَ الْمَحَبَّةَ
كَأَنَّ الْحُسْنَ يَعْشَقُهُ قَدِيمًا فَتَقَطُّهُ بِدِينَارٍ وَحَبَّةٍ

ولما وقف ابن نباتة على هذين البيتين قال : لا إله إلا الله ! الشيخ صلاح الدين سرق - كما يقال - من الحبطين حبة !

ولهذا الحديث بقية يجدها القارىء في ص ٣٤٨ و ٣٥١ من خزانة الأدب ، وهو في الأصل منقول عن كُتَيْب لابن نباتة اسمه : (خبز الشعير) .

ودرس كتاب الحموى يعطى صوراً كثيرة من أدب القرن الثامن ،

والمؤلف يدون أخبار ذلك العهد في حماسة قوية تمثل إعجابه بأدب الصنعة في تلك الأيام .

ويزيد في قيمة ما في هذا الكتاب من فنون الاستطراد أنه يتحدث عن علماء وشعراء وكتاب لم يبق من آثارهم إلا القليل .

١٠ - وفي هذه الخزانة ألفاظ تستحق الدرس . من ذلك لفظة « أنفعل » في الصفحة الخامسة إذ يقول المؤلف :

« وأما قصة إسحق بن إبراهيم الموصلي في هذا الباب فاني أنفعل وأخجل عند سماعها » ، ولفظة : « استهلتها » في ص ٢٣ ، والصواب « استهلتها » وليست غلطة مطبعية ، بل هي من غلط المؤلف . بدليل أنها لاتزال مستعملة في الأزهر إذ يقول الأشياخ في دروس البيان : « اشتقينا » في مكان « اشتقنا » واللغة العامية تؤيد هذا الغلط ، فالتاس يقولون مثلاً : « استقلينا هذه الكمية » ويندر أن يفكوا إدغام المثلين .

وكلمة « لالا » في ص ٣٠ إذ يقول المؤلف : ومثله قول الشيخ شمس الدين المنزين في غلام مليح ، وله « لالا » مليح :

وَمَلِيحٍ لَالَاهُ يَخْكِيهِ حُسْنًا فَهُوَ كَالْبَدْرِ فِي الدُّجَى يَتَلَا
قُلْتُ قَصْدِي مِنَ الْأَنَامِ مَلِيحٌ هَكَذَا هَكَذَا وَإِلَّا فَلَا

وكلمة « سافل » يكثر ورودها في الخزانة بمعنى ضعيف كقوله : « يشير إلى تقریظ كتبه لبعض أهل الأدب على مصنف سافل » ، وهي تقابل كلمة :

interieur الفرنسية . وكانت في ذلك الحين كلمة خفيفة . وهي اليوم من صور السباب .



١١ -- إلى هنا عرف القارئ أشياء عن ابن حجة ، وعن كتابه : (خزنة الأدب) فلنأخذ في نقد بديعته في مدح الرسول ، وهي تقع في اثنين وأربعين ومائة بيت ، وهو عدد ما اهتم بعرضه من ضروب البديع ، وهذه المناسبة العددية بين آيات القصيدة وبين الفنون البديعية ترينا أن المؤلف لم يهتم بالمدح النبوي اهتمامه بالبديع ، وإن كان لا يزال يتذكر أن قصيدته مدحة نبوية فقد رأيناه يقول : إنها ببركة مدوحها نور هذه المطالع .

وإعجاب الحموى بقصيدته لا يمنعنا من القول بخلوها من النفحات الشعرية فليست إلا منظومة تذكر بأمثالها من منظومات « المتون » . وأهميتها ترجع إلى الناحية التعليمية ، ولنسارع فنختبر النسيب في هذه البديعية .

لِي فِي أَبَدًا مَدْحِكُمْ يَا عَزَبَ ذِي سَلَمٍ	بَرَاةٌ تَسْتَهْلُ الدَّمْعَ فِي الْعَلَمِ
يَا لَلَّهِ سِرِّي فَيَسِّرْ لِي طَلْقُوا وَطَنِي	وَرَكَّبُوا فِي ضُلُوعِي مُطْلَقَ السَّقَمِ
وَرُمْتُ تَلْفِيْقَ صَبْرِي كَيْ أَرَى قَدَمِي	يَسْعَى مَعِيَ فَسَعَى لَكِنْ أَرَا قَدَمِي
وَذَيْلُ الْهَمِّ هَمْلُ الدَّمْعِ لِي جَرَى	كَلَّا حَقِ الْغَيْثِ حَيْثُ الْأَرْضُ فِي ضَرَمِ
يَا سَعْدُ مَا تَمَّ لِي سَعْدُ يُطَرِّفُنِي	بِقُرْبِهِمْ وَقَلِيلُ الْحِظِّ لَمْ يُكَلِّمْ
هَلْ مِنْ يَنِي وَيَقِي إِنْ صَحَّفُوا عَذْلِي	وَحَرَّفُوا وَأَتَوْا بِالْكَلِمِ فِي الْكَلِمِ
قَدْ فَاضَ دَمْعِي وَفَاطَ الْقَلْبُ إِذْ سَمِعَا	لَقَطِي عَذْلِي مَلَا الْأَسْمَاعَ بِالْأَلَمِ

أَبَا مُمَازٍ أَخَا الْخَنَسَاءِ كُنْتَ لَهُمْ يَا مَعْنَوِي فَهَدُونِي بِحُورِهِمْ
 يكنى هذا للاستشهاد ، فنسب القصيدة كله من هذا القبيل ، والمهم أن ندل
 القارئ على قيمة هذا النسب ، فهل رأى فيه معنى جيدا ، أو لفظا طريفاً ؟
 وهل يمكن الربط بين المعاني في أمثال هذه الأبيات ؟ إن الشاعر نفسه لم
 يشرح معانيها في كتابه ، لأنه لم يرد بها التشبيب ، وإنما وقف عند ما قصد إليه
 من ضروب البديع ، وهو نفسه حين فاضل بين أبياته وأبيات الموصلي والحلي لم
 يتحدث عن معاني النسب ، وإنما تحدث عن تأدية الفنون البديعية . والصنعة
 تظهر بصورة أوضح في مثل هذين البيتين في مخاطبة المذول :

يَا عَاذِلِي أَنْتَ مَحْبُوبٌ لَدَيَّ فَلَا تُوَارِبِ الْعَقْلَ مِنِّي وَأَسْتَفِدْ حِكْمِي
 جَمْعُ الْكَلَامِ إِذَا لَمْ تُغْنِ حِكْمَتُهُ وَجُودُهُ عِنْدَ أَهْلِ الذَّوْقِ كَالْمَدَمِ

فالبيت الأول تكلفه الشاعر ليشير إلى المواربة ، والبيت الثاني حكمة مفتعلة
 أشار بها إلى الكلام الجامع . وأظهر من هذين في العمل قوله في التذييل
 والتفوييف :

وَاللَّهِ مَا طَالَ تَذِيلُ الْلِقَاءِ بِهِمْ يَا عَاذِلِي وَكَفَى بِاللَّهِ فِي الْقَسَمِ
 خَشْنُ الْإِنْحِزَانِ أَفْرَحَ أَمْنَعِ اعْطِ أَنْلَ فَوَفَّ أَجْدَ وَشَّ رَقْنٍ شَدَّ حُبٍّ لَمْ

ولا موجب للوم الشاعر على هذا الكلام الثقيل ، فقد أنصف من نفسه حين
 قال في شرح البيت الثاني :

« التفوييف تأملته ، فوجدته نوعا لم يفد غير إرشاد ناظمه إلى طريق
 العقادة ، والشاعر إذا كان معنويا وتجشم مشاقه تقصر يده عن التطاول إلى

اختراع معنى من المعانى الغريبة وتحفوه حسان الألفاظ ، ولم يعطف عليه برقة ،
وتأنف كل قرينة صالحة أن تسكن له بيتاً » .

ومعنى هذا أنه لم يقصد بنظمه غير التمثيل للنوع البديعى ، أما هو فلا يراه
من ألوان البيان ، ولكن هذا الشرح وما فيه من تكلف التخيل جاء أثقل من
التفوييف !

ومما يؤكد أن الصنعة هي المقصودة من هذه المنظومات أن الحموى عاب
قول الحلى :

لَا تَقْبَلْنِي الْمَعَالِي بِإِنِّ بَحْدَتِهَا يَوْمَ الْفَخَارِ وَلَا بَرَّ الثَّقَى قَسَمِي

وقال : « فيه نقص ، لأنه غير صالح للتجريد ، ولم يأت ناظمه بجواب القسم إلا
في بيت الاستعارة الذى ترتب بعده ، وهو :

إِنْ لَمْ أَحُثْ مَطَايَا الْعَزْمِ مُثْقَلَةً مِنْ الْقَوَافِي تَوْثُمُ الْمَجْدَةِ عَنْ أُنْمِ

وأصحاب البديعيات شرطوا أن يكون كل بيت شاهداً على نوعه بمجرد ، وإذا
كان البيت له تعلق بما بعده أو بما قبله لا يصلح أن يكون شاهداً على ذلك
النوع » (١) .

وهو بهذا التعقب يدلنا على أن أصحاب البديعيات كانت لهم تقاليد ، منها
أن يكون كل بيت شاهداً على نوعه بمجرد ، ولا ندرى كيف لا يصلح البيت
أن يكون شاهداً على النوع المقصود إذا كان له تعلق بما بعده أو بما قبله ، إن
ذلك لمظهر جديد من تكلف أصحاب البديعيات .

١٢ - فاذا تجاوزنا النسب إلى المديح رأيناها يتخلص فيقول :

وَمَنْ غَدَا قَسْمُهُ التَّشْبِيبُ فِي غَزَلٍ حُسْنُ التَّخْلِصِ بِالْمُخْتَارِ مِنْ قِسْمِي
مُحَمَّدُ ابْنُ الدَّيَّحِينَ الْأَمِينُ أَبُو الْبَتُولِ خَيْرُ نَبِيٍّ فِي أَطْرَادِهِمْ
عَيْنُ الْكَمَالِ كَمَالُ الْأَمِينِ رُوَيْدُهُ يَاعَكْسَ طَرْفٍ مِنَ الْكُفَّارِ عَنْهُ عَمِي
أَبْدَى الْبَدِيعُ لَهُ الْوَصْفُ الْبَدِيعُ وَفِي نَظْمِ الْبَدِيعِ حَلَا تَرْدِيدُهُ بِفَمِي
كَرَّرْتُ مَدْحِي حَلَا فِي الزَّائِدِ الْكَرَمِ أَبَدِ

بِزَيْنِ الزَّائِدِ الْكَرَمِ ابْنِ الزَّائِدِ الْكَرَمِ

وهذه القطعة تكفي لبيان ما في هذا المديح من تكلف ، وهو مديح غير مقصود لذاته ، وإنما أريد به الوصول إلى عرض فنون البديع ، فالبيت الأول في التخلص ، والثاني في الاطراد ، والثالث في العكس ، والرابع في الترديد والخامس في التكرار ، فالناظم يلتزم كلمة خاصة في كل بيت ، ويلتزم بجانب ذلك التمثيل ، وهذا وذاك من موجبات التكلف والافتعال ، والقصيدة كلها على هذا النمط فلا موجب للاسهاب .



الفصل الثانى عشر

مدائح ابن نباتة المصرى

موجز ترجمة ابن نباتة — غلبة البدیع على شعره — تحليل
الهمزية — تحليل الرائية — تحليل العينية — تحليل
اللامية — نقد المبية — خلاصة القول فى مدائح ابن نباتة .

١ — ابن نباتة المصرى جمال الدين محمد بن محمد : شاعر مكثّر من شعراء القرن الثامن ، ولد بالقاهرة فى زقاق القناديل فى ربيع الأوّل سنة ٦٨٦ ، وتوفى يوم الثلاثاء من صفر سنة ٧٦٨ بالبيمارستان المنصورى ، ودفن خارج باب النصر بتربة الصوفية . ولتنبه القارىء إلى كلمة (تربة الصوفية) فهى من الدلائل على غلبة التصوف فى ذلك الزمان .

٢ — وأهم ما ترك ابن نباتة فى المدائح النبوية خمس قصائد ، الأولى همزية مطلعها :

شَجُونٌ نَحْوَهَا الْعُشَّاقُ فَاءُهَا وَصَبٌّ مَالَهُ فِي الصَّبْرِ رَاءُ

والثانية رائية ومطلعها :

صَحَا الْقَلْبُ لَوْلَا نَسْمَةٌ تَخْطُرُ وَلَمَعَةُ بَرْقٍ بِالْفَضَا تَتَسَعَّرُ

والثالثة عينية ، ومطلعها :

يَا ذَارَ جِيرَتِنَا بِسَفْحِ الْأَجْرَعِ ذَكَرَتْكَ أَفْوَاهُ الْغُبُوثِ الْهَمْعِ

والرابعة لامية ، ومطلعها :

مَا الظَّرْفُ بَعْدَكُمْ بِالنُّومِ مَكْحُولُ هَذَا وَكَمْ يَبْتَنَّا مِنْ رَبْعِكُمْ مِيلُ

والخامسة ميمية ، ومطلعها :

أَوْجَزُ مَدِيحِكَ فَأَلَمَّ قَامُ عَظِيمُ مِنْ دُونِهِ الْمَثُورُ وَالْمَنْظُومُ

٣ - وهذه المدائح كسائر شعر ابن نباتة تغلب عليها فنون البديع ، وكانت هذه الفنون غلبت على الشعر كله في تلك الأيام ، فلا ينس القارىء أن هذا كان منتهى البلاغة عند شعراء القرن الثامن ، وليتذكر أن موقفنا من هذه الفنون ليس موقف اللائم ، ولكنه موقف المؤرخ ، وما نستعجبه اليوم من هذه الفنون كان الظفر بنكتة منه غاية ما يصبو إليه كبار الشعراء في ذلك الحين .

٤ - تقع الحمزية في تسعة وستين بيتاً ، منها ستة عشر في النسيب ، والنسيب في هذه القصيدة تأفه ، والشاعر يشرح بالنكتة النظرية كأن يقول :

وَلَا حَـيْ مَا لَهُ هَالَهُ وَمِمِّ لَهُ مِنْ صَبَوْتِي مِمِّ وَهَاءُ

ويسره أن يغرب في التشبيه ، فيقول :

كَأَنَّ الْحُبَّ دَائِرَةٌ يَقْلِبِي خَفِيتُ الْإِنْتِهَاءَ الْإِبْتِدَاءَ

ومدح النبي في هذه القصيدة تافه أيضاً ، فهو يتحدث عن نار المجوس كما تحدث
سواه فيقول :

وَفِي نَارِ الْمَجُوسِ لَنَا دَلِيلٌ لِأَنفُسِهِمْ بِهَا وَلَهَا أَنْطِفَاءُ

ويتوهم أن ناسا ينكرون ذلك فيقول :

فَقُلْ لِلْمُتَّحِدِينَ تَنْقُلُوها جَعِيماً إِنَّا مِنْكُمْ بَرَاءُ
وَإِنْ أَبِي وَوَالِدُهُ وَعَرَضِي لِعَرَضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ

وفي هذا ما يشعر بأنه كان يعارض همزية حسان بن ثابت .

ويذكر أن نور النبي أصل لنور الشمس :

وَأَيْنَ الشَّمْسُ مِنْهُ سَنَا وَلَوْلَا سَنَاهُ لَمَا أَلَمَ بِهَا سَنَا

وأنه يحارب بالدعاء وبالرأي وبالجيش :

سِهَامُ دُعَا لَهُ وَسِهَامُ رَأْيٍ لَهَا فِي كُلِّ مَعْرَكَةٍ مَفْزَاءُ
دَرَى دُورَ الْجَيْشِ مَا صَنَعَتْ ظُبَاهُ وَمَا يُذَرِّيهِ مَا صَنَعَ الدُّعَاءُ

ويذكر أن الناس كانوا يحجون البيت بسرّه قبل أن يولد بأزمان فيقول :

وَلَوْلَا لَهُ لَمَا حَجَّتْ وَعَجَّتْ وَفُودُ الْبَيْتِ ضَاقَ بِهَا الْفَضَاءُ
فَإِنْ يُتْلَى لَهُ فِي الْحَجِّ حَمْدُ فَقَدْ تَمَّا قَدْ تَلَّاهُ الْأَنْبِيَاءُ

ومن اللعب بالألفاظ هذان البيتان :

وَنَفْسٌ ذُنُوبُهَا كَانَتْ لِمَدٍّ وَمَا لِيُؤْغِدَ تَوْبَتَهَا وَفَاءً
مُسَوِّفَةٌ مَتَى وَعَدَتْ بِخَيْرٍ تَقُلْ سَيْنٌ وَرَاوٍ ثُمَّ فَاءً

٥ - وتقع الرائية في تسعين بيتاً ، منها سبعة وثلاثون في الذنوب ، وهي خير ما قال في المدائح النبوية . وربما كانت خير ما في ديوانه من الشعر الجيد ، وتمتاز هذه القصيدة بوضوح المعاني وقوة السبك ، وفيها كذلك إشارة لبعض لغات القدماء ، ولا بد أن يكون معاصرو ابن نباتة تلقوها بكثير من القبول ، لأنها بعث لروعة الشعر القديم ، ولننظر كيف يقول :

صَحَا الْقَلْبُ لَوْلَا نَسْمَةٌ تَخْطُرُ وَلَمَعَةُ بَرْقٍ بِالْغَضَا تَنْسَعِرُ
وَذِكْرُ جَبِينِ الْبَابِلِيَّةِ إِذْ بَدَا هِلَالُ الدُّجَى وَالشَّيْءُ بِالشَّيْءِ يُذْكَرُ
سَقَى اللَّهُ أَكْنَافَ الْغَضَا سَائِلَ الْحَيَا وَإِنْ كُنْتُ أُسْقَى أَدُمًا تَتَحَدَّرُ
وَعَيْشًا نَضًا عَنْهُ الزَّمَانُ بَيَاضُهُ وَخَلْفُهُ فِي الرَّأْسِ يَزْهُو وَيُزْهَرُ
تَمَيَّزَ ذَاكَ اللَّوْنُ مَعَ مَنْ أُحِبُّهُ وَمَنْ ذَا الَّذِي يَاعِزُّ لَا يَتَغَيَّرُ
وَكَانَ الْعَصَا لَيْلًا وَكُنْتُ كَحَالِمٍ فَيَا أُسْنَى وَالشَّبَبُ كَالصَّبْحِ يُسْفِرُ
يُعَلِّلُنِي تَحْتَ الْعِمَامَةِ كَنَمُهُ فَيَعْتَادُ قَلْبِي حَسْرَةً حِينَ أَحْسِرُ
وَيُسْكِرُنِي لَيْلِي وَمَا خِلْتُ أَنَّهُ إِذَا وَضَعَ الْمَرْءُ الْعِمَامَةَ يُسْكِرُ

والقارئ يجد في هذا الشعر العذب كلمات (الغضا) و (البابلية) و (يجد) ومن ذا الذي ياعز لا يتغير) ، و (يجد) (صحا القلب) ، و (يجد) (العمامة) ، وكل أولئك إشارات إلى معان تحدث عنها الشعراء الأقدمون . وكذلك تطرد العذوبة في قوله بعد أبيات :

وَعَبْدَاءُ أَمَّا جَفْنُهَا فَوُئِثٌ كَلِيلٌ وَأَمَّا لَحْظُهَا فَمَذَكْرٌ
يَرُوقُكَ جَمْعُ الْحُسْنِ فِي لَحْظَاتِهَا عَلَى أَنَّهُ بِالْجَفْنِ جَمْعٌ مُكْسَرٌ
مِنَ الْغَيْدِ تَحْتَفُ الظُّبَا بِحَبَابِهَا وَلَكِنَّهَا كَالْبَذْرِ فِي الْمَاءِ يَظْهَرُ
يَسِفٌ وَرَاءَ الْمَشْرِفَةِ خَذُهَا كَمَا شَفَّ مِنْ دُونَ الرُّجَاجَةِ مُسْكِرٌ
وَلَا عَيْبَ فِيهَا غَيْرُ سِحْرِ جَفُونِهَا وَأَحْبَبَ بِهَا سَحَّارَةٌ حِينَ تَسْحَرُ
إِذَا جُرِّدَتْ مِنْ بُرْدِهَا فَهِيَ غَبْلَةٌ وَإِنْ جَرَّدَتْ أَلْحَاطُهَا فَهِيَ عَنَرٌ

ومع حلاوة هذا الشعر فانا لا نفهم جيداً كيف يؤنث الجفن ويذكر اللحظ ،
ولعله يريد فتور الجفن ، وفتك اللحظ . والجمع المكسر في البيت الثاني فيه
إشارة لطيفة . وقوله :

يَسِفٌ وَرَاءَ الْمَشْرِفَةِ خَذُهَا كَمَا شَفَّ مِنْ دُونَ الرُّجَاجَةِ مُسْكِرٌ

فيه معنى جميل ، و « المشرفية » هي اللثام ، ولم أرها عند غير ابن نباتة ، وهي
كلمة مولدة . والبيت الأخير فيه تلاعب بالألفاظ ، ولكنه مع ذلك مقبول .
وابن نباتة مغرم بأمثال هذه الألاعيب اللفظية ، ونراه يقول في هذه
القصيدة ، وهو يصف الناقة التي حملته إلى أرض الحجاز حيث قبر الرسول :

إِذَا مَا حُرُوفُ الْعِيسِ خُطَّتْ بِقَقْرَةٍ غَدَتَ مَوْضِعَ الْعُنْوَانِ وَالْعِيسُ أُسْطَرٌ
فَلِلَّهِ حَرْفٌ لَا تُرَامُ كَأَنَّهَا لَوْ شَكَ السُّرَى حَرْفٌ لَدَى الْبَيْدِ مُضْمَرٌ

ومن أسماء الناقة : الحرف ، فرأى الشاعر أن يجعل العيس أسطراً ، وأن يجعل
ناقته موضع العنوان ، أما الحرف المضمّر فوصف جميل ، وإن لم يعرفه النحاة .

ثم يأخذ في مدح النبي فيبدأ بمعنى ساذج : إذ يذكر أن النبي تم مجده قبل أن يخلق آدم ، وذلك قوله :

نَبِيٌّ أَمَّمَ اللَّهُ صُورَةَ نَفْسِهِ وَأَادَمُ فِي نَفْسِهِ يُتَصَوَّرُ

وفي هذا البيت جناس سخي .

ويحمل من شرفه أن جبريل خادمه ، وأن عيسى بشر به ، فيقول :

تَحَزَّمَ جِبْرِيلُ لَخِدْمَةِ وَحْيِهِ وَأَقْبَلَ عِيسَى بِالْبَشَارَةِ يَجْهَرُ
فَمَنْ ذَا يُضَاهِيهِ وَجِبْرِيلُ خَادِمُ لِمَقْدَمِهِ الْعَالِي وَعِيسَى مُبَشِّرُ

وعبارة « تحزم لخدمته » لا تزال حية في لغة التخاطب .

ويتحدث عن تهاوى النجوم ونضوب بحيرة ساوة ليلة مولده ، كما يتحدث

غيره ، فيقول :

تَهَاوَى إِمَاتَاهُ النُّجُومُ كَأَنَّهَا تُشَافُهُ بِأَلْحَدِ الثَّرَى وَتُمْفَرُ
وَيَنْضُبُ طَامٍ مِنْ بُحَيْرَةِ سَاوَةٍ وَلَمْ لَا وَقَدْ فَاضَتْ بِكَفَيْهِ أُنْجُرُ

وتمثل نوره يتنقل بين الأصلاب الكريمة ، ويرى قوة إبراهيم وثورته على الأصنام فيضاً من فضله ، وكذلك يجعله السرّ في فدى الذبيحين وردّ جيوش الفيل ، وذلك قوله :

تَنْقَلُ نُورًا بَيْنَ أَصْلَابِ سَادَةٍ فَاللَّهُ مِنْهُ فِي سَمَا الْفَضْلِ نَيْرُ

بِهِ أَيْدِ الطُّهْرِ الْخَلِيلِي فَأَنْتَحَتْ يَدَاهُ عَلَى الْأَصْنَامِ تَغْزُو وَتَكْسِرُ
وَمِنْ أَجْلِهِ جِيءَ الَّذِي يَحَانِ بِالْفِدَى وَصَيْنَ دَمٌ بَيْنَ الدِّمَاءِ مُطَهَّرُ
وَرَدَّتْ جِيُوشُ الْفِيلِ عَنْ دَارِ قَوْمِهِ فَاللَّهُ نَصْلٌ قَبْلَ مَا سُلَّ يَنْصُرُ

والقصيدة على طولها ليس فيها جديد ، فهي معان مكررة تعاورها المادحون من قبل ، وقد ختمت القصيدة بقطعة جزلة توصل فيها الشاعر بالرسول ، واستعداه على ما يقاسى من الذل والاعتراب .

٦ - وتقع العينية في ثمانية وثمانين بيتا ، منها ستة وعشرون في النسيب . والنسيب في هذه القصيدة ضعيف ، والشاعر يعضى فيه على ما ألف من الاشارات ، كأن يقول :

بَانَ سَعَادُ فَلَيْتَ يَوْمَ رَحِيلَهَا فُسِحَ اللَّقَا فَلَثُمْتُ كَعْبَ مُوَدَّعِي

يشير إلى (سعاد) في قصيدة كعب بن زهير ، والمدح في هذه القصيدة ضعيف أيضاً ، وهو فيه يقتبس بعض التعابير القديمة ، كقوله :

مَاذَا عَسَى الْمَذْحُ الطَّهْورُ يُدِيرُ مِنْ كَأْسِ الثَّنَاءِ بَعْدَ الْكِتَابِ الْمُتَرَعِ
بَعْدَ الْخَوَائِمِ أَلَّتِي بِنَنَائِهَا هَبَطَتْ إِلَيْكَ مِنَ الْمَحَلِّ الْأَرْفَعِ

والشطر الأخير من قصيدة ابن سينا في النفس .

والشاعر مفتون بهذه القصيدة ، ويرى نفسه خليفة حسان فيقول :

إِنْ كُنْتُ حَسَّانَا بِمَدْحِكَ نَائِبًا فَسَنَّاكَ أَرْشَدُهُ وَقَالَ لِي أَتْبَعِ

وفي القصيدة قطعة طويلة بكى فيها الشاعر صباه ، وتألم من غفلته بعد الشيب
عن المتاب .

٧ - أما اللامية فتقع في تسعة وسبعين بيتاً ، منها خمسة وعشرون في
النسيب ، وهي قصيدة نظمها الشاعر معارضة لقصيدة بانت سعاد ، وقد
اقتبس من لامية كعب شطرات كثيرة ، كقوله :

مَا يُنْسِكُ الْهُدْبُ دَمْعِي حِينَ أَذْكُرُكُمْ
إِلَّا كَمَا يُنْسِكُ الْمَاءُ الْغَرَايِلُ

وهو مقتبس من قول كعب :

وَلَا تَمْسِكُ بِالْهَدَى الَّذِي زَعَمْتَ إِلَّا كَمَا يُنْسِكُ الْمَاءُ الْغَرَايِلُ

وقوله :

بَاتَتْ زَخَارِفُهَا بِالصَّبْرِ وَاعِدَةً وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا الْأَبَاطِيلُ

وهو مقتبس من قول كعب :

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُزُوبٍ لَهَا مَثَلًا وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا الْأَبَاطِيلُ

وهو نفسه قد أفصح عما يؤكد هذه المعارضة إذ قال :

يَا خَاتَمَ الرُّسُلِ لِي فِي الْمَذْنِبِينَ غَدًا عَلَى شَفَاعَتِكَ الْغَرَاءُ تَعْوِيلُ
إِنْ كَانَ كَعْبٌ بِمَا قَدْ قَالَ ضَيْفَكَ فِي دَارِ النَّعِيمِ فَلِي فِي الْبَابِ تَطْفِيلُ

وَأَيْنَ كَابِنٍ زُهَيْرٍ لِي شَذَا كَلِمٍ رَيْمُهُمَا بِنَعَامِ الْقُرْبِ مَطْلُوكُ
بَانَتْ مَعَاذِيرُ عَجْزِي عَنِ نَدَاكَ وَعَنْ بَانَتْ سُمَادُ قَلْبِي الْيَوْمَ مَتَبُولُ

والنسيب في هذه القصيدة لا يخلو من روعة ، كقوله في خطاب الأحباب :

يَا بَاعِثِينَ سُهَادًا لِي وَفَيْضَ بُكَاءٍ مَهْمَا بَعَثْتُمْ عَلَى الْعَيْنَيْنِ تَحْمُولُ
هَبِكُمْ مَنَعْتُمْ جُفُوفِي مِنْ خَيَالِكُمْ فَكَيْفَ يُنَمِّعُ تَذْكَارُ وَتَحْخِيلُ
فِي ذِمَّةِ اللَّهِ قَلْبُ يَوْمَ بَيْنِكُمْ مُوزَعٌ وَدَمٌ فِي الْحُبِّ مَطْلُوكُ
شُعِلْتُمْ بِصَبَاحِ الْأُنْسِ مُبْتَسِمًا وَنَاطِرِي بِظِلَامِ اللَّيْلِ مَشْغُولُ
كَأَنَّمَا الْأَفْقُ مَحْرَابٌ عَكَفْتُ بِهِ وَالنَّيِّرَاتُ بِأَفْقِيهِ الْقَنَادِيلُ

وقوله : (مهما بعثتم على العينين محمول) من التعابير الحية في القرى المصرية .

ومن الكلام المقبول قوله في تفدية زمن الوصل :

يَفْدِي الزَّمَانَ الَّذِي فِي عَامِهِ قِصْرُ هَذَا الزَّمَانِ الَّذِي فِي يَوْمِهِ طُولُ

أما قوله :

لَوْ كُنْتُ أُرْتَاعُ مِنْ عَذْلِ لَرَوَّعِي سَيْفُ الْمَشِيبِ بِرَأْسِي وَهُوَ مَسْئُولُ
أَمَاتَرَى الشَّيْبَ قَدْ دَلَّتْ كَوَاكِبُهُ عَلَى الطَّرِيقِ لَوْ أَنَّ الصَّبَّ مَذْلُولُ
حَتَّامَ أَسْأَلُ عَنْ لَهْوٍ وَعَنْ لَعِبٍ وَفِي غَدٍ أَنَا عَنْ عُقْبَاهُ مَسْئُولُ

فهو مسامرة للبوصيري في قصيدته الميمية .

فاذا انتقلنا إلى المديح رأيناها يعود إلى معانيه الماضية فيذكر أن محمداً جبيل

معنى نبوته قبل أن يجبل آدم ، وأن تاج علاه ارتفع قبل أن يرتفع ضوء البدر والنجم ، فيقول :

مُحَمَّدُ الْمُجْتَبَىٰ مَعْنَىٰ جِبِلَّتِهِ وَمَا لَادَمَ طِينٌ بَعْدُ مَجْبُولُ
وَالْمُجْتَلَىٰ تَاجٌ عَلَيْهِ الرَّفِيعُ وَمَا لِلْبَدْرِ تَاجٌ وَلَا لِلنَّجْمِ إِكْلِيلُ

ولا يكتفى بهذه الدعوى ، بل يدعى أنه لولا النبي لم تخلق الأرض ولا الأفق ولا الزمان ولا الناس ولا المناسك ، ولا كان في الدنيا وحى ولا تنزيل ، وأن أبرهة لم ينهزم إلا بسره ، وذلك حيث يقول :

لَوْلَا هُ مَا كَانَ أَرْضٌ وَلَا أَفُقٌ وَلَا زَمَانٌ وَلَا خَلْقٌ وَلَا جِيلُ
وَلَا مَنَاسِكٌ فِيهَا لِلْهُدَىٰ شُهْبٌ وَلَا دِيَارٌ بِهَا لِلْوَحْيِ تَنْزِيلُ
ذُو الْمُعْجَزَاتِ الَّتِي مَا اسْتَطَاعَ أَبْرَهَةُ يَفْزُو مَنَازِلَهَا كَلًّا وَلَا الْفِيلُ

ويعود إلى ما تحدث عنه في الرائية من خدمة جبريل ، فيقول :

مَا زَالَ فِي الْخَلْقِ ذَا جَاهٍ وَذَا خَدَمٍ لَكِنَّ خَادِمَهُ الْمَشْهُورَ جِبْرِيلُ

وقد سرّه أن يكون أبرهة انهزم بسر النبي قبل مولد النبي فعاد إليه في القصيدة نفسها مرة ثانية ، فقال :

حَاجِيَ جَمِّي الْبَيْتِ بِالرُّعْبِ الْمُقَدَّمِ مَا نَاوَاهُ أَبْرَهَةُ الْعَادِي وَلَا الْفِيلُ

وتحدث كما تحدث قبله ناس عن فيض الماء من أصابع النبي ، وبركة ما مست راحته من الزاد ، وما خاطبته به الوحوش ، فقال :

فَاضَ الزُّلَّالُ الْمُهَيَّئِي مِنْ أَصَابِعِهِ نِعَمَ الْأَصَابِعِ مِنْ كَفَيْهِ وَالنَّيْلُ
وَبُورِكَ الزَّادُ إِذْ مَسَّتْهُ رَاحَتُهُ خَبِذَا مَشْرَبٌ مِنْهَا وَمَا كُولُ
وَخَاطِبَتُهُ وَحُوشُ الْبَيْدِ مُقْبِلَةٌ قَالِرْجُلُ عَاسِلَةٍ وَاللَّفْظُ مَمْسُوكُ

وفي هذه القصيدة قطعة في مدح أصحاب الرسول ، نظر فيها الشاعر إلى معاني
كعب ومعاني البوصيري ، فليس فيها جديد . ومن أظهر الشواهد على ذلك
أن البوصيري يقول :

وَالْكَاتِبُونَ بِسُومِ الْخَطِّ مَا تَرَكَتْ رِمَاحُهُمْ حَرْفَ شِرْكٍ غَيْرَ مُنْعَجِمٍ
فيجىء ابن نباتة فيقول :

الْكَاتِبُونَ مِنَ الْأَجْسَامِ مَا عَتَبَتْ سُودٌ وَيَبِضُّ فَنَقُوطٌ وَمَشْكُولُ
ومن الغرام بالإشارات الاصطلاحية قوله في وصف الرسول :

مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مُصْطَبِرًا عَلَى الْجِرَاحِ وَبَعْضُ الْجِرَاحِ تَعْدِيلُ
يشير إلى بعض القواعد في علم مصطلح الحديث .

٨ - أما الميمية فهي أقصر مدائحه وأضعفها ، ولم يتدبها بالنسب كما
فعل في أخواتها من قبل . ولم يأت فيها بمعنى طريف ، وإنما أعاد الحديث عن
نار كسرى ، وذكرنا بالأعبيه اللفظية حين قال :

بِمَقَامِكَ الْمَرْفُوعِ يُخَفِّضُ ذَنْبَنَا الْمَنْعُوبُ إِنَّ رَجَاءَنَا الْمَجْزُومُ

٩ - وخلاصة القول أن ابن نباتة كان من المولعين بالمدائح النبوية كأهل

عصره ، وله في ذلك قصائد بعضها جيد وبعضها ضعيف . ويجب أن نتذكر أن ابن نباتة كان من المفتونين بالمجون ، وفي ديوانه مقطوعات كثيرة فيها دعارة وفسق ، وفيها تزيين للآثم والفواية ، وتلك اتجاهات نفسية توحى إلى من كان في مثل رقة حسه أن يفزع إلى الندم والتاب : وكذلك نجد في مدائحه رقة المستغفر المنيب . ولا ينقض ذلك أن يكون شعره ضعيفا في الاستغفار والالاباة ، فإن ذلك الضعف لا يرجع إلى قيمة الصدق في توبته ، ولكنه يرجع إلى ضعف الشاعرية عند ابن نباتة ، فلن نرى شعره في أصدق مواقفه أقوى من شعره في استغفاره وإنابته . وعودته الى مدح الرسول من حين إلى حين تؤكد ميل نفسه إلى هذا الفن ، وتدل على رغبته في اخلاص من آصار الذنوب . ولا ننس النص على أن اهتمامه بمعارضة قصيدة كعب والاشارة إلى همزية حسان يدل على سيرورة تلك القصائد ، وقربها من أذهان الناس ، وعدّها من أصول المدائح النبوية .

ولننص أيضا على أن جامع ديوان ابن نباتة رتبه على حروف المعجم ورأى أن يجعل ما قيل في مدح الرسول رأس الباب : فالهمزية هي أولى القصائد في باب الهمزة ، والرائية أولى القصائد في باب الراء ، وهكذا ، وفي ذلك ما يدل على منزلة المدائح النبوية في أنفس مصنفى الدواوين .

وأغرب ما لاحظناه أن ابن نباتة لم يشغل نفسه بمعارضة ميمية البوصيرى ، مع أنها كانت شغل الشعراء في ذلك الحين ، فدل بذلك على أنه استقل عن الروح السائد في عصره بعض الاستقلال

خاتمة الكتاب

قصة المولد النبوى

قصة المولد من مبتدعات الصوفية — انقيصة الفنية في إنشاء
المولد — قيمتها الأدبية والفنائية — ما في المولد من
المخازن والأساطير — دعوة وزير الأوقاف إلى وضع سينغ
جديدة تلام العصر الحاضر — رأى الدكتور طه حسين —
ما تجب مراعاته في وضع قصة المولد النبوى



١ — هذه القصة نوع من المدائح النبوية ، وهى ليست قديمة العهد فى التاريخ الاسلامى ، وإن زعم بعض مؤلفى المولد أن النبىّ أوصى فى حياته بأن يحتفل المسلمون بمولده بعد أن يموت . وأغلب الظن أن الاحتفال بالمولد نشأ فى بلاد فارس . وأقدم ما وصلت إليه فى تاريخ هذا النوع من الاحتفال ما قرأته فى نفح الطيب عن ابن دحية ، وقد مرّ بأربل سنة ٦٠٤ ورأى مظهر الدين كوكبرى معتنيا بعمل المولد النبوى فى شهر ربيع الأول من كل عام ، فمسنف له كتابا سماه : «التنوير ، فى مولد السراج المنير» وختمه بقصيدة طويلة فأجازره مظهر الدين بألف دينار^(١) .

(١) انظر نفح الطيب ج ١ ص ٥٢٩ ، ومن قبل ذلك احتفال الفاطميون فى مصر بالمولد النبوى

ومن المؤكد أن تأليف الموالد أقدم من ذلك فقد استعملت لفظة «مولد» بمعنى «تاريخ» منذ عهد بعيد، وللواقدي كتاب اسمه : «مولد الحسن والحسين» .

٢ - لا جدال في أن المسامين اهتموا منذ عهد بعيد بتدوين أخبار الرسول ، أما وضع القصص الخيالية عن مولده ونبوته وأزواجه وغزواته ، فهو من عمل الصوفية وهم الذين اتخذوا قصة مولده أحبولة يتصيدون بها أهواء الناس والذي ينظر في تقاليد الصوفية يراهم أدخلوا المولد في صميم الحياة الدينية ، أى جعلوه عنصراً أصيلاً في الحفلات الشعبية ، فقرأوا القصة في ربيع الأول وفقاً للتقاليد الرسمية ، ثم تقرأ في كل وقت حين تخلق المناسبات : كحفلات التهانى وحفلات الأعراس . وقد صار الاحتفال بالمولد من الأعياد الرسمية في مصر بفضل الدعاية الصوفية .

ولم نستطع الوصول إلى معرفة أول من ألف في الموالد فليكتف القارئ الآن بأن يعرف أن من أقدم ما عرفنا من هذا النوع كتاب « العروس » وهو مولد ألفه ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ، ورسالة ابن جابر الأندلسى المتوفى سنة ٧٨٠ هـ ، ورسالة الرعيني الغرناطى المتوفى سنة ٧٧٩ هـ

وفي دار الكتب المصرية نحو أربعين مولداً ألفت في عصور مختلفة ، ولو استقصينا لعرفنا أن هذا النوع من التأليف كثر جداً : فلكل طريقة مولد ، بل لكل شيخ مولد ، وهى جميعاً تتشابه في الغرض والأسلوب .

٣ - ولننصّ على أن أكثر الموالد نظم في ثره نظماً غنائياً ليصلح للترتيل والتغنى والانشاد ، ولم يَرَجُح بين الجمهور إلا الموالد التى روى فيها نظام

الفواصل المسجوعة التي تجرى مجرى القصيد في التزام القافية . ولنذكر
لذلك شاهدين :

الشاهد الأول قول البرزنجي :

وَوَظَّهَرَ عِنْدَ وَلَادَتِهِ خَوَارِقُ وَغَرَائِبُ غَيْبِيَّةَ .
إِزْهَاصًا بِنُبُوتِهِ وَإِعْلَامًا بِأَنَّهُ مُخْتَارُ اللَّهِ تَعَالَى وَمُجْتَبَاهُ .
فَزَيَّنَتْ السَّمَاءَ حِفْظًا وَرَدَّدَتْ عَنْهَا الْمَرْدَّةُ وَذَوُّو النُّفُوسِ الشَّيْطَانِيَّةَ .
وَرَجَمَتْ رُجُومُ النَّيِّرَاتِ كُلَّ رَجِيمٍ فِي حَالِ مَرَقَاهُ .
وَتَدَلَّتْ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأَنْجُمُ الزُّهْرِيَّةَ .
وَأَسْتَنَارَتْ بِنُورِهَا وَهَادُ الْحَرَمِ وَرُبَاهُ .
وَخَرَجَ مَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نُورُ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ الْقَيْصَرِيَّةَ .
فَرَأَاهَا مَنْ بِيَطَاحِ مَكَّةَ دَارُهُ وَمَغْنَاهُ .
وَأَنْصَدَعَ إِيوَانُ كِسْرَى بِأَلْمَدَائِنِ الْكِسْرَوِيَّةَ .
الَّذِي رَفَعَ أَنْوَشِرَوَانُ سَمَكُهُ وَسَوَاهُ .
وَسَقَطَ أَرْبَعُ وَعَشْرُ مِنْ شُرَفَاتِهِ الْعُلُويَّةَ .
وَكُسِرَ سَرِيرُ الْمَلِكِ كِسْرَى لِهَوْلِ مَا أَصَابَهُ وَعَرَاهُ .
وَتَحَدَّتِ النَّيِّرَانُ الْمَعْبُودَةُ بِالْمَمَالِكِ الْفَارِسِيَّةَ .
لِطُلُوعِ بَذَرِهِ الْمُنِيرِ وَإِشْرَاقِ مُحْيَاهُ .
وَقَاضَتْ بِمُحْيَرَةٍ سَاوَةً وَكَانَتْ بَيْنَ هَمْدَانَ وَقُمٍّ مِنَ الْبِلَادِ الْمَجْمِيَّةَ .
وَجَفَّتْ إِذْ كَفَّ وَكَفَّ مُوجِهَا الشَّجَاجِ يَنْأِيْعُ هَاتِيكَ الْمِبَاهُ .

وفاض وادى سماءه وهى مفازة فى فلاة وبرية .
ولم يكن بها من قبل ما ينفع للظنآن الالهة .

والشاهد الثانى قول المناوى (١) :

وفى أول ليلة من ليالى حمله صلى الله عليه وسلم أغلقت أبواب الجحيم ،
وفُتِّحت أبواب الجنان الرضوانية .

وأطلع الحى القيوم وتجلّى برحمته ورضوانه التجلى العالم .
وأهتزّ الأرض طرباً ومال الكرمى عجباً وأنشّرت الرايات الربانية .
وتلألأت الكائنات بالأنوار ، وتنكّست على رؤسها الأضنام .
ونطقت دواب قريش بالملقات العربية .

وقالت حبل برسول الله صلى الله عليه وسلم ورب الكعبة فهو إمام
الدنيا وسراج الأنام .

وفرت وحوش المشرق إلى وحوش المغرب بالبشائر القولية .
وبشّرت حيتان البحر بعضها بعضاً بظهور مصباح الظلام .
ونادى لسان حال الكائنات جاءنا اليسرُ بعد الشدائد العسرية .
وظهر إمام العدل والرفيق من الحواسد نام .
ولم تجذأ أمه فى حمله وحماً ولا تعباً ولا كربة .

(١) اشتهر مولد المناوى شهرة عظيمة ، وبلغ من روعته أن صنعت منه لوحات غنائية «اسطوانات»

يسمعاها الناس من المذياع ، وفى مجموعة أوديون اسطوانة للشيخ ابراهيم الفران فيها قطعة طريفة
من مولد المناوى ، ومن المحتمل أن تكون هناك اسطوانات لغيره من قراء المولد النبوى .

وَلَا ثِقَلًا ، وَلَا هُزْلًا ، وَلَا مَسَّ آلَامَ .
وَكَانَ بَدْءُ خَلْقِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي لَيْلَةِ جُمُعَةٍ مِنَ اللَّيَالِي الرَّجَبِيَّةِ .
وَأَنْتَهَاؤُهُ فِي شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ لَيْلَةَ الْاِثْنَيْنِ الثَّانِي عَشَرَ مِنَ الْأَيَّامِ .
وَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ يُسَبِّحُ وَيُقَدِّسُ ذَاتَ رَبِّهِ الْوَاحِدَانِيَّةِ .

فَكَانَتْ السَّيِّدَةُ تَسْمَعُ تَسْبِيحَهُ وَتَقْدِيسَهُ وَهُوَ فِي بَطْنِهَا ، فَسَبَّحُوا مِنْ لَا يَنَامُ .
٤ - ويضاف إلى هذه المنظومات النثرية منظومات شعرية ينشدوها المنشدون بعد كل وصلة والوصلة تختم بدعاء مكرّر كأن يقول المناوي :
اللَّهُمَّ عَطِّرْ قَبْرَهُ بِالْأَمْطِيمِ وَالنَّحِيَّةِ .
وَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَالْآثَامَ .

وتلك المنظومات الشعرية ساذجة في ألفاظها ومعانيها فهي ليست من الأدب الفحل ، ولكن قيمتها ترجع إلى عمق أثرها في البيئات الشعبية .
٥ - ومن التحامل أن ننكر قيمة هذه الموالد من الوجهة الأدبية فقد نقلت إلى الجماهير شيئاً من أخبار الغزوات ، وحدثتهم عن أشياء كثيرة من شمائل الرسول ، ثم صارت مع الزمن عنصراً من الحياة الفنائية ، وأصبحنا نفتتح دفتر التليفون فنجد أسماء كثيرة للناس يحترفون إنشاد قصة المولد النبوي ، وهي حرفة شريفة لأن أهلها في الأغلب ينتظر منهم أن يكونوا من الأتقياء الصالحين . ومع أن الفناء تحوّل في الأيام الأخيرة إلى الأوساط المصرية فإنه لا يزال للشيخ علي محمود ، والشيخ اسماعيل سكر ، والشيخ حسن جابر ، سلطاناً

عظيم في الأوساط الشعبية . ومحطة الاذاعة الحكومية في مصر تهتم بدعوة أمثال الشيخ على محمود والشيخة منيرة عبده لتلاوة الموالد النبوية ، فينشدون قصائد بعضها في الحب ، وبعضها في مدح الرسول ، والجمهور يتلقى ذلك بكثير من الارتياح .

والواقع أن أكثر المغنين المشهورين كانوا في البداية من الذين ينشدون في حلقات الذكر ويقرءون قصة المولد النبوى .

٦ - ولا بد من الإشارة إلى أن روح التشيع سرى إلى بعض من يقرءون قصة المولد النبوى بدون أن يتنبهوا إلى ذلك : فقد سمعت منهم قصائد في التفجع لمصرع الحسين .

والتصوف والتشيع يرجعان عند المسلمين إلى أصل واحد ولا يفصل بينهما إلا حاجز غير حصين من الرسوم والتقاليد .

٧ - والذي يراجع الموالد النبوية يجدها مملوءة بالخرافات والأضاليل ، وقد احتمل الناس لغوها زمنا طويلا ، لأنها لم تكن تُنْشَى إلا في البيئات العامة التي تصدق كل شيء ، ولكن اتفق أخيرا أن أذاع وزير الأوقاف السابق سعادة محمد نجيب الغرابي باشا في شهر ربيع الثانى سنة ١٣٥٣ كذابا في الصحف بيّن فيه أن الصيغ التي وضعت للمولد النبوى صيغ قديمة كانت تتفق في روحها وأسلوبها وألفاظها مع العصور التي وضعت فيها ولكنها لا تتفق مع العصور الحالية وأنها حُشِيتْ بقصص ضعيفة السند لا تصوّر المعروف من مولد الرسول وحياته في صورته الصحيحة . ثم دعا أهل العلم إلى وضع صيغة جديدة للمولد يراعى فيها أو لا تحرّى الأخبار الصحيحة الثابتة عن مولد الرسول

وحياته ، وثانيا اتفاق الصيغة في روحها وأسلوبها مع العصر الحاضر ، ثم وعد بتقديم مئة جنيه لمن يقدم أفضل صيغة للمولد النبوى .

وقد قوبل كتاب وزير الأوقاف بالترحيب من الهيئات العلمية والأدبية ، ولكن الدكتور طه حسين كتب يناقشه في جريدة الوادى فى العدد الذى صدر مساء الأربعاء أول أغسطس سنة ١٩٣٤ . ومع أن الدكتور طه حسين كتب مقاله وهو متأثر بالمعارضة الحزبية لذلك الوزير ، فإن مقاله على ما فيه من عنف يفسر حياة تلك الموالد فى الجماهير الشعبية ، وهو يراها تثير العاطفة ، وترضى الذوق ، ويرى من الأصلح أن لا يحرم الناس من خيال لا يخالف الدين ، ولا يفسد على الناس أمراً من أمور الايمان ، ثم قال : وأىّ بأس على المسلمين فى أن يتحدث إليهم قصص بهذه الأحاديث الحلوة العذاب فتنبئهم بأن أمم الطير والوحش كانت تختصم بعد مولد النبى كلها يريد أن يكفله ولكنها ردت عن هذا لأن القضاء سبق بأن رضاع النبى سيكون إلى حليلة السعدية ؟ وأىّ بأس على المسلمين فى أن يسمعو أن الجن والانس والحيوان والنجوم تابشرت بمولد النبى وأن الشجر أوردق لمولده ، وأن الروض ازدهى لمقدمه ، وأن السماء دنت من الأرض حين مسّ الأرض جسمه الكريم ؟ لم تصحّ الأحاديث بشئ من هذا ولكن الناس يحبون أن يسمعو هذا ويرون فى التحدث به والاستماع إليه تمجيذاً للنبي الكريم لا بأس به ولا جناح فيه . وأىّ بأس على المسلمين فى أن يسمعو أن نقرأ من الملائكة أقبلا إلى النبى وهو طفل يلعب فأضجموه ، وشقوا عن قلبه وغسلوه حتى طهره ، ثم ردوه كما كان ، وأقاموه كأن لم يصبه مكروه ؟

لم يصح الحديث بهذا، ولكن المسلمين يتحدثون به ، ويستمعون له منذ أكثر من
أثنى عشر قرناً لم يفسد لذلك ذوقهم ولم يضعف إيمانهم إن من فاحش
الخطأ أن يضيق على الجماهير حتى في القصص البريء ، إن من فساد الذوق أن
لا يباح للجماعات إلا الحق الذي لاحظ للخيال فيه ، إن من سوء العناية بالدين أن
يكف الخيال عن تأييد الدين .

ومعنى هذا الكلام أن مؤلفي الموالد خدموا الدين بما أذاعوا من الأساطير
وهذا حق من جانب ، وخطأ من جانب .

هو حق لأن الخيال يزيد في أنس الناس بالدين ، وأكثر الديانات تأصلاً
في أنفس الجماهير هي الديانات التي تفيض بالخرافات والأساطير ، ولا تزال
المذاهب المسيحية تقسم أهواء الناس على هذا الأساس .

وهو خطأ لأنه ينشئ الناس إنشاء فاسداً ، ويضيع على الاسلام عدداً
عظيماً من أبنائه الذين يرضيهم أن يقوم دينهم على أساس العقل ، ويسوء هم أن
يروا في معتقداتهم صوراً من وثنية الهنود والفرس واليونان .

٨ — هذا وقد سمعنا أن وزارة الأوقاف تلقت عشرات من القصص
الجديدة التي تصور حياة الرسول بما يوافق ذوق العصر الحديث، ولسنا ندرى
على أي نغمة وضعت تلك القصص ولكننا نرجو أن تكون الموالد القديمة نموذجاً
للمولد الجديد من الوجهة الفنية ، فإن المولد لم يوضع في الأصل ليكون كتاب
تاريخ ولكنه في أصله لون من التمجيد لآثار الرسول ، وهو كذلك من صور
الاستغاثة والتوسل عند الصوفية ، فمن الأنفع أن يراعى الوضع الفني في

تأليفه ليصلح للغناء والترتيل ، فان العامة لا تقتنهم الحقائق المجردة ، وإنما يستهويهم الحق المزخرف ، وفي القرآن نفسه سور مسجوعة ، والقنوت المأثور هو أيضا مسجوع ، ودعوات السلف الصالح كذلك مسجوعة ، وفي هذا كله ما يشعر بأن أهل الرأي من قدماء المسلمين كانوا يراعون النظم الغنائي في الدعوات والصلوات

بحمد الله تعالى تمّ طبع كتاب « أثر المدائح النبوية » مصححاً بعرفتي م

أحمد سعد علي

من علماء الأزهر ورئيس التصحيح

« القاهرة في يوم الخميس ٣ شعبان سنة ١٣٥٤ هـ / ٣١ أكتو

سنة ١٩٣٥ م » .

مدير المطبعة

ملاحظ المطبعة

رستم مصطفى الحلبي

تمد أمين عمران